www.kotobarabia.com

ابن تيمية
الفقيه المعذب

عبدالرحمن الشرقاوى

www.kotobarabia.com

ابن تيمية
الفقيه المعذب

عبد الرحمن الشرقاوى

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الأول

عاش حياة منتقضة متوترة من المعارك المتصلة.. حارب فيها بالقلم وباللسان، وحتى بالسيف نفسه!

كانت معاركة تهدأ فى بعض الاحايين، ولكنها لم تنقطع عنه قط! وهى حتى إذا توقفت، أثارها هو بنفسه من خلال رأي يخالف به ما ألفه الناس، أو حدة يصدم بها أحد مجادليه، أو حملة يشنها على ما يراه بدعة أو مخالفاً للسنة.

وما أكثر ما شاعت البدع والخروج على السنة فى ذلك الزمان!

أي عصر غريب ذلك العصر الذي تحداه، واستنفره.. !

ولد أحمد تقي الدين عام ٦٦٠هـ فى مدينة حران بسوريا.. وفي السابعة من عمره أغار التتار على المدينة، فهاجرت أسرته إلى دمشق، حيث استقر بها المقام..

امتلأت نفس الصغير بإحساس مرير بالقهر والغيظ، وهو يرى صفوفاً مضطربة من النساء والأطفال والرجال، يفرون مذعورين أمام زحف التتار: الأحمال على الظهور الأجساد يدفع بعضها البعض، والمرضى يتساقطون.. وعويل النساء وصرخات الأطفال ملء الإذان.. وفي القلوب رعب هائل من

التتار الزاحفين بكل شراسة وحشيتهم، إشفاق حزين من المجهول!

وأقسم الصبي أنه حين يكبر لن يسمح بأن يحدث هذا أبداً... !

وضرب بذراعه الصغيرة المنهكة الهواء في تحد، وهو يعاهد نفسه، على أن يشهر السيف والقلم واللسان، يناضل لكي ترتفع هامة الإنسان، ولكيلا تنهش وحوش الغزاة لحوم الأطفال، ولكي ينقذ الرجال والنساء والحياة من الهوان!

وكان أبوه رجل علم يدرس للناس الفقه الحنبلى فى حران حتى أصبح شيخها.. ولقد استمع أحمد تقي الدين إلى بعض الدروس التى كان يلقيها أبوه، وبهره الفقه وما يضيء به العلم نفوس الرجال!

ولكنه وهو في الطريق من حران إلى دمشق يكاد يخنقه الزحام وتدوسه الأقدام الفارة المرتعدة أخذ يفكر في جدوى كل الكلمات..

ما جدوى العلم والفقه، وكل الكلمات، إن لم تستطع أن تنتشل الإنسان، وتحمي شرف الحياة؟!

ما جدوى كل شيء إن كان الذعر يطارد الأمن، والباطل يغشي الحق بدخان البارود والبهتان؟!

إن الصبي ليشعر في أغوار نفسه، أنه يريد أن يهدم كل ما حوله، ليبنيه من جديد.. فليبنِ عالماً جديداً جديراً بأن يعيش فيه الناس غير مروعين..

عندما يشتد عوده لن يسكت على باطل أو ظلم. .

وحين يعمر قلبه بالعلم الذى يحمله أبوه وكان يحمله جده من قبل.. هذا العلم الذى تحتويه الأسفار وهي أعز ما حملته الأسرة المهاجرة من متاع..

عندها سيجعل الكلمات فى مضاء السيوف!

***

وفي دمشق بدأ أبوه يُدرس في أكبر مدارسها، وكانت شهرته قد سبقته.

وألحق ابنه أحمد تقي الدين بمكتب (كتاب) يحفظ فيه القرآن، ويتلقى مبادئ اللغة الحساب والخط. .

تعهده أبوه ولم يكتف بما يتلقاه ابنه في الكتاب.

واشتهر الصبي بين أقرانه بالذكاء، وسرعة البديهة، وقوة الحافظة، وشاع عنه أنه له حافظة خارقة، حتى أن أحد مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق وقال: "سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلي أراه" قال له خياط: "هذه طريق كتابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يجيء" فجلس الشيخ الجليل قليلاً، فمر صبيان فقال الخياط للشيخ الحلبي: "هذا الصبى الذي معه

اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية" فناداه الشيخ فجاء إليه، فتناول الشيخ اللوح، فنظر فيه، ثم قال: "يا ولدي امسح حتى أملي عليك شيئاً تكتبه" ففعل. فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثاً، فقال: "اقرأ هذا" فلم يزد على أن تأمله مره بعد كتابته اياه، ثم رفعه إليه، وقال: "اسمعه" فقرأه عليه. فقال الشيخ يا ولدى: "امسح هذا" ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ثم قال: "اقرأ هذا" فنظر فيه كما فعل أول مرة. فقام الشيخ وهو يقول: "إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم. فإن هذا لم يرَ مثله"

***

وفي الحق أن أحمد تقي الدين بن تيمية ورث الموهبة والعلم عن أبيه شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، وعن جده مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني شيخ الإسلام.. وكانت أمه تيمية امرأة متفقهة في الدين، تعظ النساء والرجال، وكانت غزيرة العلم، فانتسبت إليها الأسرة: ابنها مجد الدين الذي أصبح شيخاً للإسلام، ثم ابنه عبد الحليم، ثم حفيده تقي الدين.

وكانت أم تقي الدين تهتم بدارسته، كما كان يهتم أبوه.. وكانت تعنى بملبسه ومأكله، وبأن يبدو حسن الهيئة بين أترابه من صبيان الكتاب، كما كان يفوقهم علما وذكاء، وكانت تدارسه فيما يتلقاه بالكتاب.

ولقد عنى به أبوه، فأحفظه كثيراً من الآثار، ودفعه إلى دراسة علوم اللغة العربية وآدابها، فحفظ منذ نصارة صباه كثيرًا من الأشعار..

وفتح له أبوه خزانة كتبه التى اشتراها والتى ورثها من أبيه شيخ الإسلام، وكانت تضم إلى القرآن الكريم كل كتب التفسير، والحديث وعلوم اللغة وآدابها، والسير والتصوف، والتاريخ، وعلوم الفقه، والاحياء، وعلوم الفلسفة، والكلام، والفلك وسائر ما صنفه السلف ودونوه وترجموه فى كل ألوان المعرفة مما ورثه عصر ابن تيمية..

وكان الصبي حين يعود من الكتاب لا يلعب مع غيره من الصبيان، بل يعكف على مكتبة أبيه يقرأ ويحاول أن يفهم فإن استعصى عليه أمر سأل أمه، فإن لم تسعفه انتظرا حتى يعود أبوه فسألاه. . فيشرح الأب ويسترسل، وينتقل به من فن إلى فن.. يفسر له القرآن بالقرآن أو بالحديث، ويثير هذه المسألة الفقهية أو تلك، ثم يطوف به فى شرح معانى الألفاظ على ما تركه الأولون من شعر وآثار، ويتوقف به عند مسألة من مسائل النحو، أو نكته بلاغية أو قضية فلسفية..

وخلال هذه الرحلات الفكرية، يثير خيال الصبي، ويغريه بالتأمل والقراءة والحفظ، ويستنفره إلى الحوار، ويعلمه مقاطع الحجج والبراهين، ويشحذ عقله ويدربه على فنون الإقناع والمناظرة.. وشب الصبي عن الطوق، وأنهى الدراسة

بالكتاب، فألحقه أبوه بالمدرسة، وأخذه إلى مجالس العلماء، وشجعه على مناظرة الكبار...

***

كان أبوه قد أصبح شيخًا للحديث في دمشق، وله المكانة الأولى في أكبر مدرسة بها، وقد لقن ابنه فقه أحمد بن حنبل حتى أتقنه، وظل به حتى أتقن تفسير القرآن، وحفظ كثيرًا من الأحاديث النبوية، ثم درس فقه الأئمة الأربعة، وأصول الفقه في شتى المذاهب، ودرس فقه الشيعة، ووجهه إلى دراسة الفلسفة وآراء المدارس الفكرية المختلفة.

ثم رأى أبوه أن يدربه على الفتيا، وكان تقي الدين يقترب من العشرين، فأفتى على عين أبيه، وشجعه أبوه، فقد كانت الفتاوى صائبة.. وظل به يتعهده ويناقشه فى فتاواه، حتي اطمأن عليه، فتركه يفتى وحده.

وأعجب العلماء من أصدقاء أبيه بغزارة علم الشاب، وعمق نظره، وحسن استدلاله.

غير أن أباه لاحظ فيه حدة عند الجدل، فنصحه أن يعدل عن حدته، فالحدة فى الجدل تولد الخصومة، وتثير عناد المجادل وتضيع الحقيقة التي هي هدف المناظرة الشريفة.

غير أن تقي الدين كانت تأخذه الحمية لما يعتقد أنه الحق، فلا يبإلى بمن يجادله.

وهو في حدته قد يخدش وقار عالم أكبر منه سناً، فيوغر عليه صدر هذا العالم أو ذاك..

ولقد علم أبوه أنه جادل عالماً من خصوم الفقه الحنبلي، وكان ذلك العالم متحيزاً لمذهب الشافعى وآراء الأشعري، فأخطأ العالم، ولكن حدة تقي الدين استفزت العالم، فظل يدافع عما هو خطأ، فقال تقي الدين للعالم: "إنه للعناد أو الجهل بالسنة!"

كان العالم في نحو الخمسين من عمره وتقي الدين قد جاوز العشرين بشهور.

وروع أبوه ونهره قائلاً: "أتقول لعالم أسن منك: هذا عناد أو جهل؟ فهذا منك قلة أدب وإن كنت على الصواب"

فبكى الفتى، وقام يقبل يد أبيه ورأسه. وذهب إلى العالم في بيته يعتذر له عما بدر منه، واسترضاه حتى رضي.

وعاد تقي الدين إلى المنزل، فحكى لأمه ما كان، وجاشت نفسه من الندم، فبكى على كتفها شاكياً من الحدة التي تعتريه كلما أحس أن غيره يتمسك بالخطأ، فتنفلت على الرغم منه كلمات تجرح !!..

وطيبت أمه خاطره، وعاد أبوه إلى المنزل فنصح له أن يجادل الناس بالتي هي أحسن، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فهذا هو ما أمر به الله ورسوله.. وهكذا كان الرسول، وعلى سنته سار الإمام أحمد. .

وتعهد الفتي لأبيه وأمه، أن يكون كما يحبان له، وأن يلتزم السنة فيجادل بالتي هى أحسن..

ثم مات أبوه. . !

وها هو ذا فتى ربعة لا بالطويل ولا بالقصير، متين البنيان، مهيب الطلعة، أبيض الوجه، شديد سواد الرأس واللحية، ينسدل شعره إلى شحمتي أذنيه، جهير الصوت، بعيد ما بين المنكبين، لامع العينين كأن عينيه لسانان ناطقان، تعتريه الحدة فيقهرها بالحلم، فصيح اللسان، نشيط الحركة في وقار، على سماته مخايل الذكاء والجد من غير ما عبوس، وفي وجهه البشاشة، ولقد تغشاه على الرغم من ذلك سحابات الهموم!

ها هو ذا يجد نفسه مطالباً في منزله بأن يعوض أمه عن فقد رفيق عمرها وشيخها..

وكان تقي الدين في الحق برًا بوالدته، وعلى الرغم من شموخه أمام الآخرين، فقد تعود أن يخفض لها جناح الذل من الرحمة..

ها هو ذا الفتى في الحادية والعشرين، يجد نفسه في مكان عالم جليل، هو أبوه.. وعليه أن يملأ الفراغ في مدرسة الحديث، وفي الجامع الأموي بدمشق، حيث كان والده يلقي الدروس.. غير معتمد على أوراق، ويترسل ترسلاً يذهل الحاضرين بأنصع بيان وأفصح لسان..

أيمكن أن ينهض بما كان ينهض به أبوه وجده من قبل.. وأن يجلو للطلاب دقائق الفقه الحنبلي، وأن ينافخ عن السنة، وأن يحارب البدع بالحجة البينة والموعظة الحسنة كما كان يفعل أبوه شيخ الفقه الحنبلي**!؟**

إنه ليشعر أن عليه فوق هذا كله أن يحارب الظلم، وأن يدافع عن المظلومين، فقد تعلم فيما قرأ على أبيه من أقوال الإمام أحمد بن حنبل أن من حفظ حديثاً ولم يعمل به فقد خالف الرسول.

وقد حفظ فيما حفظ من السنة حديثاً شريفا يقول: "إن الناس إذا أوا الظلم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه". وحديثاً شريفاً آخر جاء فيه: " لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم".

وقرر أن يشرع من فوره بالعمل بهذين الحديثين الشريفين، تحت راية حكمة يحفظها عن الإمام علي: "لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق بأهله". . وإنه لينظر فيما حوله من شيءون الحياة والناس فيتذكر ما يحفظه عن عمر:" اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة".

ولكن الحياة لن تصفو للناس، ولن ينتصر فيها الحق والخير حتى يعجز الفجرة، ويصبح الثقات هم أهل الجلد **!**

وهو نفسه لن يستطيع أن يأخذ على يد الظالم، ولن يصغي أحد إلى دعوته للمعروف ونهيه عن المنكر، حتى يكون قد حصل من العلوم ما يقنع الناس بهيبته وصحة رأيه، ويعوض صغر سنه.. وهذه الأمة لن تلقي الرعب فى قلوب الأعداء فلا يعدون عليها بعد، إلا أن قويت أجسام شبابها، وصلح إيمانهم، وصحت في عقولهم أصول الدين وقيمه.

لابد لكي ترتقي هذه الأمة أن تعيش في سياج من الأمن والعدل.. يجب أن يحشد كل طاقاته ويعمل لكيلا يتعذب أطفال آخرون وآباء وأمهات وشيوخ عجائز، كما تعذب هو في قبضة الذعر وكما تعذب سائر الفارين من حران إلى دمشق أمام غزو التتار. . !

وعكف على القرآن والأحاديث يدرس ما أمر الله به المسلمين من تربية النفس على مكارم الأخلاق لتتهذب، وتربية الجسم على العافية ليقوى.. ونظر في الآثار حين كان المسلمون قوة يرهبها أعداء الإسلام، فصح عنده أن من الصحابة الأوائل من كانوا أئمة للهدى وفرسان الوغي في آن واحد.. ووجد أن أكثر الصحابة تقوى وأوفرهم علماً كانوا هم أقواهم ساعداً، وقد حققوا الانتصارات في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي عهد الخلفاء الراشدين.. هكذا كان أبو بكر وعمر وعلي وبلال وأبو عبيدة رضي الله عنهم..

ووجد أن الرسول ﷺ كان يأمر صحابته بأن يعلموا أولادهم فنون الرياضة لتصلح أبدانهم، وليتقووا بها في الجهاد دفاعاً عن دين الله.

وكان هو نفسه قد تعلم كل ألوان الرياضة التي أمر بها الرسول.. ولكنه حين انشغل بطلب العلم، وأكب عليه، لم يعد لديه من الوقت ما يكفي لممارسة الرياضة، فعاد يمارسها، ويدعو الشباب إلى تعلم الفروسية والرماية والسباحة والمصارعة والجري.. فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته وأبناؤهم يتقنون فنوناً كثيرة من الرياضة البدنية، ويؤثر عن النبي ﷺ، أنه كان يتقن ركوب الخيل، ورياضة الجري، والرماية، وهو أشرف المرسلين وسيد الخلق، وحامل الرسالة، وأعلم الناس وأروعهم وأتقاهم.. وما ضيعت الرياضة منه وقته المخصص للهداية وإبلاغ الرسالة.. وقد أمر الله المسلمين بأن يكون لهم في رسول الله أسوة حسنة..

ظلت فكرة الاهتمام بالرياضة تجذب انتباهه، حتى لقد أفتى عندما تقدم به العمر أن الرياضة ثلاث:

أولها: ما أمر به الله ورسوله لأنها تقوي المسلمين في الجهاد مثل تعلم المبارزة والرماية وركوب الخيل، وأدوات الحرب المتاحة في كل عصر. لأن هذه الألوان من الرياضة يحتاج إليها أمر حماية الدين والأمة.

وثانيها: ما نهى عنه الله ورسوله مثل الميسر.

وثالها: ما لم يأمر به الله ورسوله لعدم احتياج الدين، ولم يجئ نهى عنه إذ لا مفسدة فيها، فهي مباحة، وبعضها كان الرسول ﷺ يمارسه كرياضة المصارعة والجري.

وقسم ابن تيمية وقته بين الرياضة، والتدريس، والقراءة، والكتابة..

كان يجهد نفسه، حتى لقد كانت أمه تنهض الليل لتنصحه مشفقة عليه بأن يستريح، فكان يهش في وجهها، ويذكرها بقول الإمام أحمد: "مع المحبرة حتى المقبرة". . ثم يشرح لها ما ينتظره من مهمات جسام يجب أن يسلح لها عقله بالعلم، وجسمه بالقوة.

لكأنه يشعر في أعماقه أنه مسئول عن إصلاح كل مظالم ومفاسد عصره.. فعلى الرغم من كثرة العلماء والفقهاء لم يتصد للمهمة إلا أقل من القليل.. !

ويا لها من مهمة. . ويا له من عصر!

***

كانت الدولة الإسلامية قد تمزقت إلى دويلات، وكان التتار - على الرغم من هزيمتهم في عين جالوت قبل أن يولد ابن تيمية – مازالوا يغيرون على الشام.. والصليبون مازالوا يحلمون بامتلاك أرض المسلمين..

والعصـر ملـيء بالفسـاد: فـالولاة يرتشـون، ولا يـؤدون الأمانة ويبطشون بمن يقاومهم، ومن العلماء من ينـافقهم طمعاً فـي العطـاء !! ومـا عـاد رجـال كـالعز بـن عبـد السلام يفـرض علـيهم هيبـة الـدين، ولا كـالنووي ينصـح الحـاكم فـإذا رفـض الحاكم نصيحته جابهه بأنه مملوك ينهب ما ليس لـه، وعليـه أن يذعن لـرأي أهل التقوى.. السلطان.. والجمود يبسط سلطانه على العقول، فلا أحد يفكر خـارج المـذاهب الفقهيـة المتوارثـة، وكـل حـزب يتعصـب لمذهبـه ويقلـد السـلف، ويكيـد كـل واحـد لأخيه..

دور اللهو والفساد والخمارات أصبحت أكثر عدداً من المدارس.. والمشعوذون المنتسبون إلى الصوفية يبهرون العامة بفنون الشعوذة، ويؤثرون عليهم، ويشيعون الفساد.

الأمراء، وكلهم من المماليك المجلوبين، لهم قانون سري خاص غير الشريعة الإسلامية، توارثوه عن جنكيزيان!!..

الدويلات الإسلامية تتطاحن فيما بينها، وبعض أصحاب هذه الولايات يمالئ التتار أو الفرنج الصليبين ويظاهرهم على بني وطنه المسلمين! ومن الشباب من يرخي الشعر تشبهاً بالنساء، ومن الذين ينتسبون إلى علوم الدين من يحلل الحرمات، ومنهم من يمارس المجون، حتى يفتضح أمره، فيضطر قاضي القضاة إلى الحكم بإعدامه.

وبعض المنتسبين إلى الصوفية يزعم أنه قد اتحد في الله فرفع عنه التكليف، فلا ينهض لأداء أركان الإسلام.. لا صلاة ولا صيام ولا زكاة ! بل يستبيح المحرمات وتعاطي الحشيش!!

والحياة العقلية زاخرة بكلِّ ما لا يرضاه ابن تيمية. فنفوذ المتصوفة قد أصبح هائلاً، وأصبح من الحكام من لا يخرج عن أمرهم، حتى لقد شكا بعض أحد المنتسبين إلى التصوف كان يعظ الناس فيلحن لحناً فاحشاً.. ويصدر السلطان إليه أمرًا بالامتناع عن الخطابة والوعظ، فيهدده الرجل!. . ويقع السلطان تحت تأثير التهديد حتى إذا خلا بنفسه، خيل إليه أن أسداً ينقض عليه ليفترسه، فيعيد الرجل إلى الوعظ والخطأ. .

ومخالفو مذهب الإمام أحمد، من المتعصبين لغيره من المذاهب، لهم الكلمة العليا.

ودارسو الفلسفة ينشرون آراءهم، ويريدون أن يستدلوا على الدين بأدلة الفلسفة.. وهذا في رأي ابن تيمية ليس من السنة، ولا مما جاء به الصحابة والتابعون.. فما كانوا قد عرفوا منطق أرسطو، وكان كل شيء بخير كما يرى ابن تيمية، قبل أن ينهض أصحاب الفلسفة، فيقيموا أدلتهم الدينية، بأدوات من منطق أرسطو..

والعامة في يأسهم من العدل، يلتمسون العدل والبركة من أضرحة الأولياء... حتى اتخذوا صخرة يتبركون بها، وحتى

لقد كانوا يقدمون المظالم مكتوبة إلى أضرحة الأولياء والصالحين.

وبعض المنتسبين إلى الشيعة، يتعاطون الحشيش ويعتصمون بالجبال.. ومازالو يؤلهون الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وما زال هذا الضلال قائماً في بعض جبال سوريا، على الرغم مما صنعه الإمام علي مع أسلافهم.. إذ استتابهم فلم يتوبوا، فجاهدهم كما يجاهد الكفار، وحين ظفر بهم أعدم منهم من لم يتب إلى الله ويرجع إلى الإسلام.

وهناك خصوم آخرون يراهم خارجين على السنة فهم يؤولون آيات القرآن الكريم، وينكرون أن الله يستوي على العرش، وأنه ينزل من السماء، وأن له يداً وعيناً كما جاء في القرآن.. ويزعمون أن فهم الآيات بظاهرها تشبيه لله تعالى بالانسان وهو منزه عن التشبيه !!

وإذن فالرجل مطالب بأن يستزيد من العلم، وبأن يدرس ويدرس ويتأمل ويتدبر، ويتقن أدوات الجدال، ويستوعب براهين الفلاسفة وأدلتهم، وطرائق أهل الكلام في الفهم والتعبير، ليجادل عما يعتقد أنه وحده من السنة، وأن كل ما عداه من تأويل باطل وخطأ..

يا لها من مهمة !!

ويا له من عصر !!

ولكن تقي الدين بن تيمية يقضي السنوات دائبا يدرس، ويحفظ، ويشحذ القريحة لمصاولة مخالفي ما يعتنق من أفكار، وللقضاء على ما يعتقد أنه بدع وضلالات، ويروض النفس على قمع حدته بالحلم ليكون أكثر إقناعاً..

كان يعرف أنه سيلقى في سبيل أداء مهمته بلاء كثيراً، ولكنه كان يدرك أنه بلاء في الله، فهو جهاد في سبيل الله !

ولم يدر بأي الخصوم يبدأ. . وقد تسلح الآن بكل فقه تركه السلف، لا فقه الإمام أحمد وحده. . وتسلح بدراسة علوم الفلسفة وعلم الكلام، وأدلة القرآن والسنة والصحابة، وأتقن حفظ الحديث حتى لقد قال أحد المتحمسين له: " كل حديث لم يحفظه تقي الدين ابن تيمية ليس بحديث"!

على أنه مع كل همومه، لم يعتزل الناس، فقد كان يجد الوقت ليمشي في الأسواق، يتعرف الحاجات، على الرغم من أنه لم يكن يملك إلا راتبه الذي يتقاضاه من المدرسة، وهو راتب لا يكفل له الرفاهية، ولكنه يكفل العيش الحسن..

قابل مرة طالب علم يمشي شارد الذهن لأنه لم يكن يملك نفقة يومه، فاستوقفه ابن تيمية، وأعطاه مالا دون أن يسأله، وقال للطالب: "أنفق من هذا المال وأخل خاطرك، وانشغل بطلب العلم"

بأي المعارك تبدأ يا تفي الدين، وكل ما تراه يحتاج منك إلى معركة..؟!

بث همومه لأمه الرءوم فنصحته بألا يدخل في معارك، وأن يقول كلمته ويمضي، ويكتفي بالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر.

كيف يا أم والفساد يعم، والسنة تهدر، والمخالفون يستقوون..؟!

على أن تفكيره لم يطل، فقد فرضت المعركة نفسها عليه قبل أن يختار.. !!

الفصل الثانى

طال ليل "ست النعم" غير أنها لم تنم !

لكم تشفق على ولدها "أحمد تقي الدين" مما هو مقبل عليه. .!! إنه لم يكد يحتل مكان أبيه في دار الحديث والجامع الأموي، بعد عام واحد من وفاة أبيه، حتى أنكره بعض العلماء من كبار السن !..

من الحق أن علماء آخرين فرحوا به، وشجعوه، ورأوا فيه فارساً للكلمة، شجاعاً يحمي الدين ويحيى السنة، وأكبروا غزارة علمه، على نضارة سنه..

ولكن هؤلاء الذين لم يقبلوا بينهم بعد هذا العالم الشاب، أيعرفون كم يكابد في تحصيل العلم؟!. . أيعرفون كم من ساعات النهار والليل يقضي بين الكتب، يحفظ ويقرأ ويتأمل، ليستوعب كل فنون المعرفة من علوم الدين والدنيا..؟!

لو أنهم عرفوا لأكبروا، بدلاً من أن ينكروه!!

إنهم ليتهمونه بالخيلاء والغرور، لأنه يلقي الدروس بلا أوراق أو كتب !...

ولكن. . هكذا كان أبوه إمام الفقه الحنبلي، وهكذا كان جده أعلم الفقهاء الحنابلة في عصره.

إن تقـي الـدين يشـعر أن الكتـب تقيـده! وهـو أثنـاء إلقائـه الـدروس فـي دار الحـديث بالمدرسـة السـكرية أو فـي الجـامع، ينتقل من فن إلى فن من فنون المعرفة، حراً طليقاً كالريح !!..

ما حاجته إلى أن يرجع إلى كتاب خلال إلقائه الدروس، وهو يحفظ كل ما يمكن أن يرجع فيه إلى الكتب ؟!

إن له من حضور الذهن، وصفاء النفس، وحرارة الإيمان وحدة الذكاء، وثراء المعرفة، وقوة العارضة.. إن له من كل هذه المواهب ما يجعل كل ما حصله وما يستنبطه مرتباً في عقله على أجمل نسق !..

حماك الله يا ولدي تفي الدين!.. إني لأعيذك بالله من الشيطان الرجيم، ومن شر حاسد إذا حسد !!. ..

ليتك تعدل عن حدتك التي يستنفرها فيك ما تراه من جحود العلماء والشيوخ الذين ينكرونك، ولا يعترفون بك، حسداً من عند أنفسهم !!

إنك يا ولدي لتقرأ "ابن حزم" وسيرته، فيما تقرأ من فقه آخر غير الفقه الحنبلي، فلعلك تدرك ما جرَّت الحدة على "ابن حزم" !..

لعلك تدرك أن "ابن حزم" كان يشكو هذه الحدة، ويحاول أن يتخلص منها، ولكنها لم تكن طبعاً فيه، بل عن مرض يعيبه.!

وأقبل تقي الدين على أمه بعد أن صلى الفجر، وجلس يفطر معها، ثم قام فقبل يدها واتجه إلى الباب ليخرج. .

قالت "ست النعم": إنك لم تطعم بما يقويك على إلقاء دروسك في المدرسة..

قال: أتذكرين قول الشاعر القديم:

"وحسبك من غنى شبع وريّ؟!"

قالت: "هذا طعام الزاهدين. إنك لم تشبع يا بنى". فضحك: "الأمر لك سآكل حتى ترضي؟"

وعاد إلى الطعام يُكره نفسه على تناوله إرضاء لأمه!

شردت أمه قليلاً ثم قالت: "لكم أخشى عليك يا تقي الدين من حسد العلماء الذين يكبرونك سناً!! لا تُثرهم في خلافك معهم واذكر نصيحة أبيك!. ثم يا ولدى.. هذه المعركة التي تريد أن تخوضها.. آه يا بنى كإني أحمل جبالاً من الهموم إشفاقاً عليك !!"

قال تقي الدين: "أترضين لي أن أسكت على باطل!؟"

قالت: "معاذ الله !!.. نحو عشر سنوات قد مرت منذ أخذت مكان أبيك في دار الحديث والجامع الأكبر، وهم لا يهدأون عنك وأنت لا تهدأ عنهم!! سيتكاثر عليك الخصوم وأنت وحيد !"

قال: " من خصومي يا أماه؟!. إنهم المقلدون الجامدون، ومخالفو السنة من العلماء !! ثم أهل البدع والأهواء!! أفأسكت

عنهم ؟. . وأهل الفساد والفساق، والظالمون، والمشعوذون والدجالون!؟ أفترين لي أن أسكت عنهم؟! أفترضين لي الدنية في دينى؟!"

قالت: " وما أشد عذاب أم تعرف أن ابنها على حق وأنه يجب أن يشقى ويعإني لكي ينافح عنه، وهي على الرغم من ذلك تشفق من الهول القادم الناطح بقرنيه!!"

قال: "ذكرت الخصوم وهم كثير، أفتنسين الصحاب من الأتقياء الذين يأخذون الدين بقوة، ولا يخشون في الله لومة لائم؟! اذكريهم أيضاً.. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله !!"

قالت: صدق الله العظيم.

وفرغ من الطعام فقال لها مبتسماً: "أرضيت عن طعامي؟"

قالت: "هكذا يجب أن يكون طعام المجاهدين"

واتجه إلى الباب، فقالت له وكأنها تذكرت شيئاً: "قبل أن تذهب إلى دار الحديث والجامع الأموي فتلقي درسك، ثم تجادل علماء أكبر منك سناً وأقل علماً، أرجو أن تحمد الله أنك لم تعش في بلاد ما وراء النهر عندما افتتحت أول مدرسة !"

فضحك تقي الدين وأكمل: " حين ظن العلماء أن المساجد ستخلو من حلقات العلم بعد افتتاح المدارس، فأقاموا مأتماً للعلم تلقوا فيه العزاء!؟

قالت ضاحكة: "أحمد الله على أنك لم تكن هناك في ذلك الزمان!! فما عساك كنت صانعاً بهذا الصنف من العلماء؟!"

قال وهو يغلق الباب وراءه: "مازال هناك بقية من سلالة أولئك العلماء.. السلام عليك ورحمة الله وبركاته.. أسألك الدعاء يا أماه، فرضاك من رضا الله"

قالت: "ربى وقلبى راضيان عليك.. اذهب برعاية الله. . حماك الله من حسد الحاسدين، وكيد الكائدين، وأتم نعمته عليك وسدد خطاك"

وحين خرج انسكبت دموع إشفاق ظلت تغالبها.. ثم دخلت إلى خزانة الكتب، تلتمس الراحة والقوة في تلاوة القرآن الكريم، فوجدت أوراقاً متناثرة أودعها "تقى الدين" بين الصفحات.. ما هذه الأوراق؟ وافرحتا. . !! إنها محاولات تفسير بعض آيات القرآن الكريم. . التفسير ؟! ليس بعد يا بني؟!. . انتظر حتى تزداد تمرسًا بالحياة وأحوالها، وحتى يجلل الشيب رأسك، وتصبح كهلاً من الصالحين، فلا يثور عليك العلماء الحاسدون من الكهول! حماك الله وقواك يا تقي الدين !..

وعادت تتلو القرآن الكريم، بقلب خاشع، وصوت رخيم. .

***

مضى يتأمل الناس في الطريق، ثم يذاكر نفسه فيما سيلقيه على طلاب مدرسة الحديث، ثم على رواد حلقته بالجامع.

اتسعت حلقته في الجامع على نحو لم يكن يتخيله..

لم تقفر بقيه الحلقات، وإن كانت قد ضاقت على شيوخها !.. وأوغر هذا بعض الصدور!. .

ولكن ما حيلته؟. . ما شاء الله كان. .. وإنّ اتساع حلقته ليلقي عليه مسئولية الإتقان، والتزود بكل ألوان المعارف ليواجه فجاءات الأسئلة والافتراضات!..

وشاعت في وجهه ابتسامة، وهو يتذكر علماء ما رواء النهر، وجزعهم من إنشاء المدارس !..

ها هي ذي المدارس تملأ مدن الشام ومصر، وهي لم تسلب من رواد حلقات المساجد أحداً.. مازالت بيوت الله كما كانت قبل إنشاء المدارس دور عبادة، ودور علم، يتلقى فيها الرواد علوم الدين واللغة، والمدارس زاخرة بالطلبة، يدرسون فيها إلى جانب علوم الدين، علوم الدنيا من طب، ورياضيات، وفلك، وطبيعة، وكيمياء، إلى غير ذلك مما تحتاج إليه الأمة لعمارة الأرض، وتحقيق المصلحة، ودفع المضرة في هذه الحياة.

لقد غنيت الحياة في الشام ومصر منذ حين بعلوم الدين والدنيا.. وأصبحت مصر والشام هي الدولة الوحيدة الكبرى، بعد أن تمزقت الدولة الإسلامية إلى دويلات متناثرة متنافرة.

وقد عني بعض السلاطين بإنشاء المساجد والمدارس والمستشفيات، فقامت شامخة تحقق مصالح الأمة، على الرغم من شيوع دور اللهو والفساد!

وها هي ذي مدن الشام ومصر، قد أصبحت منارات للعلم..

ها هي ذى تزخر بكل ألوان المعارف، وتبذلها لمن ينشدها..

فيها تتحاور الأفكار، وتتنافس القرائح، وتتبارى المذاهب الدينية والعقلية من مشرق الدولة الإسلامية ومغربها.

عمرت مدن الشام ومصر بالعلماء والفقهاء من أهلها، ومن الذين لاذوا بها، منذ زحف التتار على بلاد الإسلام، فاستولوا على بغداد، وما أكثر الذين يعيشون بمصر والشام من علماء الأندلس والمغرب منذ مزقتها الخلافات الداخلية، فإنهارت دولة الإسلام في الأندلس.. وبطش حكام المغرب بمن يخالفهم في المذهب !!

إن في هذا الحشد الحاشد من العلماء النازحين لثراء للحياة الفكرية!

ها هي ذي تموج بالأفكار والآراء.. ويشتد فيها الجدال بين أتباع المذاهب الفقهية. . بين المقلدين، والمجددين.. بين أهل الشريعة من أتباع السلف، وأهل الحقيقة من المتصوفة. . بين أصحاب الفلسفة، وعلماء الدين، وبين أهل علوم الدنيا.. !!

***

في غمرات هذا العجيج الصاخب من الآراء والأفكار، كان تقي الدين بن تيمية يلقي دروسه على طلابه في المدرسة وجه النهار، وعلى أهل حلقته بعد صلاة الظهر أو العصر، متبعاً مذهب الإمام أحمد بن حنبل مجتهداً فيه، عادلاً عنه أحياناً إلى غيره من مذاهب الأئمة الآخرين، إن لم يقده اجتهاده على مذهب إمامه إلى حكم يطمئن إليه في قضية مستحدثه.

وفي الحق أنه بهر طلاب المدرسة وأهل الحلقة بحسن إلقائه، وحضور حجته، وقوة استدلاله، وبلاغته..

كان صدقه فيما يقول قوي التأثير على المستمعين.. فالكلام يخرج من قلبه ويفيض من عقله، ليصل إلى قلوبهم فتطمئن به، وإلى عقولهم فتسكن إليه.

لم يكن تلاميذه في المدرسة، أو شهود حلقته بالجامع من أتباع الفقه الحنبلى فحسب.. بل كان فيهم أتباع للأئمة الآخرين.

ولقد يناظره أحد المستمعين – وكان هو يحركهم لمناظرته- فيرد عليه بلسان فصيح، وبيان ناصع، وفي رقة بالغة ألفها مع طلاب العلم والمعرفة، وما يزال بمناظره حتى يتألف قلبه، ويقنعه بحجته!

إنه يتذكر نصائح أبيه ويستحضر إشفاق أمه فيقمع حدته في الجدال!

حقا إن في الجدال بالتي هى أحسن طاعة لله ورسوله.. فقد أمر الله بالدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة.. هكذا كان يفعل الرسول ﷺ مع المشركين، فكيف بالمناظرة مع المسلمين !؟.

لقد اهتدى تقي الدين إلى أن الرقة والحكمة والحسنى في المناظرة والجدال، إنما هي سنة واجبة الاتباع. وهو يستشعر منذ حين أنه مسئول عن إحياء السنة في عصر تغشاه البدع والضلالات والأباطيل.

وهكذا أحبه تلاميذه فلازموه، وأحبه شهود حلقته من طلاب العلم فأكبروه.

كان يدعوهم جميعاً إلى مقاومة ما يشوه حقيقة الدين وإلى الدفاع عن الشريعة، وإلى العمل على تطهير المجتمع من الرذائل، وإلىالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا واجب كل مسلم، وإلى العودة بشباب هذه الأمة إلى ما كان عليه الشباب فى عصور الإسلام الزاهرة الأولى، من فتوة، وقوة،

ونجدة.. فالشباب هم حماة الدين والأمة بجهادهم في سبيل الله، إذا عدا على البلاد العادون. هم بناة المجتمع الصالح الذى تستهدفه الشريعة..

من أجل ذلك حض الشباب على ممارسة الرياضة، وأمرهم بتقوية أجسادهم، ونهاهم عن المبالغة في التزين، أو التشبه بالنساء، وأثار فيهم الحماسة، وقادهم في طرقات دمشق، فإن صادف في بعض الطريق فتى يرسل شعره كالنساء، نصحه بأن يحلقه وبأن يخشوشن، فإن أبى الفتى أمر به فجروه إلى أقرب حلاق ليحلق شعره قهراً !

وهكذا طهر طرقات دمشق من هذا النوع من الشباب.

ثم إنه أمعن النظر فيما يهدد البلاد، وفي أحوال أهلها، فوجد الفساد شائعاً، والظلم يحيق بالمستضعفين فيها، فاستنفر طائفة من الشباب، وسار على رأسهم ينهي أصحاب الحانات ودور اللهو عن المنكر، فإن تابوا دعا لهم بالخير، وإن أصروا على ما هم فيه، أمر أتباعه فأراقوا الخمور. .!

وأقره أولوالأمر على ما فعل.. ذلك أنهم كانوا يعرفون ما أصبح عليه من سلطان على الناس..

ثم إنهم ليوقرونه، ويحضرون حلقته، ويعجبهم فيه الغيرة على السنة، والحرص على إحيائها.. وهم كلهم من أهل السنة.. وهو لا يطلب منهم منصباً بعد، ويرفض عطاياهم،

مكتفياً براتبه من دار الحديث وهو لا يؤذيهم ولا يؤلب عليهم الناس !..

كانوا من المماليك، ولكنه كان لا يعيرهم بهذا، أو يفتي بخلعهم.. والعهد غير بعيد بموقف "العز بن عبد السلام"، حين أفتى بأنه لا ولاية لهم على المسلمين وهم مماليك عبيد فلابد من عتقهم ليحق لهم أن يحكموا..!

ما كان ابن تيمية على هذا الرأي، بل كان يدعو الناس إلى طاعة أولىالأمر ما استقاموا، فإذا عصوا الله فلا طاعة في معصية.

إنه ليرى في هؤلاء المماليك محاربين أشداء، يحمون الثغور، ويدافعون عن الدين والأمة من غزوات التتار والصليبين....

من أجل ذلك احترمه الولاة والأمراء وهابوه، وأقروا كل ما يعمله، وأعلنوا أنه ينفذ إرادتهم في الإغلاق الحانات، ودور اللهو، وبيوت الفساد، وتطهير الشباب من مظاهر التخنث والتشبه بالنساء!!

***

أثارت مكانته عند الولاة حقد بعض العلماء.. وكان منهم من يمد يده لعطايا الولاة، ومنهم من يطلب المناصب، ومنهم من يكتب للسلطان مستعطفاً معلناً أنه يقبل الأرض بين يديه ليجرى عليه رزقاً أوسع !!

والشيخ تقي الدين يضيق بكل هذا، ويحذر صحبه وأتباعه من مثل هؤلاء العلماء، ومنهم من لم يتورع عن الوساطة عند الولاة لذوي الحاجات، مقابل مال يحصل عليه حتى لقد أصبح بعضهم واسع الغنى، وكلما اتسع غناه ضاق أفقه، واشتد حقده على زهد ابن تيمية الذي ينفق معظم راتبه على فقراء الطلاب.

ومن الولاة من يبطش، ويأكل مال الغير، ولا يعين أحداً في منصب إلا إن رشاه.. ومن العلماء من أباح الرشوة لقضاء الحاجة.

فما كان للشيخ أن يسكت على هذا كله!

وقف بالجامع يفتي الناس في هذا جميعاً.. قال:" يجب أن يولي في كل مرتبة أصلح من يقدر عليها، وأن يرزق أحق المسلمين، وأنفعهم للمسلمين". . وأخذ يفيض في شرح فتواه متبعاً فيها رأي الإمام أحمد بن حنبل، واجماع الفقهاء.. فإذا قبل الوالي مالاً أو هدية مقابل تعيين أحد في منصب فهي الرشوة، والطرفان آثمان... أما الوسطاء الذين يتشفعون عند الولاة لصاحب الحق، فالإجماع منعقد على أنه لا يحق لهم أن يأخذوا مالا مقابل شفاعتهم، واستشهد بالحديث الشريف: "من شفع لأخيه شفاعة، فأهدى له هدية فقبلها، فقد أتي بابًا عظيماً من أبواب الربا".. فإذا كانت هذه الشفاعة لغير صاحب حق، فهي إثم مضاعف، والدليل قول ابن مسعود عن معنى السحت

الذي ورد في القرآن: "السحت هو أن تشفع لأخيك شفاعة فيهدي لك هدية فتقبلها". فسألوه: "أرأيت إن كانت هدية في باطل؟" فقال ابن مسعود: "ذلك كفر". [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون].

وأضاف الشيخ تقي الدين إن من أفتى بجواز الرشوة عن الشفاعة عند الولاة للحصول على حق وجعلها من باب الجعالة (أي الأجر)، فهو يخالف السنة وأقوال الصحابة والأئمة جميعاً. "لأن هذا العمل – أي الشفاعة لصاحب الحق – من المصالح العامة التي يكون القيام بها فرضاً.. " "ومتى شرع أخذ الجعل عن مثل هذا لزم أن تكون الولاية وإعطاء أموال الفيء وغيرها لمن يبذل في ذلك، ولزم أن يكون كف الظلم عمن يبذل، والذي لا يبذل لا يولى ولا يعطى، ولا يكف عنه الظلم، وإن كان أحق الناس، وأنفع للمسلمين. ."

أما من يعطي ويهب، فهو إما أنه ليس بصاحب حق، فما يعطيه أو يهبه رشوة يأثم بها الجانبان.

فقد جاء في الحديث الشريف: "لعن الله الراشي والمرتشي" ويلحق بهذه الحال من دفع مالا طلبا للولاية (أي المنصب) فيقول: "طلب الولاية منهي عنه فكيف بالعوض؟!"

وأما أن يكون من يعطي أو يهب صاحب حق يستطيع أن يصل إليه بالإقناع، ولكنه وجد في الهبة طريقا أسرع، فهو

يقترف الرشوة وهي حرام. وعليه أن يناضل في سبيل حقه، فنضاله هذا جهاد يثاب عليه.

وأما أن يكون من يعطي أو يهب صاحب حق، ولكنه لا يستطيع الحصول عليه إلا بالرشوة لوسيط أو لمن بيده الأمر، فهو في حكم المضطر لا جناح، ولكن الطرف الآخر آثم لقبوله الرشوة.. وقد جاء في الحديث الشريف: " يا رسول الله: لم تعطيهم؟" قال: "يأبون إلا أن يسألوني، ويأبى الله لي البخل"

فإذا كان صاحب الرسالة يعطي خجلا وحرجاً من الإلحاح، فيكف بغيره من المسلمين؟!

ثار عليه بعض العلماء الذين يخالفونه ثورة عارمة، وأخذوا يتربصون به. فقد سد أمامهم أبوباً واسعة للغنى، إذ كانوا يربحون أرباحاً طائلة من عطايا أصحاب المظالم والحاجات وهباتهم، مقابل الشفاعة عند الولاة..

أما أصحاب المظالم والحاجات فقد التفوا حوله يكرمونه ويستفتونه..

ولقد زاد ضيق مخالفيه به أنه كان يتطوع لرفع الظلم وقضاء الحاجات مهما يخض في سبيل ذلك من غمرات !

***

خرج من الجامع ذات مساء عائداً إلى منزله، وحوله ومن خلفه عدد من الطلاب ومريدى الحلقة، يستفسرون منه

عما ألقاه، ويواصلون استيضاحه واستفتاءه، كما ألفوا منذ نحو ستة عشر عاماً، وهو يوضح ويفتي في أناة، ويكرر ما شرح.

وتقدم خطوات وإذ برجل يقتحم عليه في هلع وهو يصيح: "انا في جاه النبي أغثنا يا رسول الله !! أدركونا يا أهل البيت ! يا أولياء الله الصالحين ! أغثنى يا شيخ تقي الدين. . بركاتك يا شيخ !"

فقال الشيخ: "استغث الله يا رجل فقد أمرنا إلا نستغيث سواه"

ونظر الذين حوله إليه، ونظر بعضهم إلى بعض يتساءلون.. وسألوا تقي الدين: "كيف لا يستغاث برسول الله ﷺ ؟!"

ولكن الرجل المروع اندفع يقول:" يا مولانا الشيخ تقي الدين.. ! قطلو بك الكبير ظلمني، وانتزع حقي، ولم أجد أحداً من العلماء يستشفع لي عنده، فكلهم يخافه.. ولما ذهبت إليه أستعطفه أمر بجلدي. .. أنظر أثر السياط!"

وكشف الرجل عن كتفيه وظهره، ورأى الشيخ ما شوته السياط!! نظر الحاضرون إلى الرجل في إشفاق يخالجه الغضب، وصاح أحدهم:" لماذا تزج بشيخنا في أمر من أمور هذا الجبار المتغطرس"

وصاح آخر: "يا شيخنا.. لا شأن لك بهذا المغتصب الشرس، فهو لا يرعى الله وقاراً، ونحن نضن بك على الإهانة أو الأذى"

فقال لهم الشيخ تقي الدين: "تعلموا يرحمكم الله أن من يخاف الله لا يبالي بالجبارين العتاة. إني ذاهب إليه الآن فمسترد منه حق هذا المستضعف المظلوم بإذن الله"

ووجل محبوه، وصمموا على ألا يذهب، فإذا أبى، فليمهلهم ليتسلحوا ويذهبوا معه !

ولكنه دعاهم إلى الانصراف..

ذهب وحده إلى قصر ذلك الأمير، ومعه صاحب المظلمة.

استقبله قطلو بك مرحبا، فقد كان يعرف مكانته عند نائب السلطان، وسائر الأمراء،.. وعند سواد الناس.

وتحدث الشيخ في أمر صاحب المظلمة، فاكفهر وجه الأمير، وهم بأن يغلظ له، ولكنه كظم غيظه.

قال له مستهزئاً: " ولماذا أتعبت يا شيخ نفسك. أنا كنت أجيء، إليك تائباً مستغفراً! لأنك عالم زاهد. .. !"

فقال الشيخ تقي الدين مقالة الإمام الحسين لعمر بن سعد قائد الحملة عليه في كربلاء: "لا عليك.. موسى عليه السلام كان خيراً مني، وفرعون كان شراً منك، وكان موسى يجئ

فرعون كل يوم ثلاث مرات، فيقول له قولاً لينا لعله يذكر أو يخشى!"

فبهت الأمير.

وما زال الشيخ به حتى رد المظلوم حقه، وعوضه عن الجلد بالسياط، وأرضاه.

وكان أنصار الشيخ يقفون غير بعيد من القصر، دون أن يشعر بهم شيخهم.

خرج الشيخ وأمامه صاحب الشكوى، يجرى ويدعو الله أن ينصر الشيخ.. وأن يعز به الإسلام والمسلمين والمستضعفين والمظلومين.. وروى لأصحاب الشيخ كل ما جرى.. ثم مضى في فرحه العارم يروى القصة لكل من يعرفه ومن لا يعرفه.

حتى إذا أقبل الصباح كانت دمشق كلها تتحدث بما كان بين الشيخ والأمير.

وزاد الزحام على حلقته، كل يريد أن ينعم بطلعة الشيخ الجسور.

***

شعر الشيخ أن رواد الحلقة في إكبارهم إياه وإعجابهم به يغمزون العلماء الآخرين من مخالفيه، ويحاولون أن يزروا عليهم.. فغضب قائلاً: "لن تخلو الأرض من علماء يأخذون

على يد الظالم. لا تهينوا علماءكم مهما يخطئوا.. فقد ذلت أمة تزري بعلمائها.

واذكروا مواقف الشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله وإن كنا لم نعاصره، واذكروا موقف الفقيه الشافعي الشيخ النووي من الظاهر بيبرس، وقد أدركه بعضكم، وتلقيت أنا منه بعض فقه الإمام الشافعي، ومات وأنا في السادسة عشرة.. واذكروا غيره من العلماء.. إني إذا اختلفت مع بعض العلماء، ونبت مني كلمة أو عبارة، كاتهام أحدهم بالجهل أو سوء الفهم أو الغلظ، فهو خلاف في العلم، وإن كنت لأندم على الكلمة الجارحة، وأود لو أمحوها.. لا تأخذوا بآرائهم أو فتاواهم إذا لم تقبلها عقولكم، ولكن لا تجعلوهم هدفاً للمطاعن، حتى إذا لم ترضوا عن سيرتهم، فأنتم لستم قضاتهم"..

استولى الخجل على من حاولوا الإزراء بالعلماء من مخالفي الشيخ، ممن لا يناضلون عن نصرة المظلوم، وحماية الضعيف.

وهم الشيخ بالانصراف، فاستوقفته أصوات: "ولكنك لم تحدثنا عن الشيخ النووي.. ماذا كان من أمر الشيخ النووي.. من عاصره منا ما يزال يكبره"

***

مضى الشيخ تقي الدين يروي لهم ما كان بين الشيخ النووي، والظاهر بيبرس، وكان حاكماً قوياً وفارساً شجاعاً

دافع عن الأمة والسنة، وأبطل المنكرات، وأغلق الخمارات ودور الفساد، وسجن الخاطئات حتى أعلنّ التوبة فزوجهن...

ولكن كان على الرغم من ذلك ينزع إلى امتلاك ما ليس له ولا يطيق من يخالفه !!

وحين غزا التتار بلادنا، ووصلوا إلى دمشق، أراد أن يجبي أموالاً من أهل الشام، لتعينه في الحرب.

واستفتى العلماء فأجابه بعضهم، ورفض الباقون، فقتل عدداً من الرافضين، فعدل من بقي منهم، وأفتوه بجواز أخذ المال من الرعية.

وسأل السلطان بيبرس: "هل بقي أحد لا يجيز" قالوا: "نعم بقي الشيخ محي الدين النووي"

فطلبه ليفتي بجواز أخذ المال من الرعية، فامتنع الشيخ النووي، وأفتى بأنه لا يجوز.

فانفجر غضب السلطان وسأله عن سبب امتناعه عن الفتوى.

وأيقن الحاضرون أن الشيخ هالك إن لم يجب السلطان إلى طلبه.

وقال الشيخ النووي:" أنا أعرف أنك كنت في الرق مملوكاً للأمير البندقدار، وليس لك مال، ثم من الله عليك، وجعلك ملكاً. وسمعت أن عندك ألف مملوك يتحلون بالذهب ولك مائتا جارية لكل منهن جواهر غالية، فإذا أنفقت ذلك كله،

وبقي مماليكك بملابسهم دون الذهب، وبقيت جواريك بثيابهن دون الحلي، ولم يبق في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض، أفتيتك بأخذ المال من الرعية. فإنما يستعان على الجهاد بالافتقار إلى الله، واتباع آثار نبيه ﷺ".

فقال له السلطان: "اخرج من بلدي"

فخرج الشيخ من دمشق إلى قريته نوى من أعمال حران. وسئل السلطان عن امتناعه عن قتل الشيخ فقال: "كلما هممت بقتله وهو يتكلم شعرت بالذعر، وكإني أرى على عاتقه سبعين يريدان افتراسي"

ولم يستطع السلطان أن يجبي المال من الرعية، بل باع ما عند مماليكه من ذهب، وما عند جواريه من جواهر وحلي، فحصل مالاً كفاه نفقة الحرب.

على أن الشيخ لم يسكت عن السلطان قط.

فبعد أن هزم التتار، وأجلاهم عن أرض الشام، أراد أن يستولي على أرض الغوطة في ظاهر دمشق، وهي أرض كان التتار في غزوهم قد أخذوها غصباً، ورموا بأهلها للعراء والجوع.

ووجد السلطان بيبرس من يفتيه بأن هذه الأرض تحل له، إلا أن يقدم أحدهم سنداً بملكية الأرض..

فكتب الشيخ إلى السلطان يعظه بأن يعيد الأرض لأهلها، فهي لا تحل للسلطان عند أحد من علماء المسلمين.

وأرسل من قريته نوى كتاباً للعالم الذي أحلها السلطان يطالبه بأن يتقي الله، وأن يرجع إلى أحكام الدين، وإجماع الأئمة.

فغضب السلطان وأمر بأن يخلع الشيخ من منصبه، ولكنه وجده بلا منصب !!.

واستدعاه السلطان، وسأله لم لم يبد هذه الشجاعة عندما اغتصب التتار تلك البساتين؟. .. فقال الشيخ: كان التتار غزاه غاصبين، وكان المسلمون يجاهدونهم، أما السلطان فهو وليالأمر الشرعي الذي يجب عليه أن يقيم العدل، وينصف الرعية..

ثم نصح الشيخ السلطان أن يتذكر نعمة الله عليه إذا كان مملوكاً فآتاه الملك، ومن شكر النعمة ألا يغصب حق أحدا!.

فغضب السلطان وطرده من مجلسه.

ومضى الشيخ. . وقد أقسم ألا تجمعه أرض بهذا السلطان الذي يسلب المستضعفين، ولا يصغي إلى نصيحة، والدين النصيحة.

غير أن السلطان مات بعد شهر واحد من رحيل الشيخ!

ويقال إنه مات غيظاً، حسرة وكمداً، لأنه اضطر إلى إعادة الأرض إلى أهلها خشية أن يثور عليه الناس، ولأنه عجز عن الشيخ!!

أكبر الطلاب ورواد الحلقة في الشيخ تقي الدين أنه يكفهم عن النيل من خصومه من العلماء، ويطالبهم بتوقيرهم ويضرب الأمثال بشجاعة علماء سلفوهم على غير مذهب إمامه أحمد بن حنبل، بل على مذهب الإمام الشافعى.

وما كان أحد في الزمن المضطرب يمتدح عالماً يخالفه في المذهب.. وبمثل هذه السيرة بين طلابه ورواد حلقته، كان يزداد نفوذا، ويعمق تأثيره في الناس يوماً بعد يوم.

***

استمر الشيخ تقي الدين في التدريس بدار الحديث، وفي حلقته بالجامع الأموي، مناضلا بالكلمة وغزارة العلم، لكي يعيد إلى الإسلام نضارته الأولى، قبل أن تتسلل إليه الإسرائيليات وفلسفة اليونان، وأفكار الهند والفرس.

لم يكن الشيخ قد جاوز الثامنة والثلاثين، وقد اعترف له عدد صالح من علماء عصره حتى مخالفيه، بالزيادة والصلاح والتفوق.

قال عنه ابن دقيق العيد، وهو أعلم أهل العصر بالحديث ومن مخالفي ابن تيمية في المذهب والرأي: "جمع العلوم كلها يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد"

وقال عنه الذهبي:" أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، وهو مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين، تعتريه حدة في البحث، وغضب

وصدمة لخصومة تزرع له عداوة في النفوس، ولولا ذلك لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه، يعترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكنز ليس له نظير، ولكنهم ينقمون عليه أقوالاً وأفعالاً، وكل يؤخذ من قوله ويترك".

أما غلاة خصومة من الشانئين والحاسدين، ومن استنفرتهم طهارته، وكبرياؤه، وانتشار أمره، وتعظيم الناس والولاة له.. فقد نسبوه إلى الكفر!!.

***

على أنه مضى في طريقه لا يبالي، يحارب البدع، ويحي السنة، على طريق الإمام أحمد، مجتهداً في المذهب ما استطاع.

وكان في كل نهار وليل يتوقع معركة حاسمة مع خصومه وحاسديه.. وقد أعد لها كل أسلحتها من دراية كاملة بالقرآن وعلومه، وبالسنة وعلومها، وأقوال الصحابة، وبالمعرفة العميقة بأدوات المناطقة والفلاسفة وعلماء الكلام في الجدال. وقد درب النفس على دحض مقاطع الحجة منهم.

وجاء اليوم الذي فيه فرضت المعركة نفسها عليه.. إذ جاءه من "حماة" إحدى منائر العلم في الشام، نفر يحملون إليه كتاباً يسأله فيه أهل المدينة الرأي في الآيات التي وصف الله تعالى بها نفسه في القرآن الكريم مثل الآيات الكريمة: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾. و﴿جاء ربك والملك صفاً

صفاً﴾ و﴿ يد الله فوق أيديهم﴾.. إلى غير ذلك من آيات الصفات..

وكانت الآراء المختلفة تتلاطم في مضطرب الحياة الفكرية منذ حين. . وكان التعصب يطمس البصائر، ويعطل العقول، حتى لقد كان أتباع المذاهب الفقهية المختلفة لا يصلي الواحد منهم خلف إمام على غير مذهبه.

والآراء حول ما وصف الله به نفسه تتصارع، والسائد هو رأي الأشاعرة الذي أرساه حجة الإسلام الإمام الغزالي منذ حين. .

وهو يذهب إلى أن هذه الصفات لا يمكن أن تفهم حرفياً، بل يجب فهمها بأدوات البيان العربى، ومنها إيجاز الحذف، أو ينبغي تأويلها تنزيهاً للذات العلية، وتأويل النص هو العدول عن ظاهر المعنى إلى معنى خفي لأسباب توجب هذا العدول..

فالآية "استوى على العرش" لا بمعنى قعد من القعود الحسي، بل الاستيلاء على العرش.. وتفسير ﴿جاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ فيها إيجاز حذف، ومعناها جاء أمر ربك. و﴿ يد الله فوق أيديهم﴾ معناها قدرته فوق قدرتهم.

فمن أساليب العرب "وضع الأمير يده على المدينة" وإن كان مقطوع اليدين !! أي بسط سلطانه وقدرته على المدينة.

أما الرأي الآخر فيذهب إلى أن هذه الآيات يجب أن تفهم حرفياً، بظاهر النص.. فالاستواء على العرش جلوس كجلوس

الملوك على عروشهم، وقوله تعالى ﴿جاء ربك. ..﴾ معناها أن الله يجيء بذاته العلية.

و﴿ يد الله. .﴾ هى يد حقا.

وكذلك ساق الله في قوله تعالى : ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾

قال أحد مفسريهم: "إنها ساق حقيقة" ثم ضرب على ساقه وقال "كساقى هذه"

ورمى أصحاب هذا الرأي بأنهم يشبهون الله تعالى بالانسان، ويجسمونه، وهو منزه عن التشبيه والتجسيم.. وأطلقوا عليهم المشبه والمجسمة.

وكان هناك رأي ثالث يذهب إلى عدم البحث عن هذه الآيات: فلا أحد غير الله تعالى يدرك معناها.. فهي من المتشابهات، وقد نهي الرسول ﷺ عن السؤال عنها، وكان عمر يضرب من يسأل عنها..

ورأي رابع يرى أن الرسول ﷺ بين وفسر كل آيات القرآن وعلمها صحابته.. ولكنه نهى عن السؤال في المتشابهات ابتغاء الفتنة، أما إن كان يطلب المعرفة فيجاب، ولهذا ضرب عمر السائل لا على السؤال بل على نيته من السؤال، لأنه رضي الله عنه أدرك أن السائل يريد إثارة الفتنة.

فالامتناع عن النظر في هذه الآيات بزعم أن الله وحده هو الذي يعلمها، اتهام للرسول ﷺ بأنه لم يبين القرآن، وبأنه لم يبلغ رسالته !!

ثم كان الرأي الذي يقول إنه يجب الإيمان بهذه الآيات، وتصديق ما جاء فيها من غير نظر إلى الكيفية. . كيفية الاستواء، وكيفية اليد، وكيفية السمع والبصر..

كانت هذه الآراء جميعاً تصطرع، ويتبادل أصحابها اتهامات تصل إلى حد الاتهام بالكفر أو على الأقل بالزيغ والضلال!!

***

حين وصل السؤال إلى ابن تيمية، اتخذ مكانه في الجامع، وأملى رسالته إلى أهل حماة..

بدأها بعد صلاة الظهر، وختمها قبيل صلاة العصر، وأسماها "الرسالة الحموية"

شرح فيها فهمه من آيات الصفات وأسماء الله الحسنى، وسار في هذا الفهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. . فأنكر تأويل هذه الآيات، أو تفسيرها على أن المعنى مجازي كما قال الأشاعرة والإمام الغزالي.

وأنكر فهمها بحرفية النص، وتشبيه الله تعالى بالإنسان بل "علينا أن نصدق كل ما وصف الله تعالى به نفسه بلا

تأويل أو تجسيد أو تشبيه.. فهذا كله تحريف للكلم عن مواضعه"

ومذهب السلف في رأيه أنهم: "لا يمثلون صفات الله صفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، فيعطلوا أسماء الله الحسنى وصفاته العليا"

ويفيض في شرحه أن آيات الصفات يجب أن تفهم ألفاظها وعباراتها على ظاهرها، لا مؤولة كما يقول الغزالي وسائر الأشاعرة، ولا هى على الظاهر الحسي كما يقول المجسمة والمشبهة.

بل هي على ظاهرها بمعنى يليق بذاته الكريمة.. أي من غير كيف. فقد قال الإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"

وقال الإمام أحمد بن حنبل: " استوى على العرش كيف شاء، وكما شاء ولا حد ولا صفة يبلغها واصف" وهذا تفويض وتنزيه، وليس فيه تخريج للفظ على الظاهر، ولا غير الظاهر.

***

عندما أذاع ابن تيمية رأيه هذا قامت عليه القيامة. . اتهمه المجسمة والمشبه بالكفر.

واتهمه الأشاعرة بالزيغ، وبأنه يرى رأي المجسمة والمشبهة..!!

وانتهز حساده الفرصة، فانطلقوا في شوارع دمشق، ومعهم حشد من أتباعهم، يشهرون بابن تيمية، ويأمرون الناس ألا يأخذوا بما أملاه الشيخ في "الرسالة الحموية"

أما هذا النفر من أهل "حماة"، فقد أخذوا معهم الرسالة مصدقين بما فيها، وأخفوها في طيات ثيابهم هاربين إلى حماة.

وقام جماعة من الفقهاء من مخالفي الشيخ وحساده، فطلبوا محاكمته أمام القاضي الحنفي، فلم يستجيب ابن تيمية لهم. . لأنه كان لا يثق في ذلك القاضي.. فأجلبوا عليه في المساجد والطرقات، يسفهون رأيه، ويكيلون له السباب.

وما عاد شيء يشغل دمشق إلا هذه الخصومة !

والتتار يزحفون من بعيد. . !!

غير أن أحد الأمراء من المعجبين بابن تيمية لم يعجبه هذا الهجوم الضاري على الشيخ، ومحاولة إثارة العامة عليه، فامتطى جواده، وقاد مماليكه، وانطلق في طرقات دمشق، يضرب الذين يشهرون بالشيخ. . فاختفى منهم كثيرون. .

ورضي الشيخ أن يناظره في رأيه جماعة من الفقهاء الفضلاء، من ذوي المعتقد الحسن، والمقصد الصالح، مهما يكن خلافهم معه. .

وجمع له القاضي القزويني الشافعي جماعة من أكثر الفقهاء ورعاً وعلماً وتقوى من المذاهب المختلفة.

فسألوه في مواضع من الرسالة الحموية، مما يشنع بها عليه.

فشرح لهم الشيخ رأيه في جو يجلله وقار للعلم، وحب الحقيقة.

قال لهم: " إن من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل (أى تعطيل لصفات الله)، ولا تكييف ولا تمثيل. بل نؤمن بالله سبحانه وتعالى ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾، لا ننفي عنه ما وصف به نفسه، ولا نلحد في أسماء الله الحسنى، ولا نكيف أو نمثل صفاته بصفات خلقه "

وانتهت المحاكمة التي كانت في الحق مناظرة بين عقول مستنيرة باحثة عن الحقيقة. . وأجمع الكل على براءة ساحة الشيخ مما شنع به عليه. .

وقال القاضي القزويني الذي كان يرأس جلسة المحاكمة : " من قال عن الشيخ تقي الدين شيئاً عزرناه"

وخرج الشيخ يحف به أنصاره، ومضى إلى بيته، ليجد رسالة أخرى من أهل "واسط" تسأله رأيه في آيات الصفات. . فشرع يرد على الرسالة، برأيه الذي قاله في الحموية وبسطه

أمام محاكميه، وأسمى رده "الرسالة الواسطية" وظهرت بعد الرسالة الحموية بشهور. .

ومع ذلك لم يهدأ عنه خصومه أو حساده، فقد ظلوا يحاولون الكيد له، ويشغلون الناس بتوجيه المطاعن إليه، والشغب عليه. .

وحدثت ملاحاة بين الخصوم والأنصار. .. والتتار يزحفون ويزحفون، وكانوا هذه المرة غير بعيد. . !

ودمشق ما برحت مشغولة بما بين الشيخ وأنصاره من الحنابلة، وبين خصومه وحساده. ..

وبغتة، ارتفعت الأصوات في فزع "التتار على أبواب دمشق.. عاد التتار ". ..

الفصل الثالث

عاد التتار. .. !

عاد التتار بكل ألوان الفجور !!

والمسلمون ممزقون: أمراؤهم يتناحرون، فصار بأسهم شديداً بينهم. . حتى إذا جاء العدو بخيله وبرجله، لم ينهضوا لجهاده. . واثاقلوا للأرض من حب الحياة. . أو صانعوه في الخفاء وجاهدوه بالحناجر !!

يا للرعاة الخادعين السارقي قوت الرعية ! والرعية تستباح وتنتهك !!

يا للرعاة المتخمين من المتاع ! والرعية في الضياع !

فيم الخصومة بينكم، ولم الصراع، وكلكم مستهدف، لا فرق بين قريبكم وبعيدكم ؟!

بل لا نجاة لكم بغير الاتحاد. . أين اتحاد المسلمين !؟

أتزيفون على الرعية يا رعاة المسلمين ؟!

انظر تقي الدين أحوال الرعية.. ها هم أولاء: سوادها يتلمسون العون في الأحياء من قاداتهم، حتى إذا ما استيأسوا التمسوا المعونة من قبور الصالحين !..

يا أيها الأمراء هبوا للجهاد !!.. أتزيفون على الرعية يا رعاة المسلمين ؟!

النار تزحف نحوكم، وتكاد تأكل دوركم. ..

النار حين تشب تلتهم الجميع على السواء..
هي لن تفرق بين أكواخ الضياع ولا قصور الأغنياء !
يا للرجال !.. دعوا الخصومة بينكم..
ليس الرعية من تهدد وحدها بل أمنكم، وحياتكم، وصغاركم، ونساؤكم !!
يا للرجال ! تحركوا لتدافعوا عن عرضكم، وحياتكم !
زحف التتار بكل ألوان الفجور. . !!
عادوا بغاشية الدمار. ..
يا ويلتا أين الرجال ؟! أين الرجال الصامدون أولو العزيمة والبصائر!!
أين الرجال ذوو الضمائر ؟!
ما عدت ألقى غير فرسان الحناجر. . !! يا روح "بدر" أين أنت؟!. . يا روح "حطين" املئي القلب المروع بالجسارة !!
أم لم يعد يمشي على أرض البطولة غير فرسان الدعارة. .؟!
قم يا تقي الدين فلتحشد صحابك والشباب الصالحين.. أحفاد أبطال المعارك في الفتوحات العظام... أبطال حرب "القادسية"...
أحفاد من كانت سيوفهم على "اليرموك" تشرق بالعدالة.. أحفاد من صنعوا الحضارة في ربوع الأندلس..

يا يوم "عين جالوت" من لي بالصناديد الأشاوس !!؟
ما زال في هذا الزمان بقية من ذلك النفر العظام..
قم يا تقي الدين.. قم فاستل سيفك !
قم جاهد الأعداء جاهدهم فإنك لست وحدك !
قم يا تقي الدين جاهدهم، فما جدوى الكتابة والقراءة والكلام ؟ والوحش ينشب ظفره في كل قلب ؟
فإذا بأحواض الشريعة تستباح..
وإذا الحقيقة قد غدت مثل السبية تغتصب !!
يا للرجال !!.. يا للرجال ذوي الضمائر والبصائر والعزيمة والمضاء!!
عاد التتار. . عادوا بغاشية الدمار !

***

عاد التتار إلى الشام سنة ٦٩٩ هجرية، والشيخ تقي الدين في نحو التاسعة والثلاثين، ودمشق مشغولة بالحوار حول صفات الله تعالى والأسماء الحسنى !

والحوار يتحول إلى مشاحنات، ويمتد إلى القاهرة وسائر المدائن !

وما كان هذا الاعتقاد أو ذاك، ليزيد أو ينقص من إيمان المسلم الحق، الذى يقوم إسلامه على الأركان الخمسة، والذي يطيع الله ورسوله، ويمتثل لأمر الله بالمعروف، وأمره بالعدل

والاحسان وإيتاء ذي القربى، ونهيه عن الفحشاء والمنكر والبغي. .

كان ذلك اسم التتار كافياً لإثارة الفزع في القلوب، إلا لمن كانت لهم قلوب يفقهون بها !

ذلك أن الأمة الإسلامية، كانت ما تزال تذكر فظائع التتار، وغزواتهم المتلاحقة للبلاد العربية.

انقضوا من أقصى الشرق، فاجتاحوا أمامهم كل الممالك، وأحرقوا، وسلبوا، ونهبوا، واستباحوا كل شيء. .

وهكذا مضوا يدمرون، وينتهكون، في أعداد كثيفة، ويسوقون أهل البلاد المفتوحة، في مقدمة جيوشهم، حتى ليخيل لمن يراهم عن بعد، أن عدة جيوشهم لا تحصى، ولا قبل لأحد بها !!

وصفهم معاصروهم بأنهم كارثة من كوارث الطبيعة كالزلزال، تهز الأرض هزاً عنيفاً !

وشاعت أخبار فظائعهم، حتى بلغت أقصى شمال أوروبا، فامتنع الصيادون في السويد، عن الخروج للصيد بالقرب من شواطئ انجلترا، كما ألفوا من قبل. ..

استولوا على بغداد، وأسقطوا الخلافة، وارتكبوا فيها من الفظائع، ما لم يعرفه التاريخ من قبل. . !

حدث هذا قبل أن يولد تقي الدين بن تيمية بسنوات قلائل. .

بلغ تأثير هذه الفظائع التي عصرت القلوب، أن جف المداد من أقلام الكتاب، لتسيل الدموع !

خرست الألسنة، وجمدت في الأفواه، لتنطلق الزفرات !!

وفي هذا يقول المؤرخ الكاتب الثقة ابن الأثير : "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليها رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ؟! ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي. إن هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها. عمت الخلائق، وخصت المسلمين. قال قائل: ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى إلى الآن لم يبتل بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم. ..

وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة. .

فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهار مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها تخريباً وقتلا

ونهباً ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق في أقل من سنة. .. هذا ما لم نسمع بمثله

ومضت طائفة أخرى غير هذه إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد. هذا ما لم يطرق الأسماع مثله.

فإن الاسكندر، الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا، لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً، إنما رضي من الناس بالطاعة. وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبت أحد من البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم.. أما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئاً، فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب. . ولا يعرفون نكاحاً (زواجاً) بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه "

هكذا كان التتار. .

ملكوا أرض المسلمين حتى العراق، ثم استولوا على حلب ودمشق وسائر ديار الشام حتى غزة، وهم حيثما ساروا، يفسدون وينهبون ويقتلون بلا رحمة. .

وأرسل ملكهم هولاكو إلى سلطان مصر والشام سفراء يحملون أمراً بالتسليم، والمجئ إليه صاغراً: "فأي أرض

تأويكم، وأي طريق ينجيكم، وأي بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ". .

فأرس إليه السلطان "قطز" رداً منكراً يليق بالرسالة.

وجمع مجلساً من علماء مصر وفقائها وأمرائها، وقادتها وأهل المشورة والرأي فيها، وأجمعوا على أن يجاهدوا التتار.

وخرج إليهم على رأس جيش، كان أبرزه قواده الظاهر بيبرس، من رجال يؤثرون الآخرة على الدنيا، ومعهم علماء وفقهاء يمتطون الصهوات، ويعمرون القلب بالأمل في نصر الله.

صاح فيهم السلطان "واسلاماه" !

وشدوا جميعاً على التتار، فأذهلوهم، وانخلع قلب التتار، فما لقوا من قبل جيشاً كهذا. وتطايرت رؤوس قادة التتار، وسقط العديدون منهم تحت سنابك الفرسان المصريين، وسقط قائد جيش التتار، فلاذوا بالفرار، ولاحقهم المصريون حتى أجلوهم عن الشام. عن العاصمة دمشق، وعن كل أرض الشام.

حدث هذا عام ٦٥٨ قبل أن يولد تقي الدين بعامين.

وفي الحق أن بغداد ما كانت لتسقط تحت غزوات التتار، لولا التواطؤ!

فقد استولى على عقل الخليفة رجل واسع الحيلة، شديد الدهاء، بارع النفاق، ينكر اليوم ما قاله بالأمس، ويقول غداً

غير ما أقسم عليه اليوم، منافقاً في ذلك الخليفة، منحنياً أمام اتجاه الريح !!

وما زال بالخليفة الطيب، يداهنه في ذكاء، وينافقه في حذق، حتى عينه الخليفة وزيره الأول، وألقى إليه بمقاليد الأمور جميعاً !

شعر الوزير الأول أنه أحق بالخلافة من سيده، وأراد في الوقت نفسه أن يضرب خصومه من أعداء مذهبه الديني. . والكل مسلمون !

كاتب التتار سراً، واستقدمهم، وفتح لهم الأبواب التى اؤتمن عليها. وظل ينافق الخليفة ويخدعه، والتتار يزحفون، فزين له أن يصالحهم على نصف خراج العراق، ونصح لقائدهم هولاكو أن يرفض !

وفوجئ أهل العراق بالتتار يستولون على بغداد عاصمة الخلافة، ويقتلون الخليفة، وينهبون ويسفكون، حتى لقد أصبحت ليالي بغداد حمراء بلهب الحرائق، وأصبح ماء دجلة قانياً بلون الدم، وتعطل مجراه لكثرة ما ألقي فيه من جثث الضحايا، ومن الآلاف المؤلفة من أوراق مكتبات بغداد !!..

ثم ولوا الوزير الأول مكان الخليفة، تحت سلطان احتلالهم..

وما استطاع التتار أن يفتحوا أي بلد عربى أو اسلامي، إلا من خلال المنافقين، الذين يستولون على عقول ساداتهم،

ويكاتبون التتار سراً، ويفتحون لهم الأبواب المغلقة خيانة وغدراً.

هكذا كان المنافقون.. وكذلك يفعلون !..

ولقد شهد تقي الدين في صباه زحف التتار على حران، وعاين فزع الناس، وهم يفرون. .

***

كان سلطان مصر والشام هو الناصر محمد بن قلاوون، وحين علم بزحف التتار على الشام تحدث مع أهل مشورته من الأمراء فرأى بعضهم أن يسالموا التتار ويعاهدوهم فهم الآن مسلمون. . !!

واستشار السلطان أصحاب الفتيا من العلماء والقضاء والفقهاء، فأفتوه أن التتار مسلمون حقاً، إلا أنهم أصبحوا بزحفهم على بلاد غيرهم من المسلمين، غزاة بغاة، يجب قتالهم شرعاً.

وخرج عسكر السلطان يقوده أمراء تمزقهم الخلافات والأطماع.. وهج الشمس على خوذاتهم، وعلى الدروع والملابس الموشاة بالذهب، ولا شيء في الصدور غير هواجس الدسائس، وأحلام السلطة. . و القلوب خواء !

وانكسر جيش السلطان أمام التتار. . وفر الأمراء بأحلامهم، يقودون جنداً لم يحاربوا إلا معركة واحدة أبلوا فيها

أحسن البلاء، ولكن أمراءهم لم يثبتوا، وفروا حرصاً على حياتهم، وقادوهم على أبوابها.

سيطر الذعر على الناس، وفر كل من في دمشق من أولي الأمر، حتى العلماء والفقهاء !! ولم يعد على السجون حراس، فخرج اللصوص الكبار والفتاك ينهبون ويعتدون !

لم يبق في دمشق إلا نفر قليل من كبار رجالهم، وعلى رأسهم تقي الدين بن تيمية.

وخلال هذا المضطرب، طاف تقي الدين بالطرقات والجوامع يحض الناس على الجهاد. .

وأمر أتباعه من الشباب الذين عودهم على تقوية أبدانهم بالرياضة، أن ينهضوا للقبض على اللصوص والفتاك الذي هربوا من السجون، فيجب أن يأمن كل من بقي في دمشق على ماله وعرضه !

وعلى الذين لا يريدون جهاد التتار لأنهم مسلمون، أن يدركوا أن التتار خوارج وقد أوجب الله قتالهم. . وقد قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمثالهم. وقال كرم الله وجهه : "سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام : يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة". وفي رواية لمسلم عن علي

رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول : يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز قراءتهم السهم من الرمية "

قال ﷺ عن أمثالهم : "يقتلون أهل الإيمان، ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركهم لأقتلنهم قتل عاد "

فالنبي ﷺ حرض على قتال الذين استحلوا دماء سواهم من المسلمين. . فهؤلاء هم الذين قتلهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

***

وطاف الشيخ بتجار السلاح، يفتيهم أن مقاومة التتار جهاد في سبيل الله. . فليجاهد هؤلاء التجار في سبيل الله بأموالهم، ولهم أجر الجهاد بالنفس. . فيبذلوا السلاح لمن يريد بلا مقابل، أو بثمن بخس. .. !

وفي ساعات قلائل، استطاع تقي الدين أن يستنفر سواد الناس، فأغلقوا أبواب دمشق، ووقفوا دونها مسلحين ما استطاعوا، وعلى رأسهم أتباع تقي الدين من الشباب المدربين. .

وأمسك هؤلاء الشباب باللصوص والفتاك الذين فروا من السجون، وأعادهم إليها، وعينوا عليهم حراساً من أشد شباب دمشق صلاحاً وصلابة وقوة. .

واطمأن كل من في دمشق على عرضه وماله !

أصبح تقي الدين بن تيمية هو حاكم دمشق الفرد المطاع، فأمر بإغلاق الحانات، ودور الفساد وإراقة الخمور.

ومضى الشيخ يفتش عن أحد من الفقهاء، وأهل الشورى والأعيان، والأمراء وولاةالأمر فلم يجد أحداً منهم يشاوره !

فروا جميعاً خارج دمشق، وتركوا الرعية وحدها تواجه التتار. . !

أين هؤلاء العلماء والفقهاء الذين كانوا يجلبون عليه، ويتهمونه بالزيغ والضلال والكفر، لأنه أفتى في الرسالة الحموية بوجوب الإيمان بصفات الله تعالى، وأسمائه الحسنى، كما جاءت في القرآن والحديث بكيفية لا يعلمها إلا الله ورسوله ؟! أين مخالفوه ؟!

وحتى الذين انتصروا له من العلماء والفقهاء. . أين هم ؟!

لا أحد على الإطلاق : لا الخصوم ولا الأنصار. . !!

كلهم فر ناجياً بنفسه وماله. . حتى الفضلاء. . !!

وأخيرا وجد نفراً قليلاً من الأعيان، فاجتمع بهم، يتدبرون الأمر.

وعلم منهم أن بعض ولاةالأمر والفقهاء، قد أسرعوا إلى معسكر التتار، يرحبون بسلطانهم قازان، ويعلنون له الولاء، فهو سلطان مسلم، ما غزا الشام، وطرق عاصمته، إلا لإصلاح ما فسد من أمور المسلمين. . ! يا للمنافقين. . ! يعرفون من أين تؤكل الكتف. . وكذلك يفعلون. . !

وعلم أن هؤلاء المنافقين، يطالبون قائد القلعة التي تحمي دمشق بأن يسلم القلعة للتتار حقناً لدماء المسلمين : أهل الشام والتتار على السواء !

كان على رأس هؤلاء "سيف الدين المنصوري" وهو رجل من أهل السطوة والنفوذ في دمشق، وأحد الذين ألبوا الناس على "ابن تيمية"، احتجاجاً على "الرسالة الحموية"

وسأل الشيخ عن "سيف الدين" فعلم أنه على رأس الذين أسرعوا إلى السلطان "قازان" ليرحبوا به، ويعلنوا له الولاء، ويفاوضوه على تسليم القلعة والمدينة بلا قتال !!

فأرسل ابن تيمية إلى قائد القلعة رسالة عاجلة : "لو لم يبق في القلعة إلا حجر واحد فلا تسلم ذلك الحجر إن استطعت"

واستقوى قائد القلعة بنصيحة الشيخ ورفض التسليم، على الرغم من إلحاح أكثر الأعيان والفقهاء عليه أن يلقي السلاح ويذعن ويستسلم. . والصلح خير !!

***

نظر ابن تيمية ومن اجتمع بهم فيالأمر كله فوجدوا أن التتار يستطيعون أن يحاصروا دمشق، حتى يهلك أهلها جوعاً..

ويستطيعون بأدواتهم الحربية الحديثة أن يحرقوها ويدمروها، وما في المدينة غير السيوف والحراب وقضبان الحديد، وقطع الحجارة !!

ولكنه رأى أن من بقوا فى المدينة يجب ألا يستسلموا، وأن يقاتلوا حتى بالأظفار !! فإن اقتحم التتار دمشق، لاقوا فيها الجحيم في كل ذراع من الأرض، وفي كل دفقة من الهواء. . ومن قبل اقتحم الصليبيون مدينة "المنصورة" في شمال مصر، فقاومهم أهل المنصورة بالحراب والسيوف والقضبان الحديد، والحجارة، وبالزيت المغلي تصبه النساء من فوق أسطح المنازل. . وأمسك الناس بخناق قائد الحملة لويس التاسع في أحد طرقات المنصورة فأسروه، وفر جنده، ولكن الجيش المصري قطع عليهم طريق الفرار. . وسجن الملك لويس التاسع، ولم يفكر الصليبيون بعد ذلك في مغامرة كتلك. . !!

ستقاوم دمشق، وتظل تقاوم، إلى أن تهب جيوش العرب والمسلمين لنجدتها، وسينصر الله من ينصره.

ولكن أين هم العرب والمسلمون ؟! لن يهب منهم أحد ! أهم ينصرون الله حقاً، لينصرهم الله. . ؟!

إن بأسهم بينهم لشديد، فقد مزقتهم الخلافات الداخلية، فشغلوا بها، ولن يشهر أحدهم سيفاً لنصرة إخوانهم المكروبين، وإن رفعوا الأصوات بالنكير. . ! كلمات لن تنقذ أرضاً، أو حياة إنسان واحد، ولكنها تستنفر التتار للغلو في البطش. . !

سيدك التتار دمشق على من فيها، وسيسفكون ويسفكون إلى آخر قطرة في دماء أصغر طفل من أبناء دمشق، وما من مسلم في المشرق أو المغرب يشهر سيفه للنجدة. . ! يا للرجال !!

وإذن فلابد من حل آخر !

لقد أعلن التتار إسلامهم، وسلطانهم قازان يزعم أنه حسن الإسلام !

وإذن فلتذهب إليه يا تقي الدين، فتقنعه بأن حكم الشرع ينهاه عن غزو بلاد المسلمين، وعن أن يفسد فيها، ويسفك فيها الدماء. . !

لقد صالح الرسول ﷺ كفار قريش في الحديبية، حين وجد أن الصدام يعني الكارثة. . فالمسلمون جاءوا حجاجا ورعين بلا سلاح، وقريش في العدة والعديد. .. !!

وهكذا نجا المسلمون بحكمة الرسول ﷺ، وأثابهم الله فتحاً قريباً. .

ليس الشجاع من يصرع غيره، ولكنه من يملك نفسه عنه الغضب. . هكذا علمنا عليه الصلاة والسلام.

اللهم أذهب غيظ قلوبنا، وأشف صدور قوم مؤمنين !

ما أعظم أجر من يسعى في عمارة الأرض، ورفع البلاء عنها !!

وإذن فلتذهب يا تقي الدين، إلى سلطان التتار، تطلب منه صلحاً مشرفاً: أن يكف يده عن دمشق، وأن يسحب جيوشه ويعود إلى بلاده، وإلا يعدو ولا يبغي من بعد على إخوانه المسلمين. . فهذا هو قضاء الإسلام الحق !..

فإن قبل قازان، فقد امتثل لحكم الشريعة، وإن أبى واستكبر، فهي القارعة. . !

فلتكن القارعة، فلا مناص، وسنقاوم حتى آخر نفس من حياة. . !!

وتحدث الشيخ تقي الدين بن تيمية إلى بقية الملأ من قومه فيما يفكر فيه، ففزعوا من لقاء سلطان التتار، وخشوا أن تسقط رؤوسهم قبل أن يرفع تقي الدين صوته بكلمة واحدة !

إنه ليشق على النفس الأبية، أن تسعى إلى الصلح مع هؤلاء الوحوش البغاة، ولكن إن كان هذا السعي سيرفع البلاء الواقع، وينتج عنه انسحابهم، فهو جهاد في سبيل الله.

أتخافون القتل إن ذهبتم إلى قازان. . فماذا إن بقيتم ؟!

ستهتك حرماتكم، وأنتم تنظرون، ويفسق ببناتكم وولدانكم

وأنتم صاغرون. . ثم تقتلون !!. . فلنركب إلى "قازان" عسى الله أن يكف عنا بأس التتار، وللراكب في أمر كهذا أجر مجاهد ! فإن أبوا إلا الحرب، فستدافع دمشق عن نفسها حتى الموت !

وركبوا حتى إذا بلغوا معسكر التتار، تقدمهم تقي الدين بن تيمية.

ونظر في وجوه أصحابه، فوجدها ممتقعة، وخيل إليه أنهم يرتعدون ! ودعا الله أن يثبت قلوبهم، فلا يخافوا ولا يحزنوا.

وقال وهو يدخل خيمة السلطان : "تقدموا ورائي، ولا يلحظ قازان عليكم شيئاً فيغريه بكم وجلكم منه ! نحن على الحق والله معنا، والله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين "

وتقدم فسلم على السلطان قازان، فوجد عدداً من علماء دمشق وأمرائهم، وعلى رأسهم سيف الدين المنصوري. . أشد أهل دمشق فظاظة وقسوة !

كانوا يداهنون سلطان التتار !!

أين شوكتكم وتشامخكم وحميتكم بالأمس ؟ كنتم تغرون بي العامة، زاعمين أنكم تغضبون لله ؟! ألا غضب لله بعد ؟!..

وتكلم الشيخ تقي الدين، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى وسلم على رسوله الذي جاء بالعدل، والهدى، والإخاء بين الناس.

كانت المهابة تعلو الشيخ، وتشع منه هيبة تفرض على الرائي إكباره، وفي صوته وفي ملامحه كلها ثقة راسخة. . تلك الثقة التي يمنحها الإيمان، والتي تجعل المؤمن الحق لا يخاف غير الحق !..

تلا الشيخ الآية الكريمة : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ ومضى الشيخ يشرح معنى الآية، وحكم الله في الفئة المسلمة التي تبغي على فئة مسلمة أخرى. . لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا التي تبغي، حتى تفيء إلى أمر الله. .

وهؤلاء التتار فئة مسلمة، ولكنها حين تغزو أرض المسلمين الآخرين طمعاً في جاه الدنيا، فقد بغت وأصبحت من الخوارج، فيجب على المسلمين قتالهم. . هكذا قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. . فإن جنحوا للسلم فاجنح لها.

ورأى الشيخ عدداً من الباطنية المنتسبين للشيعة، فروى عدداً من الأحاديث التى رواها الإمام علي كرم الله وجهه في إيجاب قتال الخوارج، وهي تلك الأحاديث التي شرحها الشيخ لأهل دمشق قبل أن يخرج للقاء قازان. . لعل المنتسبين إلى الشيعة يخجلون. . !

أخذ السلطان قازان بهيبة الشيخ. . وكلما ترجم له المترجم عبارة، كبرت في قلبه مهابه الشيخ، فلان قلب قازان على الرغم من سطوته وجبروته !!

وصف أحد الحاضرين ما دار: "جلس الشيخ إلى السلطان قازان حيث تجم الأسود في آجامها، وتسقط القلوب داخل أجسامها، خوفاً من ذلك السبع المختال، والنمرود المحتال، والأجل الذي لا يدفع بحيلة محتال. . جلس إليه، وأومأ بيده إلى صدره، وواجهه ودرأ في نحره "

وعجب السلطان قازان لهذا الشيخ الأعزل !

لكأنه هو المنتصر والسلطان أسير ذليل !!

إنه مع ذلك في قبضتك يا قازان، وتستطيع أن تأمر بقتله، وأمراء جيوشك من حولك ينظرون في تربص يخالجه الذهول !!

ما الذي يكف يديك عنه ؟!

إنك لتملك كل ما ينبغي أن يثير فيه الرعب، وهو لا يملك شيئاً على الإطلاق !

أى سر في هذا الشيخ يجعلك تحتمله، وتنتحى فى جلستك، كلما دفع بيده في صدرك، أو لوّح بذراعيه في وجهك ؟!

ما بال هذا الشيخ يصنع بك، ما يصنع المدرب الحاذق بالسبع الكاسر، يروضه حتى يخضعه، ويصبح كالقط الاليف !!..

إنك لمسلم مثله يا قازان، وأنت بعد سلطان قاهر، يخلع اسمك قلوب الآخرين !!

وارتفع صوت الشيخ : "الله القاهر فوق عباده.. صدق الله العظيم "

ونظر إليه السلطان متهيباً. .

أى إيمان بالله يجعل هذا الشيخ يشعر في أغوار نفسه، أنه أقوى من كل هذه الآلاف المؤلفة المدججة بالسلاح ؟! إنك أنت نفسك لتتزايل أمامه إلى الأعماق يا سلطان التتار !

واستمر الشيخ يقول للمترجم : "قل للسلطان إنك تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذن على ما بلغنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجرت "....

ها هو ذات يتهمك بخيانة العهد وبالغدر والجور، أمام رجالك وأتباعك واللائذين بك من علماء دمشق وأمرائها ووجهائها. ؟!!

من لك ببطش جنيكزخان، وهولاكو ؟!

وتحدث حساد ابن تيمية وخصومه، فاتهموه بالغرور والصلف، وحاولوا في نفاقهم للسلطان، أن يغروه به، ليقتله

تنفيذاً لحكم الله فيمن يخرج على السلطان، ويبغي الفتنة في الأرض، ويفرق كلمة الأمة التي اجتمعت اليوم على الولاء للسلطان العظيم قازان. .. !!

ولكن السلطان أقبل على الشيخ، مصغياً له، شاخصاً إليه، وقد أوقع الله في قلبه محبه للشيخ ومهابة. . وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء !!

قال السلطان : "لم أر مثل الشيخ تقي الدين بن تيمية، ولا أثبت قلباً منه"

وأراد السلطان أن يتقرب إلى الشيخ، ويكرمه، فأمر بالطعام.

صفت الموائد بأشهى المأكولات، وأقبل السلطان على الشيخ ليأكلا معاً على مائدة واحدة.. ومعهم النفر الذين جاءوا مع الشيخ، أما علماء دمشق وأمراؤها وأعيانها الذين لاذوا بالسلطان، وجاءوه من قبل، فقد تفرقوا على موائد أخرى، بعيداً عن السلطان. .

وبدأ الجميع يأكلون إلا ابن تيمية. .

سأل السلطان عن سبب امتناعه، فقال الشيخ "كيف آكل من طعامك، وكله مما نهبتم من أغنام الناس. . وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟!"

فكف السلطان عن الطعام. . ونظر إلى الشيخ. .

وساد صمت متوتر. . !

ويصف أحد مصاحبيه بما حدث في تلك اللحظة المرهفة :

"كنا معه على مائدة السلطان، فأخذنا نجمع ثيابنا، خوفاً من أين يقتل فنطرطش بدمه "

وبغته. . خرج السلطان عن صمته، فطلب من الشيخ الدعاء. .!

دعا الشيخ : "اللهم ان كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فأن تنصره، وأن كان للملك والدنيا والتكاثر، فأن تفعل به وتصنع".

وأمن السلطان على الدعاء. . !

ومازال الشيخ بالسلطان، حتى وعد السلطان، بأنه سيسير في الناس سيرة مسلم حسن الإسلام، وسيسحب جيوشه الجرارة ويقفل راجعاً إلى بلاده.

وخرج تقي الدين معززاً مكرماً. أما الذين صحبوه، فقد خافوا أن يرسل السلطان وراءهم من ينقضون عليهم غيلة، ويقتلونهم جميعاً. .. وكان السلطان معروفاً بالبطش والدهاء كغيره من ملوك التتار..

قال أحد الذين صحبوه : "لما خرجنا قلنا له : كدت تهلكنا معك. ونحن ما نصحبك من هنا. فقال الشيخ : وأنا لا أصحبكم. فانطلقنا عصبة، وتأخر فأتاه أمراه التتار من كل فج، وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته. فما وصل دمشق إلا

في نحو ثلثمائة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة (من قطاع الطريق) فشلحونا ".

***

عاد ابن تيمية إلى دمشق، فأمن الناس، وحمل إليهم وعد قازان أنه لن يدخل دمشق، بل سيرحل عن الشام كله.

وما أن انصرف ابن تيمية من عند قازان. حتى اجتمع بقواده وتشاوروا في الأمر، ثم أرسل منشوراً إلى أهل دمشق يؤمنهم فيه على حياتهم وأموالهم وأعراضهم، ولكنه طلب منهم أن يسلموه ما لديهم من سلاح وخيل وأموال !

وحرضهم ابن تيمية على ألا يسلموا شيئاً، فقد وعده السلطان أنه لن يدخل دمشق، ولم يشترط عليه شيئاً. .

وانتظر ابن تيمية يوما فيومين. ..

ومرت ثمانية أيام، ولم يف قازان بوعده، بل انطلق بعض جنوده مع بعض أفراد من الباطنية والحشاشين الذين حالفوا التتار، فهاجموا أطرف دمشق، وأحرقوا وأتلفوا، وسبوا النساء، وقتلوا الرجال. . كل ذلك تحت راية الإسلام !!. .

وخرج ابن تيمية مرة أخرى إلى قازان، يشكو إليه عدوان جنده على دمشق، بعد أن وعد بأنه لا يدخلها !

وما زال ابن تيمية يجادل السلطان قازان، حتى وعده بأن سينسحب الآن بجيشه. . فطالب بفك الأسرى، ففك قازان الأسرى من المسلمين.

ولكن ابن تيمية أقعنه أن يطلق الأسرى من المسيحيين واليهود، فكلهم من أهل الشام، وهم أهل ذمة، في ذمة الله ورسوله.

وأطلق قازان الأسرى جميعاً، وأذن بالرحيل، وترك دمشق، والشام جميعاً. .

عاد الشيخ إلى دمشق، ومر في طريقه بالقلعة فهنأ قائدها بانسحاب التتار، وحياه على ثباته وشجاعته، ودخل دمشق بالبشرى : "انسحب التتار"

ضجت دمشق بالفرح، وخرج النساء بأطفالهن مهللات، وأقيمت الزينات. وعاشت دمشق أياماً وليالي تحتفل بانتصارها دون أن تريق من دماء بينها نقطة واحدة !

واتجهت القلوب بالإكبار للشيخ. . حتى لقد أصبح ملك دمشق غير المتوج.

فطالب الناس أن ينصرفوا إلى أعمالهم، وانصرف هو يدرس ويعظ، ويقرأ، ويكتب.

وعكف يجمع الآيات والأحاديث التي نصت على الجهاد، ويحاول أن يستنبط منها حكماً عاماً، ويدرس في ذلك كل ما خلفه السلف، وبصفة خاصة الإمام أحمد بن حنبل. .

أما العلماء والفقهاء وأولوالأمر الذين كانوا قد هربوا، فقد عادوا منكسرين !

وهدأ الحساد والخصوم، فما كان أحد يستطيع أن يفوه بكلمة أو نسبة على الشيخ الذي أصبح ملء السمع والبصر والقلب، من الناس جميعاً..

ورأى جماعة من الذين لاذوا بالسلطان قازان، أنهم لا يستطيعون الحياة في دمشق بعد، فآثروا أن يصحبوه ويلزموه، وذهبوا معه، وكان على رأسهم سيف الدين المنصوري.

* * *

وفي القاهرة عاصمة الدولة، كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون منذ عاد بالجيش المنكسر، يعد العدة لكرة أخرى على التتار. .

كان دائم البكاء، منذ انسحب بالجيش، ودخل دمشق في فلول منهزمة عائداً إلى القاهرة !

مازالت تعذبه صور نساء دمشق، وقد خرجن حواسر يعتصرهن الذعر، وفي الأحضان أطفال يصرخون !

مازال يذكر ازراء الناس به وبجيشه على طريق الفرار والانكسار من دمشق إلى القاهرة !

مرائي الهزيمة تمر أمام عينيه، من خلال الدموع، في كل نهار وليل.

وإنه ليذكر تحت وطأة الإحساس بالعار والمهانة، أن بعض الفرسان الأشاوس خلعوا ملابسهم العسكرية، وتنكروا، ليتفادوا زراية الناس وسخطهم. . !

ولهو يبكي ويتبهل إلى الله ألا يجعل ولايته نحساً على الأمة، إذ بالحمام الزاجل يحمل إليه رسالة عاجلة من دمشق،أن الشيخ تقي الدين بن تيمية، أحد كبار الفقهاء في دمشق قد أقنع التتار بالانسحاب فانسحبوا. .

من الشيخ تقي الدين بن تيمية هذا ؟! لقد صنع وحده معجزة لم يقدر عليها عسكر مصر والشام جميعاً بقيادة السلطان الناصر نفسه !!

وأمر السلطان بالدعاء لابن تيمية، وأقسم أن يكافئه أجزل مكافأة، ولكن أحد الفقهاء قال له إنه لا يقبل المناصب ولا الهبات أو العطايا. . فأعلن السلطان أنه سيجعل لابن تيمية الكلمة القاطعة فيما يشير به، وسيكون له الرأي الحاسم فيمن يتولون المناصب الكبيرة.

وبعد أيام أرسل السلطان قازان إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون وفداً من ثلاثة رجال كبار: عراقي هو قاضي الموصل، والثاني إيراني، والثالث تركي، وهما أميران.

وأمر السلطان الناصر فزيت القصر بالشموع وأقيم احتفال رائع لاستقبالهم، شهده فقهاء مصر وقضاتها وأمراؤها وأعيانها في أفخر ثيابهم. . وسطعت أضواء الشموع على ملابس الأمراء المزركشة المحلاة بالذهب..

رحب السلطان بالوفد ترحيباً حاراً، وخطب الموصلي، فذكر أن الله تعالى أمرنا بالمسالمة، وجعل المسلمين إخواناً، ثم دعا السلطان الناصر وأمراء مصر، وسلم رسالة مختومة، فأخذها السلطان وفضها، فإذا السلطان قازان ينهي إليه فيها أنه ما زحف إلى بلاد الشام غازياً أو باغياً، ولكن رداً على عدوان عسكر الشام التابعين للسلطان الناصر، فقد كانوا غزوا أطراف بلاده ونهبوها وأكثروا فيها الفساد، فخرج ذائداً عن حوض الشريعة، وزحف حتى بلغ دمشق، وكان في وسعه أن يفتحها، ولكنه عاد إلى وطنه حقناً للدماء، وحرصاً على البلاد ألا تخرب !

وهو الآن يطلب الصلح من سلطان مصر والشام، فإذا أبى إلا الحرب فهي الحرب، ولكن الصلح خير. ..

وخرج السلطان الناصر إلى قاعة أخرى، ومعه عدد من علية الأمراء وأهل العلم يتشاورون. .

وبعد قليل دعا إليه القاضي العراقي رئيس وفد قازان وقال له : "أنت من أكابر العلماء، والدين النصيحة، ونحن ما نقاتل إلا لقيام الدين، فإن كانت الدعوة إلى الصلح من قبيل الحيلة والدهاء، فنحن نحلف أن ما ستقوله لنا سيبقى سراً بيننا، لا يعلم به أحد سوانا" فأقسم القاضي العراقي أن السلطان قازان، راغب في الصلح حقاً وصدقاً. .

وكتب السلطان الناصر رداً إلى قازان، نفى فيه أن عسكره بالشام قد اعتدوا من قبل على أطراف دولة قازان. .

ورحب بالصلح "واستقرار قواعده على ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ". ودعا إلى التحالف لقمع أهل الشرك في سائر الممالك.

وأقام السلطان الناصر لضيوفه احتفالات كثيرة، وخرج بهم مع حاشيته والأمراء للصيد في الخلاء، فأقاموا أياماً وليالي، بهرهم فيها بذخ السلطان، وما عليه مصر من ثراء. . كانت الخيام أروع من القصور، والليل في الصحراء يضيء بالمشاعل، حتى لكأنه النهار !..

واهتم الوفد بالتعرف على جيش مصر، وأبدى إعجابه بنظام الجيش. .

وعندما انتهت الزيارة حملهم السلطان بالهدايا الفخمة للسلطان قازان، وأنعم عليهم بالأموال والعطايا والألطاف، وزودهم السلطان بكل ما يحتاج إليه الطريق. ثم ختم رسالته بخاتم الدولة وسلمها إلى رئيس الوفد : القاضي العراقي.

***

عاد أعضاء الوفد إلى سلطانهم قازان يصفون له ما شاهدوا في مصر من غنى، وما عينوه من دقة في نظام الجيش، وما أتيح لهم أن يتعرفوا عليه من أسرار أخرى. . !

كانوا كلهم جواسيس. . !

وفي الحق أن قازان، كان يطمع في الاستيلاء على مصر وما يليها ليحكم الدنيا من القاهرة، فأرسل هذا الوفد ليعمل على كسب ثقة السلطان، ويتعرف على كل ما تحتاجه خطة الغزو، وأرسل مع هؤلاء الثلاثة حرساً ضخماً وفير العدد، كلهم جواسيس، وزودهم بالمال ليصطنعوا الأعوان. . فانطلقوا يدرسون كل شيء، وكل مكان. .

***

لم يكد يمضي عام على انسحاب قازان بعسكره، حتى شاع أنه يستعد لغزو مصر والاستيلاء على مقر السلطنة في القاهرة، ويزحف إلى الغرب فيستولى على المغرب وأسبانيا وأوربا. . ! وأنه في طريق غزوه سيجتاح الشام ! ويضع يده على دمشق. . !

ما كان انسحابه عن الشام، أو دعاؤه بالصلح إلا خدعة، إلى أن يتعرف على مصر ودروبها، ويحشد لها ما يقهرها من العدة والعديد. . فيستولى على القاهرة عاصمة دولة مصر والشام. . ومنها يحكم العالم كله !

من جديد يسود الذعر أهل دمشق والشام. . فإذا بالناس يرحلون، وإذا أهل دمشق يتزاحمون على الجامع الكبير، حيث ألف ابن تيمية أن يلقي دروسه، وفتاواه. .

ولم يلق ابن تيمية دروساً بعد، بل حض الناس على الجهاد. .

خرج إلى الطريق يخطب الناس. . وانتقل من مسجد إلى مسجد. . يحرض الناس على القتال. . ويقنعهم أن السلطان قازان لا عهد له، وهو غادر فاتك، يقود فئة خارجة عن الإسلام، ومن والاهم فهو منهم، ومن خافهم، فقد عصا الله ورسوله.

قال: لقد أذن الله للمؤمنين بالقتال بقوله تعالى :

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور﴾.

ثم إن الله تعالى بعد ذلك أوجب القتال : ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. وأكد الله تعالى إيجاب القتال، وعظم أمر الجهاد، في عامة السور المدنية، وذم التاركين له، ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله

ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. وقال تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم، وأنفسهم في سبيل الله، وأولئك هم الصادقون﴾ وهذا كثير في القرآن.
ثم تعظيمه الجهاد وتعظيم أهله في سورة الصف التي يقول فيها : ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنت تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم﴾. .

وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾. وقال تعالى: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكافر، ولا ينالون من عدو نيلاً، إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

هذا هو بعض ما كان يقوله الشيخ للناس في الجوامع والطرقات.

وهكذا عاش الشيخ أيامه ولياليه في شهر صفر سنة ٧٠٠ هـ، يستنفر الناس حيثما اجتمعوا، لقتال التتار، ليظفروا بالسلم والأمن، فالحرب أنفى للحرب.

وما انفك يتحدث عن الجهاد قائلاً : "الأمر بالجهاد، وذكر فضائله في الكتاب والسنة، أكثر من أن يحصر، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان، وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة، ومن الصلاة التطوع، والصوم التطوع، كما دل عليه الكتاب والسنة، حتى قال رسول الله ﷺ: (رأسالأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد). وقال: (إن في الجنة لمائة درجة، ما بين الدرجة كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله). وقال: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار). رواه البخاري. ..

وفي السنن : (رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل). وقال: (عينان لا تمسهما النار : عين بكيت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله). . وفي مسند الإمام أحمد : "حرس ليلة في سبيل الله، أفضل من ألف ليلة يقام ليلها، ويصام نهارها ". . وهذا باب واسع، لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، وهو ظاهر. . فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا. . ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل على محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتوكل عليه وتسليم النفس

والمال له، والصبر والزهد، والقائم به بين إحدى الحسنيين دائما، إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة. . "

هكذا كانت دروس الشيخ في تلك الأيام.

ثم يعود إلى أمه منهكاً، فتطعمه فرحة به، داعية له بالخير والسداد.

والمرجفون في المدينة يشيعون أن التتار قد استولوا على "حلب" في شمال الشام.

ويفزع بعض الناس، ويلوذون بالفرار من دمشق. . أما الذين ثبت الله قلوبهم، وأثر فيهم كلام الشيخ، فقد حملوا السلاح، وكان على رأس هؤلاء تلاميذ الشيخ وأتباعه، ولحقوا بعسكر الشام الذي رابط خارج دمشق، في انتظار قدوم السلطان الناصر على رأس جيش مصر. ..

وذهب الشيخ إلى نائب السلطان الذى كان يقود عسكر الشام، وخطب في الجند، شاحذا هممهم، وتلا قوله تعالى : ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به، ثم بغى عليه لينصرنه الله، إن الله لعفو غفور ﴾

وبات ليلته في المعسكر.

وقبل أن يعود إلى داره بدمشق، طلب من نائب السلطان أن يأمر بألا يبرح أحد دمشق، فصدر أمره بهذا.

وعاد ابن تيمية إلى أمه التي باتت ليلتها قلقة عليه، على الرغم من أنه استأذنها في أن يبيت ليلته في المعسكر، فأذنت له.

وخرج إلى درسه.

ولكن الذعر يغشى المدينة، فقد أشاع المرجفون في المدينة، أن سلطان مصر والشام، بعد أن تحرك في طريقه إلى الشام لملاقاة التتار، عاد بعسكره إلى القاهرة ! فلن يأتي بجيشه ليصد التتار، خوفاً على عرشه ! وخشية أن ينكسر الجيش أمام قازان كما حدث منذ عام !!

***

وفي الحق أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، لم يكن قد خرج بعسكر مصر ثم عاد، كما أشاع المرجفون في دمشق، ولكنه كان ما يزال يعد العدة للخروج. . لم تزايله قط مرارة الهزيمة الأولى التي ألحقها به التتار، فقرر أن يحشد لهم أسلحة جديدة وجيشاً ضخماً يرهبهم، ويهزمهم هزيمة ساحقة تقضي عليهم، فتأمنهم مصر والشام إلى آخر الزمان. .

وكان يريد أن يؤمن ظهره، فلا ينقض أحد منتهزاً فرصة غيابه في المعركة، فيثل عرشه منه.

إنه لن ينسى ذلك الأمير الذي طرده واستولى على عرشه. . كان الناصر ما يزال صغيراً.

قبض عليه ذلك الأمير وقبض على أمه، وسجنهما في القلعة، وأعلن نفسه سلطاناً. . !!

وذا بأمير آخر كان شريكاً في المؤامرة، ينقض على السلطان الجديد فيقتله، وحين رأى حب الناس للناصر وأمه وإشفاقهم عليهما، أطلق سراحهما، وأعاد الأم إلى قصرها معززة مكرمة، ونفى محمد بن قلاوون إلى الكرك زاعماً أنه يجب أن يظل بعيداً عن أمه التي تدلله، ليربى تربية عسكرية، ثم يعود حين يشب ويصلب عوده، ويخشوشن !

وصلب عود محمد بن قلاوون، وأصبح شاباً جلداً يجيد فنون الفروسية، فوثب أمير ثالث على السلطان وقتله، ودعا محمد بن قلاوون لتولي العرش !

ولم تأمن أمه حتى أخذت موثقاً من العلماء والفقهاء، والأمراء، وعامة الشعب، أن يحموا ولدها محمداً. .

ناقص صفحتين من الأصل ص ٨٠ ، ٨١

وفي طريقه إلى القاهرة، نزل بغزة، بلد الإمام الشافعي، شيخ الإمام أحمد بن حنبل. . لابد من وقفة على هذا الثرى العزيز الذي شهد طفولة الإمام العظيم !!

رحب به أهل غزة، وأخذوا يتبركون به، وألقى عليهم خطاباً في فضائل الجهاد.

وفي القاهرة استقبله السلطان محمد بن قلاوون بحفاوة عظيمة، وأظهر به الود والإكبار..

واجتمع مجلس السلطان، وأجلسه السلطان إلى جانبه، وأثنى عليه. .

وتحدث الشيخ عن حملة التتار، فأفهمه السلطان بأنه لا يريد أن يعجل بالخروج قبل أن يتم الاستعداد، لئلا تتكرر الهزيمة !!

ورأى الشيخ في رد السلطان تقاعساً عن نجدة أهل الشام وهم رعيته، فقال: "إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته، أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن" ثم سكت قبل أن يكمل: "ولو قدر أنكم لستم حكام الشام، ولا ملوكه، واستنصركم أهله، وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنه. .. فإن تخليتم عن الشام ونصرة أهله والذب عنهم، فإن الله تعالى يقيم له من ينصره غيركم، ويستبدل بكم سواكم. . قال تعالى : ﴿وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾. وقال تعالى : ﴿ألا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوما غيركم، ولا تضروه شيئاً ﴾ صدق الله العظيم.

واستحسن ابن دقيق العيد ما قاله ابن تيمية، فأثنى على شجاعته وحسن استنباطه.

ولم يغضب السلطان. . فهو مازال يذكر ما سمعه عن موقف ابن تيمية مع قازان، وهو من أجل ذلك يجله ويكبره ويحترم فيه الصدق والإخلاص وشجاعة القلب والغضب للحق.

أخذ السلطان يشرح للشيخ خطر المبادرة بمواجهة التتار بجيش يقل عدة وعدداً عن جيشهم، وأنه يحشد الجيوش المُجيشة، لينزل بالتتار هزيمة تمحقهم باذن الله إلى الأبد. .

وقبل أن يرد الشيخ، جاء الحمام الزاجل يبشر السلطان أن التتار عادوا أدراجهم، فقد عرفوا أنباء الاستعدادات في القاهرة !

ولكنهم ربما عادوا بعد حين، بعد أن يعدوا جيشاً يواجه جيوش السلطان.

عمت الفرحة، وأقيمت الأفراح، وسطعت ليالي القاهرة بالأضواء.. كما أضاءت ليالي دمشق بالبهجة.

أما ابن تيمية فقد عزم على العودة إلى دمشق. . وحاول السلطان أن يقنعه أن يبقي في القاهرة عدة أشهر. . ولكنه شكر السلطان، فلا بد من العودة إلى دمشق : إلى أمه، والصحاب، والطلاب. .

لقد جاء مع البريد، وسيعود مع البريد. . إلى الدرس من جديد. .

الفصل الرابع

ترك ابن تيمية القاهرة، واللهفة تضطرم في أعماقه، فهو مشوق إلى أمه الرءوم، وإلى صحابه وطلابه، وإلى أشيائه التي يحبها : خزانة كتبه، ومجلسه في درس الحديث، وحلقته في الجامع الأموي. .

آه لو أنه سافر على أجنحة الحمام !!

ومن بعيد لاحت له مآذن دمشق وقبابها، تسطع عليها أضواء المشاعل، وتناهت إلى أذنيه أصداء الأغاريد والأناشيد، وصيحات الفرح. . مازالت دمشق تحتفل كما احتفلت القاهرة. لا ضير، فهذا خير من الظلمات، ورجع الصرخات !!

وخاض الليل المتلألىء بالشموع، الخافق بالفرحة. . مسرعاً إلى أمه. .

ورآه المحتفلون فتزاحموا عليه، يهتفون باسمه، ويدعون له، ويتبركون به. .

إنه وحده من بين العلماء والملأ من أهل دمشق، هو الذي يتقدم لإنقاذ المدينة، ونصرة الناس !

هكذا صنع منذ عام، فأجلى قازان وجنوده عن أبواب دمشق. .

وها هو ذا اليوم يذهب إلى السلطان في القاهرة يستنفره. فما يكاد التتار يعلمون أن القاهرة تستعد بجنود لا قبل لها بها، حتى يولوا الأدبار!

تأمل ابن تيمية احتفاء الناس به، وموقعه منهم، فدعا الله أن يجنبه الغرور. . فلا يجتمع الغرور والإيمان في قلب رجل واحد. .

وسأل الله أن يمكن له من خدمة الإسلام والمسلمين، وقهر أعداء الدين، والعودة به إلى نضارته الأولى. .

ولم يخرج ليلته من بيته، على الرغم من الحاح الناس عليه، فقد أحسن أن من البر بأمه، أن يبقى معها، ومع أخويه. .

***

وفي الصباح كان في مجلسه من دار الحديث، ثم في حلقته بالجامع الأموي، فطلابه ورواد الحلقة، هم أصحاب الحق الأول عليه بعد أمه. .

وعندما فرغ من حلقته، ركب فرسه إلى نائب السلطان.

واستقبله نائب السلطان محتفياً به، متواضعاً له، وأظهر له من المودة والإكبار، لم لم يبده قط لأحد من علماء الشام أو أمرائه.

قال له نائب السلطان مبتسماً : "رضينا منك يا شيخنا بأن نكون بعد الأم الرءوم. . ولكن ألا تحسبنا بين المريدين وطلاب علمك ؟ ".

فضحك الشيخ: "أنت الراعي وتستطيع الصبر، أما الطلاب ورواد الحلقة من الرعية فلا يصبرون "

كان الأمراء والفقهاء والأعيان في انتظار الشيخ عند نائب السلطان، فقد جمعهم منذ أرسل إليه الشيخ أنه سيجيئه بعد انتهاء حلقته في الجامع الأموي. .

هؤلاء جميعاً كانوا قد فروا من دمشق، عندما حاصرها التتار منذ عام إلا قليلا، فيهم قائد القلعة !

ومن هؤلاء الحاضرين من لاذوا بالتتار حينذاك. !

كان الحاضرون في أبهى حللهم، تلوح عليهم مظاهر الغنى الفاحش، وأمارات الرضا عن النفس، كأنهم لم يقترفوا ذات يوم ما يشين الرجال. . ! ما أصبرهم على العار. . !

وسأله نائب السلطان عن أخبار القاهرة، مما لم يحمله البريد، ولكن الشيخ لم يجبه، فقد كان لا يريد أن يقول ما عنده، أمام هؤلاء الرجال، الذين قد يفرون عند الروع إلى العدو، بما عرفوه من أسرار. . !

لم يقل الشيخ شيئاً من أخبار السلطان، ولكنه ذكره بالخير، ودعا له بالنصر، وقال إنه ترك القاهرة، والسلطان مكين وأمراؤها وعلماؤها في أحسن حال.

وذكر طرائف عن أهل القاهرة وهم يحتفلون بعدول التتار عن غزو الشام. .

وأدرك نائب السلطان ما يقصده الشيخ تقي الدين، فلم يعد يسأله، وبعد قليل فض المجلس واستبقى الشيخ. .

خرج خصوم الشيخ وحساده، والغيظ يأكل قلوبهم من نائب السلطان والشيخ جميعاً.

وعندما خلا نائب السلطان بالشيخ، حدثه عما اطلع عليه في القاهرة من أعداد للعدو، وطلب منه أن تنشط مصانع السلاح في دمشق لابتكار أدوات حربية حديثة، كما يفعلون في القاهرة، فالتتار لا ريب سيزحفون، يوم يستكملون استعدادهم، ولا خلاص منهم إلا أن يضربهم عسكر مصر والشام ضرب رادعة، تكون هى القاضية !!

وأخذ نائب السلطان بنصيحة الشيخ. .

ثم طلب منه الشيخ إبطال البدع والمنكرات، وشن حملة على الباطنية المنتسبين للشيعة الذين ظاهروا التتار منذ عام، وعلى غيرهم ممن يكاتبون الصليبيين في قبرص، ويناصرونهم على إخوانهم في الوطن والدين. . !

ولكن نائب السلطان رأى أن تحتشد كل القوى العسكرية استعداداً لما قد يفاجئهم به التتار. فلا يتشتت الجيش في أكثر من ميدان ! أما عن إبطال البدع والمنكرات، فأمر لا بد منه، لتنشغل الأمة بما هو أجدى عليها، وأنفع لها، وليكون كل

أفرادها أقوياء أصحاء النفوس والأبدان، صالحين للجهاد كما يقول الشيخ. .

والشيخ يستطيع أن ينهض بالأمر جميعاً، وهو في هذا ينوب عن ولي الأمر، ومن أتباعه شبان أقوياء مسلحون، وهم يستطيعون تأديب أنصار التتار والصليبيين، وإبطال البدع والمنكرات.

وأذن الشيخ في تلاميذه وأصحابه وأتباعه، أن نائب السلطان، رخص لهم أن يقوموا بإبطال البدع والمنكرات، وفي ردع من خرجوا على الأمة، وظاهروا الأعداء عليها. .

ومن جديد انطلق أتباعه يريقون الخمور في الحانات، ويهاجمون دور الفساد، ويسلمون من فيها إلى القضاة !

ومضى أتباع الشيخ يعظون زوار قبور الأولياء، ألا يتوسلوا بها، ويفضحون ألاعيب المشعوذين الذين يدعون الزهد والتصوف، ويعرضون على الناس المتحلقين حولهم في الطرقات والميادين ألعابهم السحرية، كالدخول في النار ومداعبة الأفاعي، فيشغلون الناس عن جد الأمور، ويستولون على أموالهم في زمن صعب لم يصلح للهزل بعد !

ومضى أتباع الشيخ من الأتقياء الأقوياء، يتربصون بمن يشاع عنه أنه يقبض الرشوة فإذا تأكد لهم ما أشيع، شكوه للقاضي. .

وكان الشيخ يقود أتباعه أحياناً، وينصحهم ألا يغلظوا مع هؤلاء جميعاً. . فليبدؤهم بالنصيحة، ذلك أنالأمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب أن يبين حكم الشرع بالموعظة الحسنة، فإذا لم يتعظ المخالفون، حق عليهم العقاب. .

والعقاب حق خالص لولیالأمر وحده، ولكن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يساعدونه.

ولهذا أوجب عليهم الشيخ ألا يعاقبوا أحداً، ويقدموه بالشهداء عليه إلى القاضي، ليقضي عليه بما أنزل الله.

ثم خرج ومعه خلق كثير إلى الجبل، حيث يعتصم الذين ناصروا التتار وكاتبوا الصليبيين. فلما أحسوا بالشيخ وحملته المسلحة، جاء شيوخهم نادمين عما بدر منهم، فكلمهم في عقائدهم، واستتابهم فتابوا. . "وحصل من ذلك خير كثير "

وضج قوم في دمشق مما يصنعه الشيخ تقي الدين بن تيمية وأتباعه، واستهال حساده أن يأمر الشيخ وينهي، ويتخذ من أتباعه شرطة وعسكراً...

وجاؤا نائب السلطان، يشكون ابن تيمية.

قالوا: لقد دخل الغرور ابن تيمية، وركبه الصلف، فحسب نفسه ولي الأمر.

فقال لهم نائب السلطان : "إنه يفعل هذا بإذني ونيابة عني "

فانصرفوا غاضبين، متربصين بالشيخ !..

تواري أهل الفساد، فهدأ الشيخ وأتباعه. .

عاد الشيخ يقضي كل وقته بين البيت، والطلاب ورواد الحلقة.

كانت الحلقة مزدحمة بروادها الذين تعودوا ارتيادها، وبآخرين كان عددهم يزداد في كل يوم، منهم الأمراء والأعيان، وبعض مخالفيه.

جلس في الحلقة يشرح ما جاء في الأثر: من بات آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

قاطعه أحد العلماء من خصومه ساخراً : "بالأمس كنت تتصرف كأنك وليالأمر ! فهل أصبحت منذ اليوم زاهداً ؟!"

واحتد الشيخ : "زهد الشاكر العامل العاقل المتوكل على الله، وهذا هو ما أمرنا به، لا زهد المتنطع المتواكل الذي نهانا عنه. . ولا زهد المبتدعين كبعض أصحابك ممن ينتسبون إلى التصوف !... "

وحاول مقاطعه أن يرد، ولكن أهل الحلقة أسكتوه، فما جاءوا إلا ليسمعوا الشيخ لا مخالفيه. .!

صمت الشيخ قليلاً وهو يعاهد الله فيما بينه وبين نفسه، أن يشن الحملة على هؤلاء جميعاً... عندما يجيء الوقت، حين يفرغ من قراءة كل ما كتبه الفلاسفة والمتصوفة. .!

وعاد يكمل شرح ما جاء في الأثر، فذم كنز المال، وفي الأمة ذوو حاجة، وضرب الأمثال من زهد الرسول ﷺ، وصحابته. . ثم استطرد يشرح مسئولية ولياالأمر عن إخراج الأموال قهراً من كانزيها، إذا احتاجت الأمة، أو كان فيها من لم يصل إلى حد الكفاية. .

ولياالأمر يجب أن يكون من الزاهدين الصالحين لا من المسرفين. فما من أحد في الرعية يمكن أن يستجيب لولي الأمر، إلا إذا كان هو نفسه، مثلاً يحتذى، فيفرض هيبته على قلوب الرعية. .

وخير ما يتحلى به هو أن يظهر الطاعة لله ورسوله، فيما يلي من أمور المسلمين. . وهنا غنى لولياالأمر عن المشاورة. . فالشورى توفر له الإلمام بمصلحة الأمة، وتضمن له الرأي السديد فيما يقضي به، وتضمن له قبول الرعية لأوامره ونواهيه. .

والشورى لازمة لأولياالأمر جميعاً، لا للسلطان والأمراء وحدهم. . : "وأولوالأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس. فعلى كل منهما أن يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ورسوله. . عن أبى هريرة أنه قال : "لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ" وقد قيل إن الله تعالى أمر بها نبيه في قوله : ﴿فأعف عنهم واستغفر لهم

وشاورهم في الأمر﴾ ليتألف قلوب أصحابه، وليقتدي به أولوالأمر من بعده، وليستخرج الرأي منهم فيما لم ينزل به وحي من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك. فأولوالأمر بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، أولى بالمشورة. وقد أثنى الله على المسلمين بقوله تعالى :﴿وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم و أقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فوضعها الله تعالى مع الإيمان به وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. . وإذا استشار ولي الأمر، فبين له من يستشيرهم، ما يجب اتباعه من كتاب الله وسنه رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك. ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك. وإن كان عظيماً في الدين والدنيا. فالشورى ملزمة واتباع ما يشار به ملزم "

وأعاد صياغة هذا الرأي في فصل من كتابه عن السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. .

وتهامس خصومه. . ما معنى قوله:"إن على وليالأمر أن يتبع ما يشار به عليه، ولا طاعة له في غير ذلك، وإن كان عظيماً في الدين والدنيا "

وفسروا قوله هذا بأنه يغمز السلطان، أو بالقليل نائب السلطان !! إن الشيخ ليشتغل بالسياسة، فيرهب الحكام،

ويتقرب إلى العامة، ويروح ويجئ، وينهى ويأمر !! لعله يطمع في أن يكون سلطاناً. . !!

ظل حساده ومخالفوه من العلماء في تربصهم به، ينالون كلامه وتصرفاته، عسى أن يجدوا سقطة أو مطعناً فيقضوا عليه، ويستريحوا.. !

إنه شديد الوطأة عليهم، يسلقهم بكلماته، وهو حتى إن لم يقل كلمة، يزري عليهم بنظراته، وكأنه يعيرهم بأن منهم من هربوا يوم الروع، ومنهم من لاذوا بالتتار !

***

وذات مساء تلقى السلطان رسالة تتهم ابن تيمية بأنه يكاتب التتار سراً، وأنهم سيولونه على دمشق أو على السلطنة كلها. . !!

وروع نائب السلطان من هذا الاتهام. . ! إنه لم يلق ابن تيمية منذ مدة طويلة، هذا حق، ولكنه يعرف كل حركاته وسكناته. . فللدولة عيون لا تنام، وهي ترصد بصفة خاصة هؤلاء الشامخين المترفعين الذين لهم في قلوب العامة مكانة خاصة. . وأولهم وآخرهم هو ابن تيمية. .

إنه ليعرف عن الشيخ أنه بعد الفراغ من حلقته في الجامع، يعود إلى أمه فيتحدثان قليلاً، ثم يعكف على مكتبته فيقرأ!! أي منصب يمكن أن يطمع فيه الشيخ وله الكلمة المسموعة عند أصحاب المناصب والهيبة ولهالأمر المُطاع ؟!

أهذا العالم الفقيه الجليل المجاهد، يكاتب التتار، ويتآمر معهم على السلطان ؟!

أدرك نائب السلطان المكيدة. .

لن يسكت عن الذين مكروا بالشيخ هذا المكر السيئ. .

وبات ليلته يفكر في أي خصوم الشيخ يمكن أن يكيد له هذا الكيد المنكر !

وعاد يتأمل الرسالة. . إنه ليعرف خطوط العلماء من خصوم الشيخ، ولا خصوم له غيرهم !! طالما دبج هؤلاء الخصوم رسائل يطلبون فيها هبة أم منصباً.. !!

لم يستطع أن يتعرف على كاتب الرسالة. . فهذا الخط غريب عليه. . ليس خط أحد العلماء !!

وأصبح نائب السلطان، فحشد من يأتمن من الأ والعيون، ليتحروا له الأمر.

فليشيعوا في المجالس الخاصة التي يعقدها حساد الشيخ، أن نائب السلطان يريد أن يلقى من كشف له عورة الشيخ ليمنحه منصباً كبيراً ومكافأة سخية !

وبعد أيام جاءوا بكاتب الرسالة. . !

واعترف الرجل أن الرسالة بخطه حقاً، ولكن الذي أملاها عليه، هو أحد العلماء !

وقطع نائب السلطان يد كاتب الرسالة. وأما العالم فقد جلد، وسيق مقلوباً على ظهر حمار، وحوله الصبية

يسخرون ! والمنادى يذيع المكيدة على الناس، ويعلنهم أن هذا هو جزاء من يكيد للشيخ تقي الدين بن تيمية !!..

وبغتة ضاع صوت المنادي، وخفتت ضحكات الاستهزاء !!

غمرتها صرخات الفزع : "التتار يزحفون. . !!"

وطير الخبر على أجنحة الحمام الزاجل إلى السلطان في القاهرة.

لكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام، لا يبالي هذه المرة بزحف التتار. . !

لقد أعد لهم العدة والعديد. .

لقد وعى كثيراً من الدروس.

أنضجته المحنة، ومصاولة الأحداث. .

فى المرة الأولى خرج وهو بعد شاب صغير، يقود جيشه بنفسه، وحوله أمراء يريدون أن يثبوا عليه، ليسلبوه الملك ! فلما طالب العرب والمسلمين، أن يهبوا لنجدته، لم ينجده أحدا !!

أما اليوم، فقد أدرك أنه يجب أن يقود الجيش تحت راية الخليفة، وأمره نافذ في جميع المسلمين، وطاعته واجبة، فهو أمير المؤمنين. . !

عامين مارس فيهما صناعة الملك، فتدرب، وتعلم !

* * *

عندما كانت الخلافة في بغداد، كانت الدول والدويلات الإسلامية، تدين بالولاء للخليفة العباسي..

ومهما يكن من استقلالها الفعلي، أو تمرد سلاطينها وأمرائها عليه فما كان أحد يستطيع أن يهجر بالعصيان أو المخالفة، لأنه حينئذ يخرج عن إجماع المسلمين، ويعصى وليالأمر الشرعي !

فلما استولى التتارعلى بغداد، وقتلوا الخليفة العباسي، عاشت الأمة الإسلامية بلا خليفة!

أما الذين نجوا من بني العباس، فقد اتخذوا القاهرة مستقراً ومقاماً، ولقوا فيها من الترحيب والإشفاق، ما حمل لهم بعض العزاء. . !

وحين استولى الظاهر بيبرس على الملك، رأى أن يبسط سلطانه الروحي، على كل البلاد الإسلامية، فاصطنع أحد أقارب الخليفة المقتول، وبايعه بالخلافة، وبايعه معه العلماء والأمراء والملأ من أهل مصر. .

كانت خطة الظاهر بيبرس، أن يكون الخليفة رمزاً. ..

هو الذي يعين سلطان مصر، فيكتسب بهذا التعيين شرعية تقوي قبضته على الأمة الإسلامية جميعاً. .

غير أن الخليفة الجديد، أخذ الأمور بجد، ولم يرض أن يكون ملكاً يملك ولا يحكم. يده مغلولة، لتنطلق يد السلطان بيبرس، فيصنع ما يريد. . !

وضاق السلطان بيبرس بتدخل الخليفة في شئون الملك، وخشي أن يبطش به، فتثور الفتنة. . فأقنع الخليفة بالزحف على بغداد، ليحررها من التتار، ويسترد عرشه، وجهز له جيشاً.

وأوعز بيبرس إلى الخلصاء من أمراء الجيش – وكانوا مماليكه – أن ينسحبوا بالجيش، ويتركوا الخليفة وحاشيته، يواجهون التتار وحدهم!

فانقض عليهم التتار، وقتلوهم جميعاً، واستولوا على ما حمله من أموال طائلة، وسبوا النساء. .

وبايع الظاهر بيبرس رجلاً آخر من بني العباس، خليفة وأميراً للمؤمنين ولكنه اشترط عليه قبل البيعة ألا يتدخل في أمر من أمور الدولة، ويكتفي بأن يكون رئيساً روحياً للمسلمين !

ورضي الرجل، ومنح الظاهر بيبرس بركته، وأسماه قسيم أمير المؤمنين، أي شريكه في ولاية الأمر، لتكون كل تصرفات السلطان الظاهر بيبرس شرعية، بموجب هذه الشركة، فلا يتهمه أحد بأنه سلب الخليفة حقه الشرعي في ولاية الأمر. . !

وهكذا أصبح السلطان هو ولي الأمر الشرعي، حاكماً فرداً، أما الخليفة فهو القائد الروحي، يدين له الجميع بالولاء، ويسمونه أمير المؤمنين. وأنزله السلطان في قصر ضخم فخم،

عامر بالجواري الشركسيات الحسان، ومماليك يخدمونه ويتجسسون عليه.

وأعطاه راتباً ضخماً، وتحملت الدولة مئونة القصر وتكاليفه بما فيها هبات الخليفة لمن يشاء. . وأصبح كل حظه من الملك أن يصلي بالناس في المناسبات الدينية الهامة..

***

على هذا النحو سارت الأمور منذ عهد السلطان بيبرس. .

ولكن السلطان محمد بن قلاوون رأى أن ينتفع بالخليفة، ونفوذه الروحي على المسلمين في أقطار كثيرة.

فدعاه إلى أن يقود جيش الجهاد.

واستنفر السلطان ابن قلاوون، سائر المسلمين، أن يهبوا للانضمام إلى جيش مصر والشام، الذى يخرج للقاء جيش التتار، تحت قيادة أمير المؤمنين.

وأرسل بهذا رسائل بالحمام الزاجل، إلى الملوك والأمراء المسلمين، فخجلوا أن يتخلفوا عن نصرة جيش الجهاد بقيادة أمير المؤمنين، وأرسل بعضهم ما يستطيع من مئونة إلى جيش الجهاد. .

ولكن بعض الباطنية في جبال الشام، ومن والاهم من الأعراب، أعلنوا أنهم يرحبون بالتتار، زاعمين أن التتار أحسن إسلاماً من غيرهم، وحكامهم أكثر عدلاً، وأنهم ما

جاءوا بغياً على أحد، ولكن لينقذوا الشام ومصر، من جور السلطان والأمراء المماليك، الذين يظلمون الرعية، وينهبون أموالها – لينفقوها على الزوجات والجواري والغلمان، وعلى ملذاتهم وشهواتهم. . !!

وطالبوا الناس بأن ينقضوا على الخزائن السلطانية، وقصور الأمراء، فيستردوا أموالهم، التي تحولت في هذه القصور إلى جواهر وحلي ترصع أحذية النساء !!

ثم إنهم دعوا الناس، إلى الخروج بأسلحتهم، للانضمام إلى التتار، فمن لم يستطع، فليلق سلاحه، ويلزم بيته، فيأمن !

فعلت هذه الأقوال أفاعيلها في بعض المستضعفين والفقراء من أهل دمشق. .

فبدلاً من أن ينتشوا السلاح لجهاد التتار، أخذوا يتصايحون على الأمراء، ويسبونهم، متسائلين : كيف يكون في دمشق من لا يجد الطعام أو الملبس إلا بشق النفس، وفي أقدام بعض نساء القصور قباقيب ترصعها جواهر وحلي، يكفي ثمن الواحد منها حاجة أسرة فقيرة إلى آخر العمر. . !!؟

* * *

وها هو الشيخ يعظ الناس، ويذكرهم بأن جهاد التتار جهاد في سبيل الله، وحماية لأرواحهم وأعراضهم، وأموالهم. .

أي مال لنا يا شيخنا سنحميه، إنما هي أموال الأمراء ؟!. ..

أنموت دفاعاً عنها، أم عن ظلمهم لنا. . ؟. . ما عسانا نخسر ؟!

سيفرون أمام التتار، كما فروا منذ حين، ويتركوننا !.. فلنسالم التتار، فهذا يضمن حياتنا ويحمي حرماتنا !! فليذهبوا هم ومماليكهم ليحاربوا. . أما نحن، فإنا ها هنا قاعدون. .

وذهب رجال إلى الشيخ تقي الدين بن تيمية، يسألونه الرأي : لماذا يدافعون عن الأمراء، وما عرفوا منهم إلا الجور والغطرسة واغتصاب الحقوق ؟

أقنعهم الشيخ بأنهم إنما يدافعون عن أنفسهم وأهلهم. . عن بلادهم وأعراضهم. . ويذودون عن حوض الشريعة !

ذهبوا إلى غيره من العلماء وعادوا يقولون له إن الله أمر بقتال الكفار وحدهم، وهؤلاء ليسوا كفاراً. .

قال الشيخ : "إن الله تعالى لم يأمر بقتال الكفار لأنهم كفار، ولكن لأنهم اعتدوا. . فالاعتداء لا الكفر هو سبب القتال. لأننا أمرنا بألا نكره أحداً على الإسلام: ﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي﴾ صدق الله العظيم. ولو كان الكافر يقاتل حتى يسلم، لكان هذا أعظم الإكراه على الدين، ولكننا نقاتل لرد العدوان. يقول تعالى : ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث

ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ فالقتال فرض علينا لدفع المعتدين، حتى لا تكون فتنة. وهؤلاء جاءوا معتدين، فمتى يجب القتال علينا إن لم يجب اليوم ؟!

وخرج الرجال من عند ابن تيمية، وتركوه في حلقته، ثم عادوا يقولون : " بعض العلماء أفتانا أن آية ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ منسوخة".

فقال لهم : "جمهور السلف على أنها ليست مخصوصة ولا منسوخة. بل يقولون إنا لا نكره أحداً على الإسلام، وإنما نقاتل من حاربنا، فإن أسلم عصم دمه وماله وإن لم يكن من أهل القتال لم نقتله. . وكان رسول الله ﷺ يقول لجنده : (انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله. ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). ولقد مر عليه السلام بامرأة مقتولة فقال : (ما كانت هذه لتقاتل) ! فقتلها حرام لأنها لم تعتد ولم تقاتل. إنه عليه الصلاة والسلام لم يكره

أسيراً على الإسلام. فكيف يقولون إن الآية منسوخة، وكل من هادنه من الكفار لم يقاتله، وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا، وهذا متواتر من سيرته عليه السلام، فهو لم يبدأ أحد بقتال.

ونهض الرجال ليغادروا الحلقة، ولكنه استوقفهم، وقد عرته الحدة غضباً من اللجاجة في أمر كهذا، والتتار يزحفون. .

وسأل عن العلماء الذين أفتوهم ؟!

لعلهم هم هذا النفر الذين فروا يوم حصار دمشق منذ عامين، أو لعلهم هم هؤلاء الذين رآهم أيامها عند قازان، يتزلفون، منكسرين تقرباً إليه !!

وأدرك الشيخ أن الفتنة توشك أن تشتعل، والتتار يزحفون !!

فنشط إلى الناس حيثما تجمعوا في الجوامع والطرقات يعظهم، ويعدهم بعدل الأمراء و بحياة أفضل، بعد أن ينهزم التتار عنهم.

فليس هذا وقت حساب الأمراء.. ولا هو وقت اللجاجة في التفسير والفقه، ولا وقت اختلاف العلماء !!

إن السنة وإجماع الصحابة على أن طاعة أولي الأمر، في زمن الجهاد واجبة لازمة، حتى ولو كانوا جائرين !

على أننا بعد أن يتحقق لنا نصر الله، سنقومهم، فنحملهم على العدل، وإنصاف الرعية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. .

وخفت غضبة الناس على الأمراء بعض الشيء، ولكنها لم تختلف !

ظلت كالنار تحت الرماد، يحس وهجها، ولا يرى أجيجها. . !

ثم رأى الشيخ تقي الدين بعض زعماء الأعراب في حلقته في الجامع الأموي، وعلى رأسهم أميرهم حسام بن مهنا بن عيسى. .

وهو فارس شجاع، حسن الرأي، محب للمعرفة، شديد التقوى.

لكم استرعى الانتباه بحسن الفطنة، وقوة الاستيعاب، وسرعة البديهة وخفة الظل في المناظرة. . !

ولقد هم الشيخ أن يكلمهم في تعاهدهم مع الباطنية على محالفة التتار، فيبين لهم ما في عهدهم هذا من مخالفة للشرع والطبع. فهم أهل المروءة والنجدة من أبناء الشام، فكيف ينصرون عليه عدواً غازياً باغياً ؟!

ولكنه خشي أن يشتد عليهم بعض تلاميذه من المتحمسين لآرائه، أو أن يخرج أميرهم حسام بن مهنا بن عيسى، والأمير حسام بن مهنا فيه الحياء، على الرغم من جسارته !!

لقد أمرنا الله ورسوله أن ندفع الحرج. .

ثم إن مناظرة الأمير وصحبه أمام الآخرين، وإلزامهم الحجة، قد يثير العناد، فتتحول المناظرة إلى لجاج، وتضيع الحقيقة !

والتفت الشيخ باسما إلى الأمير : "كيف حال الأمير حسام وصحبه الأمجاد ؟. . إني مصل بكم العصر والمغرب غداً، فطاعم عندك إن شاء الله "

وضج الأمير وصحبه مرحبين في عبارات حارة، تداخل بعضها في بعض، من شدة السرور !

فلما كان الغد، لم ينشغل الأعراب وأميرهم بغير استقبال الشيخ ومأدبته..

وجاءه بعض كبار مشايخهم ليصحبوه إلى ديارهم، فوجد الأمير في استقباله على مشارف الديار، ومعه فرسان من أمهر فرسانهم. . فقدموا أمام الشيخ رقصة السيف، وبعض ألعاب الفروسية، ابتهاجاً بمقدمة.

ثم نحرت الذبائح تحت قدمي الشيخ تكريماً وترحيباً.

وبعد صلاة العصر في مسجدهم بدأ الشيخ موعظته..

تحدث عن القتال، وحكمة الجهاد، وواجب المسلمين إذا اعتدى عليهم غير المسلمين، أو إذا غزا أرضهم مسلمون آخرون بغياً وعدواناً. . وطلب ألا يناصروا البغي، وإلا أثموا

كالبغاة، وألا يحرضوا الرعية على العصيان في زمن الجهاد، فهذا ابتغاء للفتنة، وتخذيل عن نصرة الدين !!

فسأله أمير العرب : لكننا عاهدنا الباطنية، وحالفناهم على أن نظاهر التتار جميعاً، وقد علمتنا أن الرسول الله ﷺ قال إن آيات المنافق ثلاث منها أنه إذا عاهد غدر، وإذا وعد خلف، فهل ترضى لي يا شيخنا أن أجمع خصلتين من آيات المنافق، وأنت الذي علمتنا فيما علمتنا أن النفاق من الكبائر، وأن الله تعالى جعل المنافقين في الدرك الأسفل من النار ؟!"

وانتظر الجميع رد الشيخ، فأجاب : "أنا أعلم أنك إذا عاهدت أيها الأمير وفيت، وإذا وعدت أنجزت، وأعرف فيك التقوى والغيرة على الدين، وإغاثة الضعيف، ونجدة الملهوف. أنا أعرف كل سجاياك الحميدة يا أمير العرب، وأجد فيك ريح الصالحين الأوائل، من فرسان النهار ورهبان الليل، ولكن أي عهد هذا الذي عاهدت، وأي وعد وعدت ؟! لئن لم تنجز هذا الوعد ولم تف بهذا العهد، فما أخلفت، وما غدرت ! إنك تعاهد قوماً بغاة عادين آثمين، ولا عهد في معصية ! وقد نهانا الله تعالى عن التعاون على الإثم والعدوان، وقال تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ فمن البر والتقوى أن تجاهد الغزاة البغاة تحت راية قومك أهل الشام. ونقض مثل هذا العهد الذي عاهدت هو من

باب التوبة النصوح. فتوبوا إلى الله يرحمكم الله. وجاهدوا في سبيل الله بأنفسكم وأموالكم، ودافعوا عن دياركم ".

وأعلن أمير العرب أنه يتوب إلى الله هو وقومه، ويضعون أنفسهم تحت راية جيش الشام، وشيوخ العرب من حوله يستغفرون الله عما سلف منهم، ويهللون ويكبرون. .

وصلى الشيخ بهم المغرب، ثم طعموا. ..

وركب الشيخ، يصحبه ابن مهنا أمير العرب، تتقدمهما المشاعل، ومن خلفهما كوكبة من شيوخ العرب وفرسانهم، حتى بلغ الشيخ داره. .

وأمام باب الدار، قدم له الأمير فرساً قال إنه خير ما عندهم من الخيل العربية الأصيلة، وأقسم على الشيخ أن يقبل الفرس، فهو ليس عطاء سلطان، ولا هدية أمير مملوكي من أولي الأمر !!

وقبل الشيخ الهدية شاكراً، وسألوه الصفح عنهم، والدعاء لهم، وانصرفوا عائدين. .

***

خرج عسكر الشام بقيادة نائب السلطان، وأقبل عسكر مصر، يقودهم السلطان، وإلى جانبه الخليفة والأميران، سلار، وبيبرس الجاشنكير، وهما أشد أمراء المماليك بأسا وسطوة، ودراية بفنون القتال، ومعهم أحدث الآلات الحربية، والقراء يتلون القرآن، ويرددون آيات الجهاد، مستثيرين

حماسة الجند، وأصداء النفير العزاف، ودقات الطبول، وحمحمة الخيل، ترج الآفاق..

والنداءات تتعالى "الله أكبر. . الله أكبر"!!. .

والخليفة يخطب في المعسكر: "يا مجاهدون، قاتلوا عن دين نبيكم محمد ﷺ، وعن حريمكم"

وانضم العربان بقيادة الأمير حسام بن مهنا إلى عسكر الشام، وجعلوا لأنفسهم مكاناً خاصاً قرب أحد جناحي الجيش. .

ووقف ابن تيمية على صهوة جواده في ملابس عسكرية، يشد أزر الجميع..

وسمع بالقرب منه أحد رجال الجيش يهمس لصاحبه : "كيف نقاتل التتار وهم مسلمون مثلنا". . فخطب ابن تيمية في العسكر : "ما زال يهجس في صدور بعضكم هاجس يوسوس له أن التتار مسلمون مثلنا، فلا يجوز قتالهم. وهذه وسوسة الشيطان. فهؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهم، فحاربهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. هؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، و يعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة. . فان

رأيتموني في ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني !. ... "

ثم استطرد :

"انهم جاءونا معتدين يغزون أرضنا ويبغون علينا فجاهدوهم، فقد وعدكم الله تعالى بالنصر. ومن بغي عليه لينصرنه الله ". ...

وأخذ الشيخ يطوف على العسكر صائحاً : "جاهدوا في سبيل الله بعزيمة سلفكم الصالح، وإنكم لمنصورون. . إنكم منصورون"

فقال له الأمراء :"قل إن شاء الله"

فقال الشيخ : "أقولها تحقيقاً لا تعليقاً"

وسرى قبس من اللهب الذي يتأجج في أعماق الشيخ، إلى قلوب المترددين، فاشتعلت الحماسة والحمية. .

وطلب السلطان من الشيخ أن يكون إلى جواره على قلب جيش مصر، فقال الشيخ: "السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم ".

ومال السلطان على أذن الخليفة، يستأذنه أن يأمر جيوش مصر والشام بالمسير لملاقاة الأعداء، فأذن الخليفة قائلاً للجنود: "يا مجاهدون. دافعوا عن دين نبيكم محمد ﷺ، وعن حريمكم "

وتحرك الجيش.. .

ولاحظ الشيخ شعور الجنود بالإعياء والفتور. .

كان الوقت رمضان، والحر شديداً، ووطأة الصيام وحمارة القيظ والعطش ترهق الأبدان. .

فوقف الشيخ يفتي الناس بوجوب الإفطار ليتقووا على الجهاد، فهذه هي السنة. .

وذكرهم بما صنعه رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة، وكان الوقت رمضان والحر شديداً.

أفطر عليه الصلاة والسلام، وأمر الناس أن يفطروا قائلاً: "إنكم ملاقوا العدو، والفطر أقوى لكم "

واعتلى ﷺ مكاناً مرتفعاً بحيث يراه الجميع، وأخذ يأكل ويشرب أمامهم..

واتبع الشيخ سنة الرسول، فوقف على صهوة جواده ليراه الجميع، وأكل وشرب، وجال بين صفوف الجند يأكل ويشرب، ويأمرهم بالإفطار..

وأفطروا، فشعروا بعد أن أكلوا وشربوا بالقوة تدب فيهم، ونشطوا إلى ملاقاة التتار. .

التقى الجمعان في مكان يدعى "شقحب" وحارب ابن تيمية كفارس حاذق، وبهر فرسان المماليك ببسالته !

أيكون فقيه حرفته الكتابة والخطابة، أجرأ منهم في الحرب، والحرب حرفتهم ؟!.. .

وتباروا في ضرب العدو، وصوت الشيخ يمنحهم الثقة : الله أكبر. . انكم لمنصورون !

وريع التتار مما يرون !!

ما عهدوا هؤلاء يحاربون بمثل هذه الجسارة من قبل. . !

وأذهلتهم الآلات الحربية الحديثة وقوة فتكها. ..

واستمر القتال طوال اليوم الرابع من رمضان. ..

وأدرك التتار أنهم سيلاقون هزيمة لم يعرفوها منذ "عين جالوت" !!.. فلجأوا إلى أحد التلال، واختفوا وراءه والليل يقبل، ليخفيهم عن العيون !!

***

وتوقف القتال في انتظار ضوء النهار. .

ولجأ التتار إلى حيلة غريبة، فقد أرسلوا إلى دمشق بعض أعوانهم الباطنية، ليذيعوا على أهل المدينة أن عساكر الشام انهزموا، ولن يعود منهم أحد، فقد قتل التتار من قتل منهم، وأسروا الباقين !!

أما أمراء المماليك الفرسان، فقد فروا. .. !

ذعر أهل دمشق، وخرج النساء إلى الشوارع حاسرات مرسلات الشعور، باكيات نادبات يلطمن الخدود !

وامتلأ ليل المدينة بالنشيج والصرخات، والفزع !! وسيطر الرعب على كل شيء. وأخذ الناس يلعنون الأمراء

الذين يظلمون الرعية في السلم، ويفرون في الحرب، واقتحموا الخزائن السلطانية، واستولوا على ما فيها من أموال.

ولجأ خلق كثير إلى المساجد وأضرحه الأولياء، يدعون ويسألون الله اللطف في القضاء. .

عاشت ليلتها في هلع وفوضى ورعب وأحزان لم تعرفها من قبل ! وسرى من الباطنية أعوان التتار، فرسان آخرون، فاندسوا بين الجنود يخذلونهم. . وكان الجنود في جماعات متباعدة. . فأذاعوا في كل جماعة أن الجماعة الأخرى قد أسرها التتار أو أبادوها. .. والنجاة بالنفس حكمة !!

واضطرب الجند، وهمَّ بعضهم بالفرار !!

وأسرع الشيخ إلى السلطان ينبئه بخدعة التتار.

وسأله أن يأمر الجنود، بأن يصطفوا، وألا يخرج من الصف أحد، وبأن يرسل إلى أهل دمشق من يدحض الأكذوبة، ويحمل إليهم الطمأنينة. . وأرسل السلطان المنادين، فأعلنوا الناس في دمشق أن العسكر بخير، وأن نصر الله آت عن قريب. .

وأمر السلطان فدقت الطبول، وعزف النفير، وانتظم الجنود في الصفوف على ضوء المشاعل، وابن تيمية يتجول بينهم على فرسه، يكشف لهم حيلة التتار، ويبين لهم حكم الشرع فيمن يفر، أو ينكص على عقيبه، مكرراً : إنكم، لمنصورون، إنكم لمنصورون.

وأعلن السلطان : " من يخرج من الأجناد عن الصف فليقتل، ولقاتله سلاحه وفرسه "

والفجر يشرق من بعيد. ..

وعلى شعاع الفجر، قاد السلطان الجيوش إلى التل الذي اختفى وراءه العدو فركبوه، وأعملوا فيه السيوف والآلات الحربية الحديثة..

وعندما اقترب العصر يئس التتار من القتال فلاذوا بالفرار، ولكن ابن تيمية صاح في المعسكر: "لا تتركوهم".

وطاردهم العسكر، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا الباقين، ولم ينج إلا القليل. . وغنموا منهم مغانم كثيرة. ..

***

عاد الجيش المنتصر بقيادة السلطان، وإلى جواره الخليفة والفقيه الفارس الشيخ تقي الدين بن تيمية. . ودقات الطبول والأبواق العزافة، وتكبير الجنود، تعلن البشرى. . لقد نصر الله جنده !

واستقبلت دمشق جيشها المنتصر بالأفراح والزينات. .

وأرسلت أنباء الانتصار على أجنحة الحمام الزاجل، إلى كل بلاد المسلمين. .

واستمرت دمشق تحتفل بالانتصار عدة أيام وليال، سطعت فيها الزينات، ودوت الضحكات. . ووزع السلطان الهدايا والخلع.

وأقام في دمشق حتى صلى العيد. .

وتركها في اليوم الثالث من شوال إلى القاهرة. .

وفي القاهرة وجد في استقباله أقواس النصر، والطرقات مفروشة بالحرير، وعلى جانبيها أحواض ملئت بعصير الليمون والسكر. . والناس في أبهى حللهم يكبرون ويحمدون الله على النصر المبين.

السلطان على فرسه يبطئ السير رفقاً بالحرير المفروش على الأرض، وإلى جواره الخليفة يحيى الناس على الجانبين، وهم يهتفون له وللسلطان، ومن خلفهما أمراء الجيش المنتصر، يسوقون أسراهم من أمراء التتار وقوادهم، مصفدين في الأغلال، وخلفهم العسكر وآلاف الأسرى الآخرين، وأرتال الإبل تحمل الغنائم الكثيرة.

وصعد السلطان إلى قصره بالقلعة وسط الهتافات والزغاريد، فأمر بمنح العطايا والهبات والخلع، أعيان البلاد وفقراءها على السواء. .

استمرت الأفراح في القاهرة أياماً وليالي : في النهار تغمر الزوارق المزدانة بالرايات، صفحات النيل والخلجان والبحيرات التى تتخلل القاهرة، وتعمر الحدائق بالناس وأصحاب اللهو والحواة. . وفي الليل تتلألأ الأنوار في الطرقات وتزدحم السرادقات بروادها يتسمعون لأهل الغناء والطرب، ويشاهدون الراقصات.

واستمر الحال نحو أسبوع، حتى ضج الصالحون من العلماء، فصعد الشيخ ابن دقيق العيد إلى القلعة، وشكا للسلطان إسراف الناس في اللهو، حتى اقترفوا المنكرات جهاراً، في الزوارق والحدائق والطرقات !! وسأله أن يكف الناس عن هذا الفساد.

فأجابه السلطان قائلاً : "إنك لتذكرني بالشيخ تقي الدين بن تيمية، سيد العلماء والفرسان "

فقال ابن دقيق العيد : "لو أن الشيخ تقي الدين بن تيمية كان هنا، وعاين ما عايناه من المنكرات باسم الابتهاج بالنصر، لقاد جماعته من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وحارب أهل الفساد !!. .

ألا تأمر يا إنسان (هكذا كان ينادى السلاطين والأمراء) بأن يتلى القرآن في المساجد حتى يختم، ثم يقرأ البخاري، وأن يستمر هذا من الأيام والليالي أضعاف الزمن الذي استغرقته الأفراح والمعاصي ؟

عسى الله أن يرضى عنك ويغفر لأهل مصر ما ارتكبوه في المعاصي "

قال السلطان : "لك هذا يا شيخنا"

استطرد ابن دقيق العيد : "بعد هذا نستقدم الشيخ تقي الدين بن تيمية، فبنا إليه شوق، وأهل مصر بحاجة إلى علمه ".

قال السلطان : "ألححت عليه وأنا في دمشق أن يصحبنا إلى القاهرة، لنتبرك به، ولينفع الله بتقواه وعلمه أهل الكنانة فما قبل "

لقد آثر ابن تيمية أن يبقى في دمشق، ليرى كيف يسلك مع الذين ناصروا التتار من أهل الشام، وظاهروهم على قومهم !!

لقد جاء وقت الحساب !!

الفصل الخامس

هدأ الناس واستقرت أمورهم، بعد الانتصار الكاسح الساحق على التتار. . إلا الشيخ تقي الدين، فما هدأ، ولا استقر. . !

إنه ليحاول أن يستخلص العبرة، من كل ما مر بالأمة من أحداث. .. !

لقد استقر رأيه على أن يحاسب المفسدين، والذين خانوا الأمانة، فناصروا التتار والصليبيين، حينما كان الجيش يحارب. ..

سيظلون ثغرة يتسلل منها العدو. . وعلى المؤمنين سد الثغور.

حقا. . لقد جاء يوم الحساب والعقاب.

ليس هؤلاء وحدهم هم الذين يستحقون العقاب، ولكنهم أيضا الولاة الذين يظلمون الرعية، ويدفعونها إلى اليأس، حتى لتستوي لديها أظفار الذئاب المغيرة عليها، وعصى رعاتها الظالمين. .. ! !

ثم. . صناع البدع والضلالات، ممن يخرجون بالأمة عن نهج السنة، ويشغلونها بالأباطيل !

هؤلاء وبال يجب الخلاص منه.

ولكنه إن انشغل بهذا كله، لزعم حساده من العلماء، أنه ترك الفقه وعلوم الدين، ليعمل بالسياسة طلباً للرياسة والسلطة والجاه !

لا. . ما اهتمامه بهذا البهتان. . ؟ !

إنه ليعرف أن هدف الشريعة هو تحقيق المصلحة للأمة ودفع الضرر، وإماطة الأذى !

وإذن فالعلماء ليسوا فيران كتب، ولكنهم حملة مشاعل، وأدوات تنوير.

هم أولوالأمر كالولاة، وهم مسئولون أمام الله، عن نصرة الحق، ودحض الباطل، وإقامة المجتمع الفاضل. .

وإلا فما جدوى ما يحملون من علم ؟!

إنهم إن سكتوا، حقت عليهم لعنة الله، وضلوا ضلالا بعيداً، فالرسول ﷺ بشر بالخسران في الدنيا والآخرة، قوما من العلماء لا يعملون بما تعلموه. . !

إنهم في الحق لكاذبون حملوا التوارة فلم يحملوها، ولم يعملوا بها. . فمثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً.. .. !

***

فليذهب إلى نائب السلطان، فيكلمه في الباطنية، الذين ناصروا التتار وكاتبوا الصليبيين زمن الحرب. .

غير أنه تردد بعض الشيء، فهو لا يحب أن يطرق أبواب الحكام !!

لقد قام السلطان الناصر نفسه هنا أياماً بعد الانتصار، فما ذهب الشيخ إليه، فكان السلطان يدعوه كل ليلة بعد الإفطار، ويسأله النصيحة والموعظة..

إن الشيخ لا يجد عند الحكام إلا ما يوجع القلب : أهل الزيف والنفاق يتزلفون، وبعضهم واحر قلباه من العلماء. .!

الحكام تعودوا أن يسمعوا لغة غير التى يتقنها الشيخ.. استطعموا المداهنة والمديح. . والشيخ لا يعرف غير المصارحة والمكاشفة وقولة الحق !..

ولكن تردد الشيخ لم يطل، فهو لا يذهب إلى هذا الحاكم أو ذلك للمؤانسة ولكن دفعاً للضرر عن الأمة، وجلباً لمنفعة الناس.

وذهب إلى نائب السلطان، فوجد ما كان يتوقعه: حلقة المنافقين وطلاب المنافع!..

وخف نائب السلطان لاستقباله، متواضعاً له..

طلب الشيخ من نائب السلطان أن يعلن الحرب على الباطنية الذين يعتصمون بالجبل، تأديباً لهم عما اقترفوه من خيانة الأمة، ومناصرة المعتدين الباغين عليها. .

وطلب منه نائب السلطان، أن يهمله رويداً، فحرب كهذه يجب أن يأذن بها السلطان نفسه. .

فقرر الشيخ أن يكتب هو نفسه للسلطان. . على أن يحمل الحمام الزاجل رسالته على جناح السرعة.

وتهيأ الشيخ للخروج، ولكن رؤساء اليهود بالشام أقبلوا، لأمر عاجل أهمهم. .

وألح نائب السلطان على الشيخ أن يبقى، ليجادل عنه رؤساء اليهود.

كانوا قد طلبوا من قبل رفع الجزية التي فرضت على أهل الذمة، منذ الفتح الإسلامي، حين خير الفاتحون أهل الكتاب بين الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية.

وكان نائب السلطان يجد حرجا في الإجابة إليهم، ويجد حرجاً في رفض طلبهم، فهم يملكون أكثر التجارة، وقد يحدثون اضطراباً في حياة الناس وأموالهم.

وقدم رؤساء اليهود وثيقة، تعفيهم من الجزية، وزعموا أنها عهد لهم من الرسول ﷺ.. !

وقدم نائب السلطان الورقة للشيخ، وسأله الرأي..

ولما قرأها الشيخ بعناية، قال إن الوثيقة مزورة، فأسلوبها ليس هو أسلوب الرسول عليه الصلاة والسلام، وفيها أخطاء في الكتابة والنحو، ما كان ليقع فيها أحد في عصر الرسالة، والعصر الذي يليه، فكيف يقع فيها الرسول نفسه ؟!

ثم قال لهم إنه عندما قابل قازان سلطان التتار، حدثه عن أهل الذمة فأطلق الأسرى من اليهود والمسيحيين، فهو لا يحمل عليهم، ولا يتعصب ضدهم، لأنهم في ذمة الله ورسوله ورعايتهم واجبة..

ولكنه لا يرضى منهم بالكذب على رسول الله ﷺ، ولا بالاحتيال على ولي لأمر، وعليهم أن يدفعوا الجزية، وألا يرجعوا إلى مثل هذه الأكاذيب، وإلا وجب على ولي الأمر تعزيرهم . . أي حبسهم وجلدهم أو ما يراه ولي الأمر من العقوبات !..

وانصرف زعماء اليهود، كاسفين آسفين، معتذرين، وتعهدوا ألا يعودوا لمثلها أبداً..

وانصرف الشيخ يكتب الرسالة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، ليطير بها الحمام الزاجل إلى القاهرة..

كتب الشيخ عن الباطنية أنهم : "لما قدم التتار إلى البلاد وفرحوا بمقدمهم، فعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص الصليبيين فملكوا الساحل، وحملوا راية الصليب، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عدده إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يوما يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص. ولما خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية، ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم. ولما نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان، كان بينهم شبيه بالغبراء. كل هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة، كان من أسباب خروج جينكيز خان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد وفي قدومه حلب وفي نهبه

الصالحية، وغير ذلك من أنواع العداوة للإسلام.. . وقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها، منهم في أمر لا يضبط شره، كل ليلة تنزل منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد. كانوا في قطع الطرقات وإخافه سكان البيوتات على أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات: يرد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين، ويوقعون بالرجل الصالح من المسلمين فإما أن يقتلوه وإما أن يسلبوه "

ثم تحدث عن إباحتهم المحرمات جميعاً.

وطالب في آخر الرسالة بأن يصدر السلطان أمره إلى نائبه في دمشق بحربهم، وإلزامهم الشريعة، حتى تطمئن الأمة، ويسود سلطان الدين.

وطار الحمام الزاجل بالرسالة، وانتظر الرد.

***

على أنه خلال انتظاره لم يلتزم الصمت، بل جعل كل دروسه وعظاته، توجيهاً للناس ليتطوعوا لجهاد الباطنية، إن أذن لهم السلطان، وسيأذن إن شاء الله..

قال الشيخ وهو يعظ الناس : " في رواية لمسلم أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : تكون أمتي فرقتين فتخرج من بينها مارقة (أي فرقة مارقة) تلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق. فهؤلاء الذين قتلهم أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، لما

حصلت الفرقة بين أهل الشام وأهل العراق. وكانوا يسمون الحرورية. بين النبي ﷺ أن كلتا الطائفتين المفترقتين من أمته، وأن أصحاب علي بن أبي طالب أولى بالحق، ولم يحرض إلا على قتال أولئك المارقين الذين خرجوا من الإسلام وفارقوا الجماعة، واستحلوا دماء من سواهم من المسلمين وأموالهم. فثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، أنه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام. . "

وأفتى الشيخ "إن قتال هؤلاء واجب على المسلمين جميعاً، ولا تكفي فيه فئة كالعسكر، عن سائر المسلمين، ذلك أنهم معتدون، فصار دفع عدوانهم "واجباً" على المقصودين بالعدوان وغير المقصودين، لإعانتهم، كما قال تعالى: ﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ وكما أمر النبي ﷺ المسلم بنصر المسلم. ..

وهذا يجب بحسب الإمكان على كل مسلم بنفسه وماله. ولكن خروج المسلمين لقتالهم لا يصح شرعاً إلا باذن ولي الأمر وهو السلطان. . فلينتظروا أمر السلطان "

وسأله سائل : "إذا كان قتالهم يجب على كل مسلم قادر، ففيم انتظارنا حتى يأذن السلطان ؟"

قال الشيخ: "لأنه ولي الأمر وهو الراعي المسئول عن الرعية بنص الحديث الشريف. ولا تعلن الحرب إلا بإذنه وله على الرعية الطاعة، وإلا اضطربت أمور الناس، وتحكم

الهوى، وعمت الفوضى، وتفرق الشمل واشتعلت الفتنة ! وقد جاء في الأثر أن مائة عام من سلطان جائر خير من يوم واحد بلا سلطان. فإذا أخطأ ولي الأمر فلنا عليه النصيحة. قال رسول الله ﷺ : (إن الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. .) "

***

ها هو ذا الشيخ، ومعه نائب السلطان، وسائر الناس ينتظرون رد القاهرة : أن يأذن السلطان للعسكر، ولمن يتطوع من الرعية، في قتال الباطنية الذين ناصروا التتار والصليبيين.

والشيخ مازال كالعهد به يقرأ ويكتب في منزله، ولكن أكثر وقته موزع بين درسه في دار الحديث، ومواعظه وفتاواه في الجامع الأموي، ولقاءاته ببعض العلماء من المذاهب المختلفة، يستنفرهم ليفتوا بقتال الباطنية.

وكان لابد له أن يستقصي فكر الباطنية ومعتقداتهم، ليشرحها للناس، فيثير حماستهم.

ووقف الشيخ على حقيقة الباطنية الذين يعتصمون بالحبل، فهم دولة خارج الدولة : لها عقائدها وأعرافها..

إنهم عدة فرق، كلهم ينسب نفسه إلى الشيعة ! !

ولكنهم غير الشيعة الزيدية، والشيعة الإمامية، فهؤلاء لهم معتقدهم الحسن، ولهم اجتهادهم.

والشيعة الإمامية تسير على نهج الإمام جعفر الصادق، وقد كان من أعلم الناس بالسنة، وقد تعلم منه الإمام أبو حنيفة النعمان، إذ صحبه سنتين قال عنهما : "لولا السنتان لهلك النعمان."

وكان الإمام مالك لا يقطع درسه لمقدم أحد، حتى الخليفة نفسه، إلا إذا جاءه الإمام جعفر الصادق.. !

والإمام مالك لا يعرف المجاملة، فحين ناظره الخليفة المنصور في مسجد رسول الله ﷺ، حيث تعود الشيخ أن يلقي درسه، ورفع الخليفة صوته، قال له الإمام مالك : "يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال : ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾. وذم قوماً فقال : ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً "

الإمام مالك الذي تعود هذه السيرة مع الخلفاء، كان إذا رأى الإمام الصادق يدخل المسجد النبوي ليجلس حيث انتهى به المجلس، قطع الدرس وناداه وأجلسه إلى جواره، ونزل له عن وسادته.

فهؤلاء الشيعة الإمامية والزيدية حماة للدين. أمناء على السنة، ومازلنا نغترف من فقه الإمام جعفر الصادق، فهؤلاء الشيعة الإمامية، إخوان لنا.

وإن اختلف معهم أهل السنة، فهو خلاف لا يمس حقيقة الشريعة أو جوهر العقيدة، بل هو خلاف في الفروع، كخلاف الأئمة الأربعة فيما بينهم.

أما الباطنية فهم في واد آخر، وإن ادعى بعضهم مذهب الشيعة الإمامية أو الزيدية.

وهؤلاء الباطنية بفرقهم المختلفة، يقولون إن الله تعالى يحل في نفس الإمام، ويحق للإمام أن يعفيهم من التكاليف كالصلاة والزكاة والصوم وحج البيت.

ومن هؤلاء فريق يسمى النصيرية وهم يذهبون إلى أن الله تعالى قد حل في جسد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهم يؤلهونه.. ومنهم من يقول إن جبريل عليه السلام أخطأ فبلغ الرسالة محمداً بدلاً من علي **! !**

وقد حارب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أسلافهم الذين نادوا بهذا، وقتلهم، وأمر بإحراقهم.

ومن هؤلاء من يعتقد أن الله تعالى قد حل في جسد الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي الذي كابده أهل مصر، وقتله بعض أقربائه. وهؤلاء هم الحاكمية الذين يعبدون الحاكم بأمر الله، ويزعمون أنه لم يمت، لأن مثله لا يموت، وأنه قد اختفى وسيعود !

ومن هؤلاء الباطنية فرقة تسمى الإسماعيلية، وهم يعتقدون أن إمامهم يعلم من الشريعة ما لا يعلمه غيره، فهو علم خصه به الله تعالى، وأن الإمام لا يلزم أن يكون ظاهراً، بل يجوز أن يكون مستوراً، والإمام عندهم معصوم لا يخطئ. ومنهم طوائف تؤله الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وهؤلاء الباطنية بكل فرقهم قد اتخذوا اسمهم من اعتقادهم أن للشريعة ظاهراً وباطناً. وظاهر الشريعة هو ما يعرفه أهل السنة. . أما الباطن فلا يعرفه غيرهم. وللباطن باطن، وباطن الباطن لا يعرفه إلا إمامهم ! !

ولهذا أوَّلوا آيات القرآن وأركان الإسلام، وقالوا إن لها باطناً غير ما يفهم من ظاهرها : فالصوم عندهم هو الامتناع عن الكلام، ودليلهم الآية الكريمة على لسان مريم:﴿ إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾. والزكاة عندهم هي بث علومهم لأهل مذهبهم ليتطهروا بها، لأن الزكاة عندهم من التزكية وهي الطهارة. .

ومن أمثلة ذلك أنهم أوّلوا الآية الكريمة : ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ فالنحل هم دعاة الإمام، والجبال هم دعاة البلاغ، والشجر هم الحجج والبراهين .

وقالوا في الله تعالى قولاً عظيماً، فزعموا أنه لا يوصف بنفي ولا إثبات فلا يقال عنه موجود ولا معدوم، ولا قادر ولا غير قادر، ولا عالم ولا غير عالم. . فنفوا الصفات والأسماء الحسنى .

وهم يتعاطون الحشيش والأعشاب المخدرة، ويحتفلون بليلة لهم من كل شهر تسمى ليلة الإفاضة،

وفيها يجتمع الرجال والنساء، ويفضي بعضهم إلى بعض في ظلام، وبعد إطفاء المصابيح. ويروى أن امرأة منهم أصبحت بعد ليلة من ليالي الإفاضة، "فجزت ذوائبها، وخرجت تصرخ، وأخبرت أن ولدها غشيها في تلك الليلة "

***

غلت الدماء في العروق، وغمت النفوس بالغثيان، لما قاله الشيخ تقي الدين عن هذه الفرق الباطنية. .

كان الناس يعرفون أنها فرق فاسدة الاعتقاد، وأنها تظاهر الأعداء عليهم .. وأنهم أيام خروج صلاح الدين ليحرر القدس وأرض الشام وفلسطين، حالفوا الصليبيين ضده، وحاولوا اغتياله .

وكان الناس يعرفون أنهم يتعاطون الحشيش حتى عرفوا باسم الحشاشين .

ولكن ما من أحد كان يتخيل أنهم يمكن أن يغرقوا في أوحال الخطايا إلى هذا المدى ! ! ذلك أن هذه الفرق الباطنية كانت تعتصم في جبل النصيرية

لتعيش في مجتمع مغلق عليهم، لا يعرف أحد شيئاً عن قيمة وأعرافه ..

كانت تأخذ بالتقية، فلا تكشف عقائدها ولا عاداتها لأحد، وتساير كل صاحب مذهب. .

غير أن الشيخ ابن تيمية اهتم بهم منذ رآهم يناصرون الأعداء، فدرس معتقداتهم من بعض حلفائهم من الأعراب .. وتقصى أحوالهم وعاداتهم ..

***

وأذن السلطان بقتالهم، وأرسل أمره إلى نائبه بدمشق، أن يقود حملة من العسكر إلى الباطنية ومعه الشيخ تقي الدين بن تيمية، ومن يتطوع للقتال .

وتحدث ابن تيمية في أمر القتال مع أحد زعماء الشيعة الإمامية، وهو نقيب الأشراف فوافق أن يخرج برجاله لقتالهم مع ابن تيمية، أداء للواجب الشرعي، وتطهيراً لسمعة شيعة آل البيت. خرجت حملة كثيفة على رأسها الشيخ تقي الدين بن تيمية،

ومعه نقيب الأشراف ومن بعدهم العسكر بقيادة نائب السلطان. .

وتقدم الجند فحاصروا الباطنية من جانب، وحاصرهم الشيخ ورجاله من جانب آخر. . وشعر الباطنية بوطأة الزاحفين عليهم، فلاذوا بالغابات، واختفوا عن العيون .

وأفتى الشيخ بقطع الأشجار، وهدم المنازل. .

قال الشيخ: ". .. إن النبي ﷺ لما حصر بني النضير قطع أصحابه نخيلهم وحرقوه. .. وقد اتفق العلماء على قطع الشجر وتخريب العامر عند الحاجة إليه. فليس ذلك بأولى من قتل النفوس .

إن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها، وما أيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار، وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم " .

وعاد ابن تيمية ونقيب الأشراف ونائب السلطان ورجالهم إلى دمشق، بعد أن هزموا الباطنية .

عاد الشيخ، إلى دمشق ليجد كتاباً من السلطان ينعي فيه ابن دقيق العيد إمام دار الحديث في مصر، ويسأله الرأي فيمن يخلفه، وفيمن يتولى مناصب القضاء .

واضطرم حقد حساده عليه، ولكن الشيخ لم يبال، وأجاب السلطان إلى مسألته .

***

عاد الشيخ منتصراً ليواجه الأعداء الآخرين .

كانت طائفة تنتسب إلى التصوف، وتدعى أنها من أتباع السيد أحمد الرفاعي، تزحم الطرقات، وتشغل العامة وتستولي على أموالهم بألعاب تبهرهم : كمداعبة الأفاعي السامة، والدخول في النار والخروج منها دون أن تمسهم النار. . !

وكانوا يقولون إنهم أصحاب طريقة في التصوف، ويضعون في رقابهم أطواق الحديد، تميزاً لهم عن الآخرين، ويسمون أنفسهم : الفقراء إلى الله تعالى.

وأعلن الشيخ تقي الدين أنه ينزه السيد أحمد الرفاعي، عن انتسابهم إليه. .

فالشيخ قد قرأ عن الرفاعي، وقرأ له، وهو يخالفه الرأي، ولكنه مهما يختلف مع آراء هذا السلف من الصوفية، يعرف ما لهم من فضل وإن كان لا يخفي ما عليهم من مآخذ. . !

أما هؤلاء الرفاعية من أتباع مذهب السيد أحمد الرفاعي، فالشيخ يراهم من أهل البدع الذين يجب أن يطهر منهم الأمة، ويبطل أحدوثتهم .

ومضى الشيخ يناقش شيوخ الرفاعية أمام العامة، ويتهم بالشعوذة، وبالخروج على سيرة شيخهم الرفاعي الزاهد الورع، الذي ينكر البدع ..

وطالب الناس أن ينفضوا من حولهم، وألا يشهدوا ما سماه أفانين شعوذتهم. .

وشكاه زعماء الرفاعية إلى نائب السلطان، وساندهم عدد من العلماء من خصوم الشيخ وحساده.

فطلبه نائب السلطان، وسأله ألا يشدد النكير على الرفاعية، وأن يدعهم في حالهم .

وكان نائب السلطان يعتقد في كراماتهم .. !

فقال له الشيخ: "بل أنا أسألك أن تأمرهم بالكف عما هم آخذون فيه من بدعة ومنكر ! و لابد لكل واحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه "

فأحصر نائب السلطان زعماء الرفاعية، وأخبرهم أن ابن تيمية لا يريد الكف عنهم، لأنه يرى في أفعالهم منكراً وبدعاً، تخرج عن الكتاب والسنة .

فاقترحوا على نائب السلطان، أن يعقد لهم مجلساً يحضره هو والعلماء وابن تيمية، ليرى الجميع ما يأتوه من كرامات، هي بركات شيخهم الرفاعي .

وعقد المجلس، ودعي إليه العلماء وابن تيمية. .

فقال ابن تيمية قبل أن يبدأ الرفاعية ألعابهم : "تلك أحوال شيطانية باطلة، وأكثر أحوالهم من باب الحيل والبهتان. ومن أراد منهم أن يدخل النار، فليدخل أولاً إلى الحمام، ويغسل جسده غسلاً جيداً

ويدلكه، ثم يدخل النار بعد أن يغتسل، فإن ذلك لا يدل على صلاحه ولا كرامته، بل حالة من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السنة : فما الظن بخلاف ذلك؟ "

فقال زعيم الرفاعية غاضباً : "نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتار، ولا تنفق عند الشرع" فالتقط الشيخ تقي الدين بن تيمية هذا القول، وسأل نائب السلطان والعلماء الحاضرين، عن رأيهم فيما قاله شيخ الرفاعية !

فأنكره الجميع واشتدوا في اللوم على الرفاعية وشيخهم .

وأصدر نائب السلطان أمره أن "يخلع الرفاعية أطواق الحديد من أعناقهم، وأن من عاد منهم إلى البدعة، وخرج عن الكتاب والسنة، ضربت عنقه ."

***

أما الشيخ فقد بقي عند نائب السلطان، وسأله أن يأمر بإبطال بدعة منكرة أخرى : فقد علم أن في أحد الجبال صخرة بارزة يتبرك بها العامة، ويسألونها

قضاء الحاجة، ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبــة، وكـل طـواف إلا الطـواف بالكعبـة بدعـة، كالطواف حول الصخرة بالمسجد الأقصى !

وأصدر نائب السلطان أمره، بإبطال الطواف حول الصخرة التي ذكرها الشيخ. .

ولكن الناس ظلوا على حالهم ! .

فطلب الشيخ من نائب السلطان أن يأذن له في الخروج لقطع الصخرة، فأذن له .

وخـــرج برجالـــه ومعـــه بعـــض الحجـــارين بمعاولهم، فقطعوا الصخرة. . وعادوا .

وفي طريق العودة سأله أحد أصحابه : "ما بالك اليوم تحملنا على ألا نغير منكراً إلا بإذن السلطان أو نائبه؟. . أما كانت جماعتنا منذ عشرين عاماً ترهب أهل الفساد؟ أما كنا نمضي دون إذن من أحد فنكسر الحانـات، ونريـق الخمـور، ونكبس البيوت المتخذة للفـــواحش، ونضـــرب الفســـاق، ونحلـــق شـــعور المتشبهين من الرجال بالنساء وغيرهم من الغلمان، ونرجم من يفعل فعل قوم لوط؟! أما كنا نغير المنكر

بأيدينا، فما بالك اليوم تكف أيدينا حتى يأذن لنا السلطان أو نائبه؟! "

قال الشيخ : "سأجيبك في الحلقة، لتعم الفائدة إن شاء الله "

وعندما اكتملت له حلقته في الجامع الأموي، قال: "كنا نقاوم المنكر بأيدينا منذ نحو عشرين عاماً دونماً إذن من ولي الأمر، ولكن عندما فتح الله علينا وزادنا علماً بفضله، تبين لنا أن ما كنا نقوم به ليس هو الشرع. فاعلموا منذ اليوم أن إقامة الحدود، وتعزير الخاطئين من ضرب وسجن وجلد خفيف ونحوه، وإتلاف المال الحرام. .. كل ذلك من عمل ولي الأمر، فهو المسئول وحده عن إنزال العقاب، وليس لأحد الأمة أن يقوم عنه بهذا إلا إذا أذن له ولي الأمر. .

ولي الأمر هو الذي يحق له عقاب أهل الجنايات وقهر الناس على التزام الجادة واتباع حكم الشريعة .

أما ما كنا نقوم به منذ عشرين عاماً فهو غلط سببه نقص العلم .

وقد أوقعتنا فيه الغيرة على السنة، وحمية الشباب وشرته، والجهل بما للراعي على الرعية من حقوق. فعفا الله عما سلف. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. "

وسكت الشيخ، وسأل مستمعيه أن يحاوروه، وكانت هذه عادته .

فقال أحد تلاميذ الشيخ : "علمتنا يا شيخنا أن الرسول ﷺ قال: (من رأى منك منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان). . فهل ترضى لنا أضعف الإيمان؟. . أيكتفي الواحد منا بأن يهتدي، ولا يبالي بضلال سواه؟ "

وقال رجل آخر من رواد الحلقة : "سمعنا منك أنه جاء في الأثر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صعد منبر رسول الله ﷺ وقال : "أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها في غير

موضـعها)علـيكم أنفسـكم لا يضـركم مـن ضـل إذا اهتـديتم﴾ وإنــي سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول : (إن النـاس إذا رأوا المنكر فلم يغيـروه، أوشـك أن يعمهم الله بعقاب منه). فيكف تأمر يا شيخنا ألا نغير المنكر بأيدينا؟ "

وقال ثالث : "أنت الذي علمنا الحديث الشـريف: (إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صـاحبها، ولكن إذا ظهرت فلم تنكر أضرت العامة) فكيف تطلب منـا أن نترك أهل الفسـاد يجهرون بالمعاصـي ويضـرون العامـة، ونحـن ننظـر، ولا نتحـرك لتغيير المعاصـي بأيدينا؟! "

قال الشيخ : "لعن الله تعالى بنـي إسرائيل لأنهم كـانوا لا يتنـاهون عن منكـر فعلوه. . بـل أنـا أخـرج معكم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "

غير أن هذا يجب ألا يتجاوز مـا أمرنـا الشـرع بـه. وإلا تجاوزنـا حدود الله. ذلك أن ولاية أمر النـاس من أعظـم واجبـات الـدين ولا يتم الـدين إلا بـهـا. فـإن بنــي آدم لا تــتم مصـلحتهم إلا بالاجتمــاع، لحاجــة

بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من الحاجة إلى رأس. حتى قال رسول الله ﷺ: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم) وطاعة هذا الأمير واجبة شرعاً. وقد روى الإمام أحمد في مسنده : (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم).

فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيهاً بذلك إلى سائر أنواع الاجتماع.

وأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل، وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة. ولهذا روى (أن السلطان ظل الله في الأرض). ويُقال : "ستون سنة من إمام جائز أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان. ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض، وأحمد بن حنبل، وغيرهما، يقولون : (لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها

للسلطان). .. وهو يعني السلطان براً كان أو فاجراً. على أن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار .

فمن كان عاجزاً عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد، لأنه ليس من أولي الأمر، فليفعل ما يقدر عليه من النصيحة والخير، وهو لا يكلف بما يعجز عنه .

وعلى المسلمين النصح لولي الأمر. قال عليه الصلاة والسلام : (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)

على أن ولاة الأمور يجب أن يكونوا أذلة للمؤمنين، وإلا كانوا كفرعون وهامان، وقد جاء في الحديث: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان. فقال رجل: يا رسول الله : إني أحب أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسناً. أفمن الكبر ذلك؟) قال:لا. إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق، وغمط الناس). . صدق رسول الله.

فبطر الحق جحده ودفعه، وغمط الناس احتقارهم وازدراؤهم، وهذه حال من يريد العلو والفساد كفرعون وهامان "

فقال أحد أصحابه: "ولكن السلف من الحنابلة كانوا يغيرون المنكر بأيديهم وتنطلق جماعتهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفعل كما كنا نفعل بأهل المنكر، أليس اتباع سنتهم وهم السلف الصالح أولى بنا؟"

قال الشيخ: "هؤلاء شانوا الحنابلة شيناً لا يغسله ماء البحار، كما قال أحد الصالحين من شيوخنا. فقد اشتدوا على الناس باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصاروا يكبسون الدور، فإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومشى الرجال مع النساء والصبيان، فإن رأوا ذلك سألوه عن التي معه من هي فأخبرهم وإلا ضربوه، وحملوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة، فأزعجوا بغداد، وكره الناس المذهب الحنبلي، وسموا أتباعه

الأراذل، وفـيهم أروع الخلـق وأتقـاهم و أسـمحهم، واتهموه بالضيق والغلو، وهو أكثر المذاهب تيسيراً على الناس. وقد أفتى أحد شيوخ المذهب، أن واجب ولـي الأمر هو الضرب على أيدي هذه الجماعات من الحنابلـة، وإلزامهم طاعة ولـي الأمر، وحبسـهم وجلدهم عقاباً لهم على ما ارتكبوه من جنايات .

لقد كان صاحب المذهب الإمام أحمد أشد النـاس في الحفاظ على السنة، ولكن لم يؤذ أحداً قط بقول أو فعل. وقد وقعت على خبر عنه يصلح لكم عبرة : كـان لـه صديق فقيه، ينفس عليه أتباع أحمد إيثـاره عليهم. وأرق الإمـام أحمد ذات ليلـة وهـو يفكر فـي مسألة فقهية دقيقة، فقام إلـى صـاحبه ليحدثـه فـي هذه المسألة، فوجد صاحبه بين إماء لـه يُغنين ويرقصن. فخجل الإمام أحمد، وعاد. وفي الصباح روى لبعض أتباعه ما كان، فقالوا له : (صديقك هذا يلهو بالغنـاء ويشرب النبيذ). فقال لهم الإمـام أحمد: (شرب أم لم يشرب فهو أفقهكم).

كان الإمام أحمد رضي الله عنه ينهى أتباعه عن إزعاج أحد، ويلزمهم حدود النصيحة لولي الأمر، دون أن ينازعوه سلطانه في توقيع العقوبات على أهل المنكر وأصحاب الجنايات "

فسأله شاب متحمس "فإذا قصر ولي الأمر في محاربه البدع والفساد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألسنا مأمورين بأن ننهض عنه بهذا؟ "

قال: "من ذا الذي يأمركم بهذا يا بني؟!. . إن قصر الحاكم أو خرج عن حدود العدالة وواجبات ولي الأمر، أصبح حكمه ملكاً دنيوياً لا خلافة نبوية، فهو بإجماع جمهور الفقهاء ملك على المسلمين وطاعته واجبة.

إن الصبر على طاعة الجائر أولى من الخروج عليه، لما في الثورة عليه من فتنة ينتج عنها قتل الأبرياء. كلا الأمرين مكروه، ولكن أقوى المكروهين – أي الفتنة والقتل – أولى بالترك .

ومثل هذا الحاكم يطاع في العدل، ولا يطاع إذا أمر بمعصية، فلا طاعة في معصية قال ﷺ : (على

المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة). وقال: (من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية، ولا ينزعن يداً عن طاعته) وعلينا له النصيحة، ومواجهته بكلمة الحق. قال ﷺ: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)

أنا أحدثكم عن ولي الأمر الذي يتولى منصب الإمامة الكبرى كالخلفاء والملوك والسلاطين. أما أولو الأمر في المناصب التي تلي الإمامة الكبرى، فتغييرهم ممكن من غير فتنة، ولذلك يجب المطالبة بتغييرهم إذا جاروا "

وعندما انتهى درس الشيخ، خرج تلاميذه ورواد حلقته، يتعاهدون فيما بينهم على ألا يزعجوا أحداً بعد باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا ينازعوا ولي الأمر سلطاته في عقاب أهل المنكر والفساد وأصحاب البدع والجنايات .

ولكنه عجبوا لما قاله الشيخ في الصبر على جور الحاكم الظالم حذر الفتنة ! ! ..

أحق هذا؟! !

وسمعهم أحد العلماء من مخالفي الشيخ فقال : "أخطأ شيخكم. . إنه ما دعاكم إلى الإذعان للجور، إلا لأنه محب للسلطان محمد بن قلاوون، ويريد أن يحميه من غضب الرعية " .

قال أحد أتباع الشيخ : "فلتقل رأيك هذا في مواجهة شيخنا، فنتبين أيكم على حق " .

قال العالم : "ما أحب أن أناظره، فقد يتهمني بالجهل، وأنا أسن منه بعشرين عاماً .. ولكن راجعوا قول الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان "

فانصرفوا عنه قائلين :

نحن ما نتبع إلا أقوال الإمام أحمد وشيخنا تقي الدين بن تيمية .

***

قالت ست النعم:"ألا تترك الفقه قليلاً، وتتفرغ لتفسير القرآن يا تقي الدين؟ فهذا ثوابه عظيم يا بني "

قال تقي الدين: "كنت نهيتني عن التفسير يا أم"

قالـت: " كـان هـذا وأنـت شـاب، أمـا الآن فأنـت تقتـرب مـن الخامسـة والأربعـين ومـن النـاس مـن يدعوك شيخ الإسلام "

قال: "لا أستحق هذا اللقب بعد. أنـا أدرس وأعد نفسي للتفسير، ولن أشرع فيه حتى يفتح الله علي بما أضيفه إلى ما قاله الأولون" .

سـمع البـاب يطـرق، ففتحـه، فوجـد أمامـه أميـر العرب حسـام بـن مهنـا زائـغ النظـرات، تحـت جفنـين نصف مطبقين .

ورحـب بـه وسـأله: "مـا بـال أمير العرب شـارد البال؟ أي أمور الدنيا أو الدين يشغلك؟"

قال الأمير: "لا شيء .. غيـر أنـي أكثرت اليوم من تعـاطي الحشيشـة. اعذرني إذا طرقت بابـك فـي هذه الساعة من الليل " .

قال الشيخ : "مرحبا بك في أي وقت. . ولكن يا أميـر العـرب، ألا تعـرف أن الحشيشـة محرمـة كالخمر؟! "

قال الأمير : "ما قلت لنا هذا من قبل، وما اطلعت في الكتاب أو السنة أو إجماع الصحابة على نص أو أثر يحرم الحشيشة ".

قال الشيخ : "ما عرفوا الحشيشة والمخدرات في زمانهم بهيئتنا التي نعرفها اليوم في هذا الزمن الفاسد. ولكنها تفعل في العقل فعل الخمر فهي حرام "

قال الأمير: "سألت عنها بعض العلماء من أصدقائنا، فأفتوا أنه لم يرد بتحريمها. وأنا أتعاطى الحشيشة مع بعض فضلاء علماء دمشق. ومنهم من لا يحسن الكتابة أو الخطابة، إلا إذا تعاطاها، ومن قراء القرآن، من لا يحسن صوته، وينسجم أداؤه، إلا بالحشيشة "

قال الشيخ : "إن الحشيشة المصنوعة من ورق القنب وما شابهها من المخدرات، مسكرة وقد قال الرسول ﷺ : (كل مسكر حرام). ولم يحدد شكل المسكر ولا هيئته : فالسائل فيه كالجامد .

والحشيشة أخبث من الخمر. من جهة أنها تفسد العقل والمزاج، حتى يصير في الرجل تخنث ودياثة، فلا يغار على أهله، وغير ذلك من الفساد. والخمر أخبث من جهة أنها تقضي إلى المخاصمة والمقاتلة. وكلاهما يبعد عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة. فالحشيشة نجسة، وهي داخلة فيما حرم الله ﷺلفظاً ومعنى بغير قياس. قال: (إن من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن الزبيب خمراً، ومن التمر خمراً، ومن العسل خمراً، وأنا أنهى عن كل مسكر.) وقال : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام). وما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام (والفَرَق بفتح الفاء والراء مكيال يسع ستة عشر رطلاً).. أليست الحشيشة تخامر العقل وتغيبه؟ فهي مسكرة. وكل مسكر حدث بعد الرسول فهو داخل في الكلم الجوامع من الكتاب والسنة، فهو حرام بالنص دون حاجة إلى قياس. وكل ما قاله العلماء غير ذلك في الحشيشة أو أنواع المسكرات فهو غلط أو جهل "

وكبر أمير العرب، وأعلن توبته، وأقسم أن يقوم إلى العالم الذي كان يتعاطي معه الحشيش الساعة، فينهاه وجلساءه عن هذا المنكر ! !

***

ذات مساء ذهب الشيخ إلى نائب السلطان، فوجد لديه جماعة من شيوخ الصوفية، وعدداً من علماء المذاهب المختلفة. .

كان لكبار الصوفية قدر خاص عند نائب السلطان وغيره من أولي الأمر. كانوا يسترضونهم، ويسمرون بما لهؤلاء الصوفية من كرامات، ويتلمسون منهم البركات .

وتكلم الشيخ مع نائب السلطان في أمر بعض الأمراء، الذين ظلموا الرعية، حتى جعلوها تتمنى من يخلصها منهم، ولو كان عدواً مغيراً. .

ذكره بما حدث أيام غزوة التتار، واقتحام الناس قصور الأمراء، والخزائن السلطانية. . ثم استطرق الشيخ إلى أساس اختيار هؤلاء الولاة، "لأنهم ليسوا أصلح من يلي الأمر، بل هي المجاملة والمحاباة. . !

وقد جاء في الحديث الصحيح: (من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولىّ رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين). وقال عمر بن الخطاب: (من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمسلمين). وأنتم تولون علينا من أمراء المماليك أهل المودة وذوي القربى، أو من يطلب الولاية، أو من يسبق بطلبها. وقد دخل قوم على رسول الله عليه الصلاة والسلام يسألونه الولاية فقال : (إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه)

وقد دلت السنة على أن الولاية أمانة. وفي الحديث الشريف (إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة. إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها). وقال عليه الصلاة والسلام: (إذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة) قيل: (يا رسول الله، وما أضاعتها) قال : (إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)

ولم يعرف نائب السلطان بما يجيب الشيخ ..

وقال أحد شيوخ الصوفية : "الشيخ تقي الدين بن تيمية يمسي ويصبح مشغولاً بأمور الدنيا والسياسة أكثر من انشغاله بالشريعة "

قال الشيخ : " وما مقصد الشريعة إلا إصلاح الناس، وعمارة الأرض، وحسن سياسة الرعية؟ "

قال الصوفي: "هلا انشغلت بالحقيقة؟!"

قال الشيخ : "السنة أن الحقيقة هي الشريعة، ولا حقيقة خارج الشرع"

قال أحد العلماء : "ما شأن نائب السلطان بما يقول يا شيخ تقي الدين؟ هلا كتبت به إلى سلطان الناصر محمد بن قلاوون. إنه يسألك الرأي فيمن يعينهم على دار الحديث والقضاء والخطابة والتدريس والوعظ وسائر المناصب. وينزل عند رأيك، حتى فيمن هم على غير مذهبك، ولست أفضل ولا أحيد من يحكم عليهم، فإن لك خصومات. ثم إنك حنبلي فكيف تعدل في حكمك على المالكية والحنفية والشافعية والإمامية؟"

كانت الكلمات تشي في توترها برنة الضيق، ولفحات الحسد على الشيخ تقي الدين !

ولم يرد الشيخ. . .

قال عالم آخر : "ليتك تترك السياسة لتهتم بالعلم وحده ! "

فرد ابن تيمية ساخراً : "لعلكما لا تعرفان الحديث الشريف : (من لم يهتم بشئون المسلمين فليس منهم) فاعرفاه وافقهاه يرحمكما الله "

قال نائب السلطان :"ليتك تذهب يا شيخنا إلى القاهرة فتحدث السلطان الناصر بما كلمتني فيه. فأنت شيخ للإسلام ! "

انصرف الشيخ، وقد أسقط من حسابه كلمات العاملين التي فضحت ما في أغوار النفس !

ولكنه شغل بكلام الصوفي. .

ما هي هذه الحقيقة التي يتحدث عنها؟! لماذا يفصل الصوفية بين الشريعة والحقيقة !؟

لم يعتبرون أنفسهم أهل الحقيقة !؟

وبم كانوا أقرب إلى الله تعالى من أصحاب الشريعة من العلماء والفقهاء كما يزعم بعض أقطابهم. .؟!

وبم كانوا أقرب إلى الله تعالى من أصحاب الشريعة من العلماء والفقهاء كما يزعم بعض أقطابهم. .؟!

***

لزم الشيخ مكتبته ليلته تلك، يعيد دراسة الصوفية وأفكارهم. .

ما انفك في كل ليلة يبحث، وينقب عن كل آثار الصوفية، ويتدبر في معتقداتهم وسيرتهم. .

ثم خرج، فصارح بعض أصحابه من الحنابلة، بأنه قد اقتنع بأن المذاهب الصوفية السائدة تخالف السنة !

إنها لبدعة يجب إنكارها، وإبطال أحدوثتها !

ولكن أصحابه نصحوه ألا يبدأ معركته مع الصوفية، قبل أن يهيئ لها أذهان العامة وأولي

الأمر. الناس يكبرون في شيوخ الصوفية زهدهم، وورعهم، ويتحدثون عن كراماتهم. .

إن لهؤلاء الصوفية لشأناً عظيماً عند العامة والخاصة على السواء. . ستكون الحملة عليهم صدمة للجميع بلا استثناء. .. حتى لبعض تلاميذ الشيخ وأتباعه المخلصين .. !

وأشار عليه شيوخ الحنابلة – وكانوا أكبر منه سناً وأوفر تجربة – أن يكتب ما يخالف فيه كبار الصوفية ويمحصه، ليتدارسوه معاً قبل أن يباغت الناس بالهجوم على زهاد الصالحين، لهم كل تلك المكانة في القلوب. . إن ما ينكره الشيخ من أمر الصوفية لم يجيء الوقت لإعلانه بعد، ومن حسن الفطن أن يعلن رأيه في الوقت الملائم، وحسبه ما كان منه مع الرفاعية الصوفية !

***

الوقت الآن ملائم لمواجهة ما يعلنه مخالفوه من تأويل لصفات الله والأسماء الحسنى .. !

مـن جديـد لينكـرون أن الله ينـزل إلـى السـماء الدنيا، على الرغم من أن نزوله منصوص عليـه فـي الحديث الصحيح .

وقـف ابـن تيميـة يخطـب النـاس فـي صـلاة الجمعـة، فحـدثهم عـن صـفات الله تعـالى والأسـماء الحسـنى .. فـأنكر تأويـل مـا ورد فيهـا مـن آيـات وأحاديـث، وقـال للنـاس إن الله تعـالى كمـا وصـف نفسـه، وكمـا وصـفه رسـوله. ولكـن بكيفيـة خاصـة لا يعلمها إلا الله تعالى وحده. وعلينـا أن نتبـع الصـحابة في فهمهم للصفات والأسماء الحسنى، ولـيس لنـا أن نؤول، أو نفهم غير ما جاء في ظاهر النصوص .

ثم قال : "إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولـي هذا "

ونزل درجة من درجات المنبر .

وصـف ابن الأثير ما وقـع بعد ذلـك : "فعارضـه فقيه مالكي، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلـى هذا الفقيـه، فضـربوه بالأيـدي والنعـال ضـرباً كثيـراً حتـى سـقطت عمامتـه، وظهـر علـى رأسـه شاشـية حريـر،

فـأنكروا عليـه لباسـها (لأن لـبس الحريـر حـرام علـى الرجـال فـي رأي الإمـام أحمـد بـن حنبـل) واحتملـوا الفقيه المالكي إلـى دار قاضـي الحنابلـة، فـأمر بسـجنه وعزره بعد ذلك (أمر بجلده)، فـأنكر فقهـاء المالكيـة والشـافعية مـا كـان مـن تعزيـزه، ورفعـوا الأمـر إلـى نائــب السـلطان، فكتــب بــذلك إلــى الملــك الناصــر بمصر"

وفي انتظـار رد السلطان، خـرج نائـب السلطان في رحلة صيد وغاب أياماً عن دمشق .

وحدث أن قل المطر، فخرج الناس إلى المساجد لصــلاة الاستسـقاء. وبعـد الصــلاة قـرأ أحـد شـيوخ الحنابلـة مـن كتـاب للبخـاري يستسـقي بـه فغضـب بعـض الحاضـرين مـن الفقهـاء لأنهـم حسـبوا الشـيخ الحنبلي قد اختـار هذا الكتـاب للبخـاري، تأييداً لـرأي الحنابلـة فـي مسـألة الصـفات ونحوهـا، وتعريضـاً بــآرائهم. . فشــكوا الشــيخ الحنبلــي إلــى القاضــي الشافعي، فأمر بسجن الشيخ الحنبلـي. ولمـا علـم ابـن تيميـة بمـا جـرى لزميلـه الحنبلـي، ذهـب إلـى السـجن

فأخرج السجين. فحلف القاضي الشافعي أن يعيده إلى السجن، وإلا عزل نفسه. فما كان الأمير الذي يقوم بعمل نائب السلطان إلا أن استدعى الشيخ الحنبلي إلى قصره وحبسه فيه تطييباً لقلب القاضي الشافعي. ولما قدم نائب السلطان ذكر له الشيخ ابن تيمية ما جرى في حقه وحق أصحابه الحنابلة في غيبته، فتألم النائب لذلك ونادى في البلد ألا يتكلم أحد في العقائد، ومن عاد إلى تلك حل ماله ودمه. فسكنت الأمور بعد أن وقع في دمشق خلط وتهويش "

ثم جاء رد السلطان الناصر على رسالة نائبه يحمل أمراً بامتحان ابن تيمية في عقيدته، وسيثبت للمنكرين عليه أنه على الحق !

وعقدت المحاكمة من علماء المالكية والحنفية والشافعية، واتهموا الشيخ بأن يشبه الله تعالى بالبشر ويجسمه. فأنكر عليهم هذا، وقال إنه إنما أراد أن يقرب المعنى للعامة، أما رأيه في الصفات والأسماء الحسنى، فهي كما وصف الله تعالىنفسه في القرآن،

وكما وصفه رسوله، بكيفية لا يعرفها إلا الله تعالى. وهذا هو رأي الأشعري الذي يدين به محاكموه. . !

وانتهت المحاكمة بقبول عقيدة الشيخ والثناء عليه، وأعلنوا هذا على الناس .

وخرج الشيخ من المحاكمة، ليجد أنصاره وأتباعه العديدين. فهتفوا له وساروا أمامه بالشموع والمصابيح والمشاعل، وأخذوا يغمزون العلماء الذين خالفوه، ويقولون إن الشيخ أفحمهم، فعجزوا عن مناظرته ..

واشتعل التعصب من جديد بين أتباع المذاهب، فشكا العلماء إلى القاضي الحنفي والقاضي المالكي بعض أتباع ابن تيمية، فحكموا بتعزيرهم !

وغضب ابن تيمية وشكا إلى نائب السلطان ما يحدث لأصحابه، فأطلق سراحهم. . وأصدر أمره من جديد ألا يتحدث أحد في العقائد وإلا أهدر دمه وماله. .

ولم يهدأ خصوم الشيخ، بل نشطوا للإيقاع به ..

أرسـلوا إلـى السـلطان يشـكون ابـن تيميـة، ويتهمونـه بـالكفر وبأنـه يحـرض العامـة علـى أولـي الأمر، ويتصرف غير مبال بنائب السلطان، وكأنـه هو السلطان نفسه!!

وأرسـلوا بـذلك إلـى الأميـرين سـلار وبيبـرس الجاشنكير، وهما أقوى الأمراء، وأشـدهم نفـوذاً علـى السلطان في القاهرة .

كتبـا للأميـرين أن ابـن تيميـة يتهمهمـا بـالبطش والظلـم، وبـأن هنـاك مـن هـو أحـق منهمـا بـالأمر، ويفتي بوجوب عزلهما ليتولى من هو أصلح، لأنهما إنما توليا محاباة من السلطان لهمـا. . وكـان أحدهما نائباً للسلطنة بالقاهرة، والثاني رئيس ديوانه. .

وبعد أيـام. . أرسـل السـلطان مرسـوماً يسـتدعي فيه ابن تيمية لمحاكمته في القاهرة ! !

وشـعر نائـب السلطان فـي دمشق بـالخطر علـى ابن تيمية، فطلب منه ألا يبرح دمشق، وسيرسـل هو إلـى السـلطان مستشـفعاً .. إنـه ليخشـى عليـه مكائـد

سلار نائب السلطنة، وبيبرس الجاشنكير رئيس ديوان السلطان. . !

ولكن ابن تيمية صمم على السفر، فما من شيء يخشاه هناك !

ولكنه يعجب لتغير قلب السلطان عليه، وسماعه الوشاية به ! !

ومهما يكن من أمر فلابد للشيخ من أن يواجه الخطر. . وقد تعود اقتحام المخاطر والمكاره !. .

سافر الشيخ إلى القاهرة، يودعه إشفاق أخويه، ودموع أمه، وأنصاره العديدين، والدعاء له بالسلامة والنجاة من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين. . !

الفصل السادس

ماذا دهى القاهرة؟!

لكأنها مدينة مهجورة .. ! ..

أيـــن الزحـــام المـــرح، ونـــداءات الباعـــة، والضحكات المجلجلة؟

أيـن طـلاب العلـم، والنسـاء والأطفـال؟! .. أيـن تسابق الناس لمساعدة الغريب القادم؟!

أين كل مـا أحبَّـه فـي القـاهرة، حين جاءها، منذ خمسة أعوام. .؟! كل الحوانيت مغلقة، ولا أحد في الطرقات على الإطلاق !

ومضـى الشـيخ ليلقـى السـلطان الناصـر، فـي قصره بقلعة الجبل، خلال سكون لا يسمع إلا وقـع حوافر جواده على أرض الطريق .. !

وبلـغ السـاحة الفسـيحة أمـام قصـر السـلطان، فأدرك كل شيء. .

هـا هـي ذي القـاهرة، كـل رجالهـا ونسـائها وأطفالها .. ! احتشد الناس في الساحة، وعلى أسطح

المنــازل، وغيــر بعيــد مــنهم، فرســان المماليــك يحاصرون قصر السلطان .. !

سواعد الرجال تهز الصمت، والنداءات تدوي : "الله ينصرك يا ناصر .. يا ناصر يا منصور .. الله يخون الخائن ". . سأل الشيخ عما يحدث، وانهالت الإجابات عليه من عامة الشعب ومن طلاب العلم، وشباب العلماء .

الأمــراء المماليــك يحاصــرون الســلطان فــي قصره .. الله ينصر الناصر.

استضعفوا المسكين بعد أن ماتت أمه، وكلهم عبيد أبيه !

ضيقوا على السلطان في المال، وتحملهم .. سلبوه سلطته وصبر، وهم الآن يريدون قتلــه أو بالقليل خلعه !

السلطان يحمينا من ظلمهم، ولكنهم يريدون واحداً منهم لينهبونا ويظلمونا كما شاءوا .

لعن الله الجلابين الذين جاءوا بهم، والنخاسين الذين باعوهم لوالد السلطان .

تصور يا مولانا الشيخ أنهم يحرمون السلطان من الأكل الذي يحبه؟!

ولما سافر إلى الإسكندرية، وأراد أن يشتري هدية يدخل بها على أهله، ويفرح بها عياله، لم يجد مالاً، فبكى وشكا، فمنحه أحد الكرام ألفي دينار! !

كل هذا من أفعال بيبرس الجاشنكير الذي يتولى أمور ديوان السلطان. . يحرم صاحب المال من ماله، لينفقه على ملذاته، وعلى المنافقين من الشعراء، والمداهنين من العلماء !

رحم الله الشيخ ابن دقيق العيد شيخ علماء الحديث في مصر. كان هؤلاء المماليك يرهبونه. . فلو أنه كان حياً اليوم لما جرؤ هذا الجاشنكير أن يصنع هذا بالسلطان .

السلطان هو الذي صنع هذا بنفسه. ما الجاشنكير؟ انه الرجل الذي يذوق طعام السلطان قبل أن يقدم إليه؟. . أيجعله السلطان وزيره الأول؟. . كل ما عنده هو براعة النفاق، وحذق المصانعة،

وطالما حذروا السلطان منه، ولكنه بدهائه وسعة حيلته، ركب السلطان!!

والداهية الآخر سلار. أيجعله السلطان نائباً للسلطنة؟!. .

العوض على الله في السلطان، استولى عليه المنافقون والمزيفون، وها هم يدبرون لقتله ليتولى أحدهم مكانه. .

لم يظهر بيبرس ولا سلار، ولكنهما ينتظران النتيجة، فإذا قتل السلطان، تولى أحدهما، ولدينا علماء مجهزون للبيعة !

وإذا نجا، وهزمنا نحن الجمع من فرسان المماليك، جاءاه يعتذران!

هذا الأمير سلار حكايته غريبة. فهو يحمي اللصوص والفتاك والشطار والحرافيش والقوادين، والشذاذ ويكون منهم عصابة مسلحة يستقوي بها على السلطان .

إنه يملك عدداً من البيوت والحانات، يؤجرها للفحشاء، ويسميها بيوت كراء، وهي في الحقيقة

دور بغـاء. . وهـو لا يكتفـي بمـا يحصـل عليـه مـن أجرة، بل يأخذ النصف مما تربحه هذه البيوت !. .

لمـا علـم السلطان الناصـر بهذا خلعـه، وسـجنه وأغلـق بيـوت الفسـاد. فاحتشـدت عصـابة سـلار مـن رجـال وأنصـاف رجـال، وقـوادين، ونسـاء. . حتـى البغايا جئن فـي زينـتهن، ووقفوا جميعـاً أمـام القصـر السـلطاني يسـبون السـلطان، ويفحشـون، وتكـاثروا بأسـلحتهم علـى الحـرس السـلطاني، فـأمر بـإطلاق سـراح سـلار، وأعـاده إلـى منصـبه، نائبـاً للسـلطان، ونشطت تجارته من جديد .. !

كل بيوت الفساد والحانات في القاهرة تدخل فـي تجارة سلار، ويعيده السلطان نائبا له !. .

لقد اشـترى هـو وبيبـرس ذمـة مماليـك السـلطان جميعاً حتى الحرس السلطاني. . !

شدوا يا رجال على هؤلاء المماليك، فلن يحكمنا القـوادون واللصـوص والفتـاك والبغايـا والشـذاذ بعـد اليوم .

شــدوا علــى فرســان المماليــك، فســيقتلون السلطان !

لن يقتلوا السلطان ونحن أحياء .. !

****

واهتـزت العصـي وقضـبان الحديـد فـي أيـدي الرجـال، وانطلقت مـن المقـاليع التـي يحملهـا النسـاء والصـغار، قطـع صـغيرة حـادة مدببـة مـن الحجـارة، وتناثرت الصخور على فرسان المماليك. . !

وشـهر الفرسـان سـيوفهم، وحـاولوا أن يقتحمـوا زحام الشعب بخيلهم، ولكن قطع الحجارة والصخور المدببـة صـدتهم، وشـجت رؤوس بعضـهم، فسـقطوا من فوق صهوات الجياد .

وتحركــت غابــة كثيفــة مــن قضــبان الحديــد والعصي الغليظة، تطوق فرسان المماليك. .

وفجـأة قدم أمير مملـوكي رفيـع المقـام، فأصـدر أمره إلى الفرسان أن يغمدوا السيوف، وأن يتراجعوا عــن النــاس، وأن يصــطفوا بــلا حــراك ! وامتثــل الفرسان لأمره .

ثـم تقـدم إلــى النــاس وأمــرهم أن يعــودوا إلــى دورهــم وأعمـــالهم، وأن يفتحــوا حــوانيتهم، وأمــر طــلاب العلــم أن يعــودوا إلــى معاهــدهم، وحلقــات شيوخهم. .

فلم يحفل به أحد من النـاس، وارتفعت أصـوات سـاخرة: "نحـن أهـل البلـد، ولسـنا مماليـك مجلـوبين نسمع لأوامرك "

فاصـــطنع الهـــدوء، ونصـــحهم أن يفتحـــوا الحوانيـت، ويعـود النسـاء والصـبية إلـى الـدور، وإلا نهبها اللصوص. .

تزاحمــت الأصــوات: "لا نعــرف لصوصــاً غيركم. . تخونون السلطان سيدكم وابن سيدكم؟! .. الله يخــون الخــائن. . نحــن مــا نعــود حتــى يعــود الفرسان، ونعرف أن السلطان في أمان : يا ناصر يا منصور .. الله يخون الخائن "

وأفسح الأمير الساحة من فرسان المماليك، فقد أدرك أنه إذا التقى الجمعـان، فستحدث مقتلـة عظيمـة في الفرسان والناس على السواء. .

ولم ينصرف الناس، حتى خرج إليهم السلطان، فهللوا وكبروا، وحياهم وشكرهم، ثم عاد إلى قصره. .

***

دخل الشيخ على السلطان، فوجده مهموماً، مستغرقاً في التفكير .

واستقبله السلطان بابتسامة لم تفلح في تبديد الكآبة التي تغشى وجهه. . بدت فرحته بمقدم صديقه الشيخ، شاحبة على الوجه المنكسر الشارد. . !

وقبل أن يتكلم الشيخ، أخذه السلطان من يده وخرج به إلى حديقة القصر. .

إنه يريد أن يبثه همه، ولكن القصر مليء بعيون بيبرس الجاشنكير، وسلار. . إنهم يسترقون السمع في كل مكان من القصر: خلف الستائر والأعمدة، حتى الجواري لا أمان لهن !. .

لم يعد بعد يستطيع أن يقول ما يريد، حتى في مخدعه. . !

إنه لكي ينجو بنفسه، يجب أن يصانع أعداءه، ثم يتخلى عن الملك في صمت. . هو إما أن ينزل عن عرشه ثمناً لحياته، أو يفقد حياته. . وإنه ليختار الحياة. .

سينتظر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. . !

ونصحه ابن تيمية بالصبر والمصابرة، وسينصره الله كما نصره في مواطن صعبة من قبل. . فمن آيات رضا الله عنه، أن الرعية كلها تذود عنه، وفيها طلاب العلم والعلماء ..

فشكا السلطان من العلماء. . ما عاد فيهم رجال مثل ابن دقيق العيد رحمه الله !

وكثير منهم يتهمون السلطان بحماية الكفرة وأهل الضلال، لأنه يحمي ابن تيمية، ولا يجيبهم في الأمر بقتله !. . ذلك بأنه في صفات الله والأسماء الحسنى، يخالف رأيهم، وبأنه حمل على الأحمدية وهم من خيرة الصوفية، وبأنه هاجم بعض آراء محي الدين بن عربى!! وزادوا على هذا اتهاماً بأنه

يحـرض العامـة فـي دمشـق علـى أولـي الأمـر، ويثيـر الفتنـة. . وهذا كله حده القتل. .

وإذن فلم يتغير قلب السلطان ولكنه مغلوب على أمره. . !

وما برح الشيخ يواسي السلطان، ويـذكره بآيـات الصبر، وما ورد في فضله من أحاديث شريفة، حتى هدأ. .

استـراح السلـطان إلـى ظـل شـجرة باسـقة ودعـا الشـيخ لـيجلس إلـى جـواره، وأمامهـا حـوض مـن المرمر، تنبثق منه نافورة يتطاير رذاذ مائها. .

وهبــت نســمات نديــة، معطــرة بــأرج حديقــة القصـر، فخفـت عنهمـا وطـأة الحـر فـي ذلـك اليـوم اللافح من رمضان. وشاعت في أعماق الشيخ سكينة مطمئنة، وأطرق قليلاً، ثم هتف: "وبشر الصابرين "

وأقبـل الأميـر سـلار نائـب السـلطان، والأميـر بيبرس الجاشنكير على فرسيهما. .

فوجئ السلطان بهما أمامه. .

قال السلطان : "كيف عرفتما بمكاني؟"

قال بيبرس : "نحن لا نخطئ مكانك أبداً. حيثما كنت نلحق بك "

وعجب الشيخ ابن تيمية من أمرهما .. إنهما ليخاطبان السلطان راكبين .. الأدب أن يترجلا في حضرة السلطان. . !

قال الأمير سلار: "جئنا معتذرين عن سوء أدب الفرسان الذين حاصروا قصرك، وسننزل بهم أشد العقاب "

وسكت السلطان .. ثم قال: "هلا رحبتما بالشيخ تقي الدين بن تيمية؟"

وترجل الأمير سلار، وأقبل على الشيخ: "مرحبا بك في مصر يا شيخ تقي الدين ". أما الأمير بيبرس الجاشنكير، فقد ظل على فرسه، يسأل السلطان: "كيف تضيف رجلاً يحرض علينا الرعية، ويطعن في الصوفية، ويتكلم في صفات الله بما ينكره علماء مصر؟! أتريد أن ترهب العلماء الذين سيمتحنونه .. إنه لا يستحق منك الضيافة، ولا حتى السلام "

فقـال الشـيخ فـي تـؤدة : "السـلام علـى مـن اتبـع الـهدى "

قال السلطان : "وليته يقبل ضيافتي ! "

فرد بيبرس : "إنه لا يقبل ضيافتنا ولا عطاءنا، لأنه يرى في هذه الأموال شبهة غصب يتدنس بها "

قــال الشــيخ : " أنعــم الله علــي براتبــي مــن التدريس، وهو يكفيني، ولا حاجة لي في دنياكم "

فقال بيبرس محتداً : " تحـارب الصـوفية وتتكلم بكلامهم؟! .. عجبا لك " .

قال الشيخ : " ما حـاجتي إلـى دنيـاكم " ورد فـي الأثر عن أمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين علـي، رضي الله عنهما، قبل ظهور الصوفية بقرون !

ونظـر الشيخ إلـى الأميـر بيبـرس متعجبـاً. . مـا هكذا عرفه من قبل !

كان في حـرب التتـار فارسـاً شديد البأس، وبعد النصـر التقـى بـه فـي مجلس السـلطان، فوجده شـديد الحـرص علـى أن يظفـر منـه بكلمـة رضـا !. . رأى إكبـار السـلطان للشـيخ، فحـرص علـى استرضـاء

الشـيخ، وكسـب مودتـه ! !. . أمـا اليـوم والسـلطان كسير، فهو يتعالى ويتكبر ! ! ما نهاية هذا الكبر. .؟!

قـال سـلار : " سـنعقد لـك مجلسـاً مـن علمـاء القاهرة ليمتحن عقيدتك يا شيخ الإسلام " .

فأخـذ بيبـرس : " مـن جعلـه شـيخ الإسـلام؟! علماؤنا يتهمونه بالكفر، وأرفقهم بـه يتهمـه بالضـلال " .

قال سلار : " لا حكم قبل الامتحان .. لكن ابتعد عـن السـلطان يـا شـيخ تقـي الـدين، فقـد سـاء فيـه العلماء ! "

ورد الشيخ : " الله يهدي من يشاء "

قال سلار : " تفضل أنت مصحوباً بالسلامة "

وما إن ترك الشيخ المكان، حتـى امتطـى الأمير سلار صهوة جواده من جديد .

وارتفعــت أصــوات الأميــرين وهمــا علــى فرسيهما، يعنفان السلطان بلغة لم يفهمها الشيخ. . كانا يتحدثان بالتركية. .

ومضى الشيخ، فزار قبر الإمام الشافعي، وقرأ الفاتحة. وكان في الطريق إلى القاهرة قد استراح في غزة، وحاضر أهلها في المسجد عن مناقب الإمام الشافعي، الذي ولد وشب في مدينتهم. . .

وروع الشيخ من الزحام على قبر الشافعي. . ! الناس يتمسحون بالضريح ويقدمون إليه شكاوى مكتوبة، ويسألون الإمام في قبره حسن الشفاعة .

وخرج إلى قبر ابن دقيق العيد، فزاره وقرأ الفاتحة، وسأل الله له الرحمة. .

ثم عاد إلى الخان الذي سيقيم فيه. . وفي الطريق، وجد مواكب من رجال في ملابس عجيبة تتدلى شعورهم على أكتافهم، يدقون الدفوف، وترتفع أصواتهم بالغناء، وهم يتطوحون على إيقاع الصناجات ! ! وعلى الجانبين زحام نساء، ورجال ! !

أقام الشيخ أياماً في الخان، لا يزوره أحد، ولا يرى من حوله غير البصاصين والجواسيس !

فلما عرف بعض الصالحين بوجوده دعوه إلى دورهم .

كانت جلسات الشيخ في دور العلماء، حافلة بالمناظرة حول آرائه. . أقبلوا عليه مرحبين به . . فنصحهم شاكراً ألا يزوروه حذر الجواسيس، فلم يبالوا، ودعوه إلى مآدب الإفطار والسحور. ودعاه بعضهم إلى إلقاء دروس في المساجد فلما حاضر الناس أعجبوا به، وبدأ اسمه يتردد بالإكبار بين العامة. .

وأبدى لهم عجبه لما يراه من احتفال أهل القاهرة بأمرين : بشهر رمضان، وأضرحة الصالحين !!

كل البيوت تعلق المصابيح على أبوابها، والحوانيت تفتح بعد صلاة العشاء إلى السحور، مزدانة بالرايات والكور الملونة تسطع عليها الأضواء. . والصبية في الشوارع بفوانيسهم الصغير المزركشة يتغنون برمضان. . وأكداس من الحلوى والمكسرات، تغمر الأرصفة أمام الحوانيت .. وفي

المساجد الكبرى وأمام بيوت الأثرياء، تفرش الأسمطة بأفخر ألوان الطعام، يأكل منها من يشاء. .

وفي صلاة العصر، يعبق البخور في المساجد الكبرى التي بها أضرحة للأولياء، ويتزاحم الناس بعد الصلاة على الأضرحة يقبلون الأرض، ويتمسحون بها، ويتوسلون بسكان القبور. . !

وسأله أحد العلماء : " عساك تنكر هذا كله وتراه من البدع والضلالات ! "

قال الشيخ : " ما قرأنا عن هذا في عهد الرسول أو القرون الثلاثة الأولى التي انتهت بظهور الإمام أحمد "

قال علم من الحاضرين : " ما كل ما استحدث بعد عهد الرسالة والصحابة والتابعين والأئمة العظام، يعتبر بدعة ! "

وقال عالم ثالث : " البدعة هي ما استحدث مخالفاً لأصل في الشرع"

ورد الشيخ تقي الدين : " هذا هو القول. أما احتفالكم يا أهل مصر بشهر رمضان، فهو أمر

مستحدث ولكنه مستحب. فهو فرجة للناس، وإظهار للفرحة بالشهر المعظم، وهذا هو من شعائر تعظيمه، وهو تيسير على الفقراء بإطعامهم من خير ما يأكله الأغنياء. . وتقوية لأواصر المودة باجتماع الناس على الطعام. أما ظهور الصبية في الشوارع بالفوانيس المزركشة فأمر يبهج القلوب، ويعود الصبية على الفرحة بشهر الصيام، وتعظيمه .. وإن كان تعظيم الشهر المبارك يتأتى من قراءة القرآن، والتزام أصول الصيام، وتفهم حكمته "

قال أحد العلماء : " ألم تشاهد زحام المساجد بالمصلين، وعكوفهم على قراءة القرآن بعد الصلاة، واهتمامهم بالدروس التي يلقيها العلماء عن الصيام وشروطه وحكمته وآدابه؟!. . ألا ترى هذا تعظيماً للشهر المبارك بعد عهد الرسالة والقرون الثلاثة الأولى؟! "

رد الشيخ : " ليست كل المساجد. . فقد عاينت هذا بنفسي في المساجد التي بها أضرحة. وشاهدت فيها من البدع ما أعجب من سكوتهم عليه ! ! إن

هؤلاء المنتسبين إلى التصوف يرفعون عقائرهم في المساجد بالغناء، ويطرحون أجسادهم ويرقصون باسم الذكر. .

وما هذا هو الذكر الذي أراده الله ورسوله .. ولو كان هذا من الشرع لسنه الرسول ﷺ ولجرى عليه صحابته والتابعون ! ولكنه البدعة!! البدعة التي يجب إنكارها، وتغييرها "

فقال له أحد العلماء : " هون عليك يا شيخ تقي الدين، وكف يدك عن صوفية مصر وما يصنعون، وإلا أدخلت نفسك مداخل لا تعرف عقباها "

رد الشيخ : " الحق أن يقال. أسنة ما يفعلونه أم بدعة. .؟! "

قال العالم : " ما هو بالسنة ولا البدعة. ولكن لهم أحوالاً، وهم يذكرون الله على طريقتهم، فلا ضير في هذا "

تدخل شيخ آخر : " لنا معك حديث طويل عن الصوفية وأفعالهم، فلسنا نقر كثيراً مما يفعلون، ولكننا نعترف لبعض شيوخهم لا لهم كلهم. كان

الجنيد يعلم مريديه أن المدخل الحق للتصوف هو العلم الكامل بالكتاب والسنة .. ولكنهم ليسوا جميعاً كالشيخ الصالح الجنيد، فمنهم من غالى في الإشارة والإبهام، حتى حسبت عامة الصوفية أن التكاليف الشرعية تسقط عنهم، وحسبهم الولاء للقطب، في حياته ومماته !. . ومن هؤلاء من يتحدث عن الحلول ووحدة الوجود، وهي مذاهب وثنية. . وما ظنكم بابن عربي المغربي الذي عاش في مصر، وتلميذه المصري الشاعر المتصوف ابن الفارض؟! أهما على السنة؟! أنا لا أسوي بين شيوخ الصوفية، فليس من نادى بالحلول ووحدة الوجود كهذين الرجلين، مثل من جعلوا إتقان الكتاب والسنة مدخلاً للتصوف، وعرفوا التصوف زهداً ينزه النفس عن الطمع والصغار ومداهنة الحكام، فجعلهم تصوفهم مجاهدين أشداء في سبيل الله، مثل أبي الحسن الشاذلي، والسيد أحمد البدوي، والجيلاني وأبي العابس المرسي، وغيرهم وغيرهم .. وإن كان من

أتباع هؤلاء من سلك طريقاً آخر، فاستغاثوهم في أضرحتهم ! .. "

قال أحد العلماء : " فلتدع هذا إلى غيره من شئونك يا شيخ تقي الدين فأنت مقبل على امتحان عسير، وقد علمت أن الأمير بيبرس الجاشنكير، أعد لك قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف، وهو أقسى القضاة، ثم نصر الدين المنبجي، وهو متصوف يعتقد الأمير بيبرس في كراماته. . وكلا الرجلين فظ غليظ القلب لا يقبل خلافاً، ولا يحكم بما دون الكفر على مخالفيه فدع حديث الصوفية الآن، أصلح الله شأنك "

قال الشيخ : " لن أكتم قولة الحق مهما ألق في سبيلها .. فكلمة الحق أمام سلطان جائر جهاد في سبيل الله، بل هي أفضل الجهاد كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام " .

قال أحد الشيوخ : " معاذ الله يا شيخ ما كان أحد منا ليدعوك إلى كتمان الشهادة بالحق. ونحن ننكر على المنتسبين إلى الصوفية كثيراً مما تنكره.

ولكننا نراك أمام شرك تستدرج إليه، فلا تقع فيه ! وننصح لك بحسن الحيلة أمام المكر السيئ، وأنت فطن. وقد قال الله تعالى:)ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾.

وقبل أن يرد الشيخ أضاف أحد العلماء : " واعلم يا شيخ تقي الدين حماك الله، أن الأمير بيبرس الجاشنكير، كان قد رسم بأن تبقى وحيداً محاصراً في الوحدة، حتى يضنيك السأم، فتضعف، فلما علم أنك تروح وتجيء، وتغشى المساجد والمجالس، ولما نقل له البصاصون والجواسيس، أنك تكسب تقدير العامة يوماً بعد يوم، خشي أن يكثر أنصارك، فيصعب ضربك .. "

تدخل عالم آخر : "وستخسر أنت حب العامة، وينقلبون عليك وهم قوة، إذا جاهرت بمهاجمة الصوفية وما يفعلون .. فأنت لا تعرف سلطانهم على العامة فضلاً عن الأمراء "

رد الشيخ : " أسكت والعامة يتشفعون بسكان القبور، ويتمسحون بالأضرحة، ويصلون عليها،

ويدعون عندها؟!! لو كان هذا من الشرع لأمرنا به الرسول ﷺ، وقد أمر بكل معروف، ونهى عن كل منكر، وما ترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث أمته به، ولا شيئاً يبعد عن النار إلا وقد حذر أمته منه. فكيف بنهيه ولعنه عن اتخاذ القبور مساجد؟ نهى عن الصلاة لله مستقبلا لها، وإن كان المصلي لا يعبد الموتى ولا يدعوهم، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب، لأنها وقت صلاة المشركين للشمس وإن كان المصلي لا يسجد إلا لله، سداً للذريعة. . فكيف إذا تحققت المفسدة بأن كان العبد يدعو الميت ويدعو به؟! إن أصل عبادة الأوثان جاء من تعظيم القبور، كما قال تعالىفي سورة نوح: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرون وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. قال السلف كابن عباس وغيره كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم عبدوهم .

وأما ما حكى عنه بعض المشايخ من قوله إذا نزل بك حادث فاستوحني، فيكشف ما بك من الشدة حياً كنت أو ميتاً، فهذا الكلام ونحوه إما أن يكون كذباً من الناقل أو خطأ من القائل. .

ومن المعلوم أن الله لم يرغب بمثل هذا، ولا رسله أمروا بذلك. بل قال الله تعالى:﴿ فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب﴾ ولم يقل ارغب إلى الأنبياء والملائكة، فكيف بمن هم دونهم، وقال تعالى:﴿ أدعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾

قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة، فأنزل الله هذه الآية .

وهذا رسول الله ﷺ لم يقل لأحد من أصحابه إذا نزل بك حادث فاستوحني بل قال لابن عمه عبد الله بن عباس وهو يوصيه: " احفظ الله يحفظك، احفظ

الله تجده أمامك. تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله "

وأما قول القائل إن من قرأ آية الكرسي واستقبل جهة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وسلم عليه، وخطا سبع خطوات، يخطو مع كل تسليمة خطوة إلى قبره. فهذا شرك برب العالمين !

ولا ريب أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يقل هذا، ولا أمر به، ومن نقل مثل ذلك عنه فقد كذب عليه !. .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها)

وما يفعله بعض الناس من الصلاة والدعاء عندما يقال إنه قبر نبي أو قبر أحد من الصحابة كما يحدث في الموضع الذي يقال إنه قبر هود بدمشق، أو أن تحته رأس يحيى بن زكريا ونحو ذلك، فهو مخطئ مبتدع مخالف للسنة. فإن الصلاة والدعاء بهذه الأمكنة ليس له مزية عند واحد من سلف الأمة

وأئمتها، ولا كانوا يفعلون ذلك، بل كانوا ينهون عن مثل ذلك، كما نهاهم النبي عن مثل ذلك ودواعيه. .

فلا يقال عند قبر أحد من هؤلاء: (اشفني أو أغنني أو ارفع الكرب عني). فهذا كله من باب الشرك .. إنما الدعاء لله وحده

قال أحد الحاضرين : " متى يأتي امتحانك وتخرج منه بسلام يا شيخ تقي الدين؟ فأنا أخشى عليك بطش ابن المنبجي، وهو من الذين يتمسحون بالأضرحة، ويدعون سكان القبور بدلاً من أن يدعو الله تعالى"

ودخل أحد العلماء فقال إنه علم أن الشيخ سيمتحن وشيكاً. فقد اتفق الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير على مجلس الامتحان. وكان الأمير سلار قد أراد استبعاد الشيخ ابن المنبجي والشيخ ابن مخلوف، لسوء رأيه فيهما ولكن الأمير بيبرس صمم عليهما، وأوشك الأميران أن يختلفا، وقد اتفقا من قبل على ألا يختلفا على شيء مهما يكن خطره، ليستطيعا الاستمرار في الاستئثار بالسلطة

دون السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وليستطيعا عزله آخر الأمر.

واتفق الأميران على إبعاد ابن المنبجي، وعلى أن يكون المجلس من قضاة يرأسهم ابن مخلوف .

***

عقد المجلس في القلعة لامتحان الشيخ تقي الدين بن تيمية في عقيدته .

بدأ زين الدين بن مخلوف مجلس الامتحان بسؤال لابن تيمية : " أنت مهتم بأنك تقول إن الله يجلس فوق العرش حقيقة، وأنه يتكلم بحرف وصوت. أجب عن ذلك يا فقيه " .

بدأ الشيخ إجابته بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

فلم يتركه ابن مخلوف يكمل، واعترضه في حدة : " أجب ولا تخطب"

فاتجه ابن تيمية إلى القضاة أعضاء المجلس يسألهم : " من الحاكم في اليوم" قالوا له : "القاضي المالكي الشيخ زين الدين بن مخلوف " .

فسكت ابن تيمية وهو يتأمل هذا القاضي المالكي، الذي اشتهر بالقسوة والغلظة، وبالتعصب ضد من يخالفه الرأي. .

وتذكر ابن تيمية قصة عالم فاضل من أكابر علماء المالكية في مصر، أوقعه سوء حظه أمام ابن مخلوف، وكانا مختلفين في الرأي، فاتهمه ابن مخلوف بالكفر فاستشفع الرجل بابن دقيق العيد، قاضي الشافعية وشيخ علماء الحديث في عصره. قال الرجل " ما تعرف عني؟" قال: " أعرف عنك الفضيلة، ولكن حكمك إلى القاضي زين الدين بن مخلوف !"

ولم تنفع شفاعة الشيخ الذي لم يردها سلطان ولا أمير قط، وحكم زين الدين بن مخلوف على العالم الفاضل بالإعدام. . ! !

لن تسلم نفسك يا تقي الدين لهذا القاضي القاسي المتعصب، الذي لا يقبل من الرأي إلا قول الإمام مالك، وليته يحسن فهمه. .. !

ما أبعد ما بين المتزمتين المقلدين، وبينك يا تقي الدين ! !

ولما طال صمت الشيخ تقي الدين بن تيمية، ألح عليه ابن مخلوف أن يجبيه. فعاد ابن تيمية يسأل : " إلى من الحكم في اليوم"

قالوا : " للقاضي زين الدين بن مخلوف "

قال الشيخ للقاضي : " كيف تحكم في وأنت خصمي : أنا لن أجيبك "

وتوقع الجميع أن يتنحى القاضي بعد أن رده ابن تيمية، ولكن ابن مخلوف غضب غضباً، وباغت الجميع بالحكم على الشيخ بالسجن. . وغادر المجلس، دون أن ينطق أحد بكلمة. . ودون أن يحدد مدة السجن ! !

ذهب قاضي الحنابلة ومعه بعض العلماء إلي الأمير سلار، وكانوا يعرفون إكباره للشيخ ابن تيمية، فشكوا له ما كان من أمر القاضي ابن مخلوف .

وتكلم سلار الأمير مع بيبرس، فصمم على تنفيذ الحكم ولكنه استجابة لشفاعة الأمير سلار، سمح لأخوي الشيخ اللذين جاءا من دمشق بأن يقوما على خدمته في السجن .

ولم يكد الشيخ يدخل السجن، حتى عم الأذى جميع الحنابلة .

***

مرت شهور على الشيخ في سجنه، فأرسل خطاباً إلى أحد أصدقائه في دمشق، يصف ما جرى له في مصر .

وما إن علم نائب السلطان في دمشق بأمر الخطاب، حتى طلبه، وقرأه على الناس بعد الصلاة في الجامع الأموي. .

وروع الناس مما جرى للشيخ، وطالبوا نائب السلطان أن يسعى في إخراجه وإعادته إلى دمشق. فوعدهم نائب السلطان بأن يسعى جهده لاستخلاص الشيخ، وقال : " كنت أتوقع ما جرى له، وقد نصحته ألا يذهب إلى القاهرة، ولكنه صمم على

الذهاب كما تعلمون. وإني لأشهد أني ما رأيت أحداً في مثل علمه وفضله وزهده. ما رأيت مثله، ولا أشجع منه. وقد كنا نلح عليه أن يقبل شيئاً من العطايا السلطانية، ولكنه ما تدنس بشيء من ذلك "

وتألم العلماء الحاضرون ممن ألفوا قبول العطايا والهدايا والكسى السلطانية، وطلبها، وأوغلوا في التدنيس بها. . ! وأرسلوا شكوى إلى السلطان لأن نائبه يسمى قبول العطايا السلطانية تدنساً ! !

وبعث نائب السلطان من دمشق، رسالة إلى الأمير سلار، نائب السلطان في القاهرة، يذكره بفضل الشيخ، وحسن بلائه في جهاد التتار، ويطالبه بأن يعمل على إطلاق سراحه .

ولكن ابن مخلوف والأمير بيبرس الجاشنكير رفضا شفاعة الأمير سلار .

* * *

وقضى الشيخ عاماً في السجن. . وكان سجنه هو الجب، وهو شر أنواع السجون. .

فلما كانت ليلة عيد الفطر، ألح بعض العلماء على الأمير سلار في إطلاق الشيخ، ابتهاجاً بالعيد !

وكانت السلطة قد توزعت بين بيبرس وسلار، واتفقا على ألا يتدخل أحدهما في شئون الأخر، وعلى أن يبقى الناصر على عرشه، سلطاناً بلا سلطة .

وأصبح الأمير سلار حاكماً مطلقاً اليد في القاهرة .

فلم يستشر شريكه بيبرس، بل استدعى قضاة الشافعية والمالكية والحنفية، وذكرهم بفضل الشيخ، وحسن بلائه في الحرب ضد التتار، وأعلنهم أنه قرر إطلاق الشيخ من السجن في ليلته، ليشهد من غده الاحتفال بالعيد !

وإذ رأوا إصرار الأمير، لم يغاضبوه. ولكنهم في الوقت نفسه له تطب نفوسهم بإخراج الشيخ من سجنه، فسكتوا. .

فقال الأمير للقاضي الشافعي : " أنت مدين لشيخ الإسلام بن تيمية بمنصبك، فهو الذي أشار على السلطان بك، بعد وفاة ابن دقيق العيد " .

وخجل القاضي الشافعي، فزعم أنه يوافق على إخراج الشيخ .

واشترط القضاة الثلاثة، أن يتعهد الشيخ قبل خروجه، بالرجوع عما أعلنه في دمشق، عن صفات الله، وعن كيفية استوائه تعالى على العرش، وكيفية نزوله إلى السماء الدنيا إلى آخر ما أعلن هناك من رأي وعقيدة !

فرفض الشيخ ما اقترحوه، وفضل البقاء في السجن على الإذعان لمفتريات خصومه !

عم يتنازل؟

إنهم ليلصقون به ما لم يقله، وما لا يعتقده !

يلزمونه الإقرار بمفترياتهم عليه، والعدول عنها. .!!

وترددت الرسل بينه وبين الأمير سلار ست مرات في تلك الليلة، والقضاة ينتظرون إذعانه .

وجاء آخر رسول يحمل قول الشيخ إن هؤلاء القضاة لو كانوا على السنة، ولو كانوا يفهمون آراء أئمتهم الشافعي ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم، لعرفوا أن آراء هؤلاء الأئمة العظام في صفات الله، ومعهم هو إجماع الصحابة والتابعين من قبل. .

ولكن هؤلاء القضاة لا يريدون الحقيقة، بل يريدون إذلاله، والإزراء عليه، ولن يجيبهم إلى ما يريدون !. .

وانفض القضاة إلى بيوتهم – غير مأجورين كما قال ابن كثير – ليحتفلوا بليلة عيد الفطر مع أهلهم وأبنائهم. .

أما ابن تيمية فاستقبل العيد في السجن، راضياً عن نفسه !

غير أن الأمير سلار لم يرضَ، فعقد مجلساً من القضاة الثلاثة بعد العيد، واستدعى أخوي الشيخ ليناظراهم بدلاً منه وكانا يعملان بتدريس الفقه الحنبلي في دمشق .

ويصف ابن كثير هذا المجلس قائلاً : " أخذ القاضي المالكي ابن مخلوف يناقش أحدهما وهو شرف الدين، وظهر شرف الدين بالحجة على القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة، وخطأه في مواضع ادعى فيها دعاوى باطلة، وكان الكلام في مسألة العرش، ومسألة الكلام، ومسألة النزول "

وما ناظر شرف الدين إلا بآراء أخيه وعقيدته، التي ذكرها في دمشق آنفاً، وهي الآراء التي اجتمع عليها الصحابة والتابعون والأئمة العظام من بعدهم. وأعيد أخواه إلى السجن معه ..

ومرت ستة شهور أخرى على الشيخ في سجنه، وأهل الشام ينتظرون عودته في كل نهار وليل. .

وجاء أمير الشام، حسام بن مهنا بن عيسى صديق الشيخ وتلميذه على رأس كوكبة من أشجع فرسان العرب ومشايخهم .

وزار الأمير سلار، فوجد معه الأمير بيبرس، فعيرهما بجحودهما فضل ابن تيمية .

فلولا ما بذله الشيخ من جهد مع السلطان التتار قازان، لاحتل التتار دمشق ثم القاهرة، ولكان الأميران وأولادهما وزوجاتهم عبيداً وجواري عند التتار !

ولولا استنفاره الناس وتجميعه العرب في الحرب الأخيرة ضد التتار فانضموا إلى عساكر السلطان، وتركوا الحلف مع الباطنية، لولا هذا لما انتصرت جيوش السلطان، ولاستعبدهم التتار !

وذكر الأميرين وسائر الأمراء بفضل الشيخ عليهم وتقواه، ثم قال لهم : إن كنتم لا تعرفون فضله في مصر فهذا من جهلكم وجهل علمائكم، فدعوه يعش طليقاً بين محبيه وعارفي فضله. . ثم أقسم ليحررن الشيخ بنفسه، ويعود به الليلة إلى دمشق، وخصومه راغمون !

وخرج تاركاً الأميرين في ذهول !

كانا يحسبان لعرب الشام حساباً كبيراً، ويعرفان أن لهم بعرب مصر قربى ومودة .

وهم إن غضبوا، وأعلنوا العصيان، أيدهم عرب مصر فما يقوى عليهم بعد عسكر السلطان في مصر أو الشام. .

ستكون فتنة لا يعلم أحد أي الرءوس تسقط فيها. . ربما رأسا الأميرين، قبل كل الرءوس!!

ذهب الأمير حسام إلى السجن، فأخرج ابن تيمية منه وأراد أن يرحل به من فوره إلى دمشق، ولكن الأمير سلار سأل الشيخ أن يقيم في مصر ليعظ الناس وينفعهم بعلمه. . !

ورحب الشيخ بالإقامة في مصر شهراً واحداً، ورأى في ذلك واجباً دينياً تفرضه عليه مسئوليته عن إحياء السنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع الشائعة. .

* * *

وأقام أمير العرب ورجاله يومين في ضيافة الأمير سلار، طاف بهم خلالها على متنزهات القاهرة، وركبوا نيلها، وشاهدوا خلجانها، وأهرام الجيزة، ثم عادوا إلى دمشق .

وما إن غادر أمير العرب ورجاله مصر، حتى قدم القضاة الثلاثة على الأمير سلار، فطالبوه بالتأكيد من حسن معتقد ابن تيمية، قبل أن يسمح له بغشيان المساجد أو إلقاء الدروس في معاهد التعليم. فدعاهم سلار إلى مناظرة الشيخ أمامه. وضرب لهم موعداً

وفي الموعد اعتذر القضاة الثلاثة بالمرض .

فأرسل سلار إلى الصفوة من علماء القاهرة، ودعا ابن تيمية وجمعهم في القلعة، فأقر ابن تيمية أن عقيدته التي كتبها وأعلنها من قبل، هي ما أجمع عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة العظام : أن القرآن معنى قائم بذاته. واستشهد الشيخ برأي الإمام جعفر الصادق وهو من أئمة آل البيت، وإجماع أهل السنة على أنه من أئمة الدين. سئل عن القرآن : (أخالق هو أم مخلوق؟) فقال رضي الله عنه : (ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله) .. وهذا مما اقتدى به الإمام أحمد في المحنة، ثم استطرد الشيخ : ورأي الإمام جعفر الصادق هو

رأي السلف قاطبة من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين : أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وهو صفة من صفات ذاته القديمة، وليس بحرف ولا صوت، وأن قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ليس على ظاهره، ولا يعلم كنه المراد به، بل لا يعلمه إلا الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء بكيفية لا يعلمها إلا هو .

ووافق القضاة على قول " ابن تيمية ". وأقروا بصحة عقيدته. .

وعجب الناس : فيم كان الخلاف وسجن الشيخ إذن؟!

***

عاد الشيخ يلقي دروسه في المساجد : من مسجد إلى مسجد.

وتزاحم الناس عليه يصغون إليه، ويستفتونه .

وأحس خصومه من العلماء والفقهاء أن الناس يؤثرونه عليهم، ويضعونه فوقهم، وحاكم القاهرة بعد، يكن له من الاحترام، أكثر مما يبديه لهم. . .

وأثار هذا كله ضيقهم به، فتربصوا بما يقوله ويفتي به ليكيدوا له، حسداً من عند أنفسهم .

أدرك الشيخ أن إقامته في القاهرة ستطول، فما زال لديه ما يقوله ويفعله. .

وخشي أن ينتقم الأمير سلار من الذين أودعوه السجن، وفكر في أن يكلمه فيهم، ولكنه كان يشعر بإعراض عن الأمير، منذ سمع في ساحة القصر يوم الحصار، ما يقوله عنه طلاب العلم، وعامة الشعب !

أيملك بيوتاً يؤجرها للفساد والفحشاء حقاً؟! أهو يعتمد على أهل الفسق، والجنايات، والشذاذ، ليحموه؟!

لا دليل على ذلك ولكن أقوال الخلق ألسنة الصدق ! ..

ورأى الشيخ أن يكتب إلى صديقه نائب السلطان في دمشق، يستشفعه عند حاكم القاهرة

الأمير سلار، في أولئك الذين أساءوا إليه. فكتب: "تعلمون رضي الله عنكم أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين، فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً، لا ظاهراً ولا باطناً، ولا عندي عتب على أحد منهم ولا ألوم أصلاً. بل لهم عندي من الكرامة والإعظام والتبجيل أضعاف ما كان، كل بحسبه، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً، أو مخطئاً، أو مذنباً. فالأول مأجور مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد معفو عنه، والثالث فالله يغفر لنا وله، ولسائر المؤمنين. . لا أحب أن ينتصف من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه، أو عدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين كذبوا وظلموا هم في حل من جهتي "

وأحس بشوقه إلى أمه يبرح به .. ! وأن إشفاقه عليها في وحدتها، وهو في غربته، ليعصر قلبه، ويدفع الدموع إلى عينيه ! .. وها هو ذا مضطر لأن يطيل غيابه !. .

فكتب إليها : "إلى الوالدة السعيدة أقر الله عينيها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من إمائه وخدمه.

إنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين وإمام المتقين، محمد، عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليك عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله. ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد .

تعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد، إنما هو لأمور ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور، فإنكم والله ما تختارون الساعة إلا ذلك. ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا

ولكم، وأدعو لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية. وقد فتح الله من أبواب الرحمة، والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر مستخيرين الله سبحانه وتعالى. فلا يُظن أننا نؤثر على قربكم شيء من أمور الدنيا قط. بل لا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه. ولكن ثم أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعالم من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب .

والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب. وقال النبي ﷺ : (من سعادة ابن آدم استخارته الله، ورضاه بما قسم الله له. ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله، وسخطه بما يقسم الله له) والتاجر يكون مسافراً، فيخاف ضياع ماله، فيحتاج إلى أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيراً، كثيراً وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار، والأهل والأصحاب واحداً واحداً. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه. وسلم تسليماً "

***

ما هي تلك الأمور الكبار التي رآها ابن تيمية تجل عن الوصف، فكتب إلى أمه يستأذنها في الغياب لأنه يخاف الضرر العام والخاص من إهمالها؟! إنه لم يؤثر على أمه شيئاً من أمور الدنيا قط، بل لا يؤثر من أمور الدين ما يكون القرب إليها أرجح منه، كما كتب لها. .

إنها لأمور ثلاثة، تضطره إلى البقاء في القاهرة .

أولها : أنه وجد علماء مصر أشد من علماء الشام، في تعصبهم لمذاهبهم، وفي التمسك الحرفي بعقيدة الأشعري .

والأشعري يتبع في فهم النصوص مذهب أهل السنة، وبصفة خاصة مذهب الإمام أحمد، ولكنه يجادل المخالفين بالأدلة العقلية، لا بالنصوص المنقولة ! .. والعقل في رأي الشيخ يجب أن يكون تابعاً للنقل .. فالنقل هو الذي يقيم البراهين، ثم يأتي العقل فيؤيدها أو يفسرها !

والأشعري صاحب العقيدة المعروفة باسمه، علم عاش في القرن الرابع الهجري، وكان من شيوخ المعتزلة الذين يؤمنون بسلطان العقل، ويحكمونه في نصوص الحديث، ويصرفون ظاهر بعض الآيات عن معناها إلى معنى خفي لتتفق مع العقل في رأيهم، ويقولون إن القرآن مخلوق، وإن الإنسان مسئول عن عمله، وإلا لما جاز عليه الثواب والعقاب. .

وكانت لهم صولة في عصر المأمون، فأنزلوا المحنة بالإمام أحمد ابن حنبل حين خالفهم آراءهم وبصفة خاصة في خلق القرآن .

وأصبح الناس ذات يوم، فوجدوا الأشعري يخطبهم وعليه بردة جديدة، فقال لهم أنه يخلع مذهب المعتزلة، كما يخلع بردته تلك، ثم قال إنه يدين " بالتمسك بالكتاب والسنة من غير تأويل، وبما روى الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، وبما كان عليه أحمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثبوته. نحن لمن خالف قوله جانبون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم وكبير مفهم، ورحمة الله على جميع أئمة المسلمين " .

ثم شرح رأيه الجديد، قائلاً : " إن الله استوى على عرشه كما قال : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، وإن له وجهاً كما قال :﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ وإن له عيناً بلا كيف كما قال :﴿ تجري بأعيننا﴾.. ونقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق، ونؤمن بقضاء الله وقدره، خيره

وشره، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا. .. ونرى ألا نُكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب ارتكبه. . ونقول إن الله يخرج من النار قوماً بشفاعة محمد ﷺ. وإن الإيمان عمل يزيد وينقص .. ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، والإقرار بإمامتهم، وندين الخروج عليهم بالسيف، وترك القتال في الفتنة. . ونقول إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآياته .. ونرى مفارقة كل داعية لفتنة ومجانبة أهل الأهواء "

وقد اعتنق عقيدته كثيرون من أتباع المذاهب الأربعة، وقوي المذهب بمساندة الحكام له، حتى أصبح الخروج عليه، خروجاً على ولي الأمر، وكفرا بالدين ... !

وما كان ابن تيمية ليخالف الأشعري، فقد أقر الشيخ بأنه على عقيدة الأشعري، عندما امتحنه علماء دمشق في عقيدته منذ سنوات، حين اتهمه خصومه بالضلال، وطرح العقيدة الأشعرية !

غير أن الشيخ يرى أن الأشعري الذي تربى في مدرسة المعتزلة، يتبع طريقتهم في الاستدلال وهي ليست منهج أهل السنة في الجدال ! فهو يغلب العقل، ويؤول بعض النصوص لتتفق مع العقل. .

ورأى ابن تيمية أن التأويل عند السلف هو التفسير، وكل آية في القرآن ورد فيها لفظ التأويل، فهي تعني به التفسير .

ما كان هذا الخلاف حرياً بأن خصومه، ولكن روح العصر كانت لا تسمح به، فقد كان العلماء يقلدون المذاهب الأربعة في الفقه، ويقلدون الأشعري في العقائد، ولا يسمحون لأحد بالمخالفة أو بالتحرر من أسر التقليد، ويعتبرون هذا كفراً أو بالقليل ضلالاً !

هكذا وجد ابن تيمية نفسه في حاجة إلى البقاء في القاهرة ليناظر علماءها، ويقنعهم بخطأ فهم الأشعري لمعنى كلمة التأويل .. فهو ليس "صرف اللفظ عن معناه الظاهري إلى معنى آخر خفي .. .. وأنه لا يمكن أن يكون هناك ألفاظ في القرآن،

تصرف عن معناها الظاهري، إلى معنى خفي، وسكت عنها الرسول. ذلك أنه بين القرآن كله وعلمه للصحابة وهؤلاء علموه للتابعين وهكذا لأن الرسول ﷺ لا يجوز عليه أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامهم ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه ! "

وإذن فلا يمكن أن يقع تناقض بين ما يستنبطه العقل السليم أي المعقول، وبين المنقول الصحيح الثابت .. قال : " المنقول الصريح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع العلماء فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالفعل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع .

وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والثبوت والمعاد، وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه

سمع (أي نقل) قط. بل السمع الذي يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة " .

دخل الشيخ في محاورات طويلة مع علماء مصر وفقهائها، حول آراء الأشعري في التأويل. وهو في محاوراته يكسب احترامهم ومودتهم، على الرغم من الخلاف !

دعاه أحد العلماء إلى مأدبة عشاء، مع علماء من المذاهب المختلفة. وبعد العشاء قال له : " يا شيخ تقي الدين. إنك لتدخل في أمور كبار، تعذب بها نفسك، وصحبك، وتشق بها على غيرك ! فما خلافك مع الأشاعرة في تأويل آيات الصفات؟ ألا ترى أنه يوقع بك تشبيه صفات الله تعالى بنعوت البشر؟ إن التمسك بظاهر النص على النحو الذي تدعو إليه مع بعض الحنابلة، لابد أن يوقعكم في التجسيم والتشبيه، لأن ظاهر معنى يد الله وعين الله إنما هو الجارحة التي للبشر. . ولهذا وقع بعض شيوخكم السابقين في خطأ شأن الحنابلة شيناً لا يغسله ماء البحار، كما قال ابن الجوزي وهو من أفاضل شيوخ الحنابلة

وعلمائهم. إنكم بأخذكم بالظاهر تنزلون الله سبحانه في مكان الحسيات. وأنتم أعداء هؤلاء المجسمين المشبهين. فلو أنكم قرأتم الآيات والأحاديث وسكتم، لما أنكر عليكم أحد، ولكن حملكم إياها على الظاهر قبيح .

قال ابن تيمية : " أصلحك الله. نحن لا نبتدع في مذهب الإمام أحمد ما ليس منه. وأنا أنكر على بعض شيوخ الحنابلة السابقين تمسكهم الحرفي بالظاهر. ورأيي أن القول في الصفات كالقول في الذات. فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله. فإذا كانت له ذات لا تماثل الذوات حقيقة، فالذات متصلة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات ! "

فقال أحد العلماء ضاحكاً : فهذا هو التأويل الذي تنكره على الأشاعرة"

قال ابن تيمية : " بل هو التفسير لا التأويل "

قال أحدهم : "قل لنا رأيك في ظاهر النصوص، أمراد هو كما هو؟ أم غير مراد فيصرف إلى المعنى

الـذي يتفـق مـع ذات الله تعـالى وصـفاته كمـا يقـول الأشعري "؟

قـال صـاحب الـدار : " احـذر مكـر هـذا الفقيـه الحنفي يا شيخ تقي الدين ! فهو صاحب حيل كشيخه الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه "

وضـحك الجميـع وهـم يهمهمـون : " رضـي الله عنه "

واستمر العالم صاحب الدار يقول لابـن تيميـة : " فأنت يا فقيه إن قلت بأن ظاهر هذه النصـوص هو المراد، فهو التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصـهم. وهـذا لـيس معتقـدك ولا معتقـد إمامـك أحمـد رضـي الله عنـه، وإن قلـت بعكـس ذلـك فهـو التأويل الذي تنكره "

قال الشيخ ابن تيميـة : " اتفق أهل السنة وأئمـة المسلمين علـى أن ظـاهر هـذه الآيـات هـو المـراد. ولكنه ليس كظاهر الآيات المتفق على معناها. فنحن لا نفهم من ظاهر آيات الصفات أن علم الله كعلمنـا. ولا أن قدرتـه كقـدرتنا. فقولـه تعـالى:﴿ يحـبهم

ويحبونه﴾ و﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وقوله تعالى:﴿ ثم استوى على العرش﴾ .

نحن نفهم هذا كله على ظاهره، ولكن هذا لا يقتضي أن يكون ظاهره استواء كاستواء المخلوق ولا حباً كحبه، ولكنها بمعان تليق بذاته الكريمة

قال عالم شافعي : " فهذا صرف للفظ عن معناه الظاهر يا شيخ تقي الدين. فما خلافك مع الأشاعرة؟ "

قال الشيخ : " بل هو فهم للظاهر واتباع للإمام أحمد، والإمام مالك وسائر الأئمة. . لابد من التمسك بالظاهر .. سُئل الإمام أحمد أيام المحنة عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم. قال : (نؤمن بها، ونصدق بها، ولا كيف ولا معنى). وسئل عن الاستواء فقال : (استوى على العرش كيف شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف) وهذا تفويض وتنزيه، وليس فيه تخريج للفظ على الظاهر أو غير الظاهر. ومن قبل قال الإمام مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)

قال العالم الذي بدأ الحوار : (إن قول الإمام مالك ومن بعده الإمام أحمد، ليس أخذاً بظاهر اللفظ. بل هو تفويض وتنزيه. على أن الإمام أحمد سُئل يوم المناظرة عن معنى الآية الكريمة :﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ فقال : (يجيء أمره وقدرته) أليس هذا صرفاً للفظ عن معناه الظاهر؟)

قال الشيخ : " إنه التفسير بمجاز الحذف لا التأويل "

قال العالم : " التفسير بالمجاز نوع من التأويل يا شيخ تقي الدين "

قال الشيخ : " إن السلف ما كانوا يطلقون اسم الظاهر على التشبيه بخصائص المخلوقين. فهذا غير مراد من آيات الصفات والأسماء الحسنى. فهم لا يرضون أن يكون المراد بالقرآن كفراً وباطلاً "

قال صاحب الدار : " ما كان السلف الصالح ومنهم الإمام أحمد يفهمون الظاهر كما فهمه بعض متأخري الحنابلة وأنت نفسك تصرف بعض النصوص عن معناها إذا أوقعتك فيما لا يقبله

عقلك ! وهذا هو التأويل، وأن كنت تتمسك بظاهر بعض النصوص فتدخل في أمور كبار تشقى أنت بها وتثير من يريدون أن يشنعوا عليك، وتضني بها محبيك. أنا أسن منك بعشرين عاماً يا بنى، وما أرى في معتقدك ما يخالف الأشعري خلافاً يقتضي الخصومة. وقد أقررت بنفسك أنك على عقيدة الأشعري في جملتها، فما بقي عندك من وجوه خلاف لا يستحق عناء الخصومة. فهلا كففت يا شيخ تقي الدين عن الانشغال بهذا الأمر، فهو لا يمثل مصلحة دينية يجب تحقيقها أو مضرة يجب دفعها؟ إن لدينا من ألوان البدع والمنكرات ما يلزمنا بالعمل معاً. .

وحسبك ما يفعله الصوفية هنا في مصر مما عاينت وعانيت. .. لقد جمعتكم الليلة لنصفي الخلاف فيما بيننا، ولنكون معاً صفاً واحداً في محاربة البدع والمنكرات "

قال الشيخ : " لكم عاينت منهم وعانيت ! وقد أدهشني سكوتكم عنهم ! "

قـال أحـد العلمـاء : " لقـد اسـتولوا علـى عقـل السـلطان وعقـول الأمـراء، وأرهبـوهم بكرامـاتهم واسـتيلائهم علـى عقـول العامـة .. ونخشـى إذا ناهضناهم أن تكون فتنة "

وقـال آخـر : " إننـا قـد نـتهم بالغضـب لأنفسـنا، وباتباع الهوى !. . فهم يسمون أنفسـهم أهل الحقيقة. ويزعمون أنهم وحدهم اختصوا بمعرفتها ،أما نحن فيسموننا أهل الشريعة، لا نعرف إلا ظاهر الدين. . وهم يغالون فيقولون إن الشريعة تفرق بين العاصي والمطيع، لكن الحقيقة لا تفرق بينهما أمام الخالق، فهو خالق كل شيء : اللذات والشهوات، والمأمورات، والمنهيات. من أجل ذلك ترى أتباعهم يقترفون من المنكرات ما تقشعر منه الأبدان "

أضـاف آخـر : " إن أحـدهم ليتبـاهى بهـا فيرسـل إلى السلطان أنه يقترف كذا وكذا، فلا يقام عليه الحد إشفاقاً من كراماته ! .. "

قال الشيخ : " إنكم ما سكتم عن هذه المنكرات حـذر الفتنـة، أو بعـداً عـن شـبهة الغضـب لأنفسـكم !

ولكن الاشتغال بالخلاف المذهبي، صرف همنا إلى هذا الخلاف، وعكفنا على تقليد الأئمة الكبار وألفنا الجمود عند آرائهم .. فإذا تكلفنا مشقة البحث عن الرأي الحق في مذهب غير مذهب إمامنا، تحرجنا من أتباعه. لماذا؟ لنتجمد على مذهبنا !

ومنا من يغض من قيمة الأئمة الآخرين. ولكن هؤلاء العلماء هم ورثة الأنبياء، كما جاء في الحديث الشريف، وقد جعلهم الله بمنزلة النجوم التي يُهتدَى بها في ظلمات البر والبحر، فهم خلفاء رسول الله ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا. فلنعلم أنه ليس احد من الأئمة يتعمد مخالفة السنة في شيء دقيق ولا جليل. فإنهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول ﷺ. وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ. وإذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه. والأعذار ثلاثة : عدم اعتقاده أنه حديث صحيح. أو عدم اعتقاده إرادة تلك

المسألة بذلك الحديث، أو اعتقاده بأن الحديث منسوخ .

وقد كان هؤلاء جميعاً يوصون تلاميذهم : (إذا صح لكم حديث يخالف قولنا فاتركوا قولنا واتبعوا الحديث)

كان أبو حنيفة وأصحابه يفتون ببطلان الوقف، لأنه حبس للمال وقيد على الإرادة في رأيهم، فلما استقبل الإمام مالك أبا يوسف في المدينة، أراه أوقاف الصحابة، فعدل عن رأيه .

فقال له مالك : (لو رأى صاحبنا أبو حنيفة هذه الأحباس (الأوقاف) لعدل عن رأيه كما عدلت)

ونحن نعرف أن الشافعي حين جاء مصر، وعاش فيها، واطلع على فقه الإمام الليث بن سعد، أعاد صياغة كتبه، وعدل عن كثير من آرائه. وقد أوصى أحمد بن حنبل، باعتماد ما كتبه الشافعي في مصر، وترك ما عداه .

وكان الإمام جعفر الصادق يناظر أبا حنيفة ومالك بن أنس، فيعدلان عن آرائهما بعد المناظرة .

كـان هـؤلاء الأئمـة يـوقر الواحـد مـنهم الآخـر، ويفيدون مـن آراء بعضـهم الـبعض. فمـا بـال أتبـاعهم يسـفهون مـن خـالفهم ويجعلـون خـلاف الأئمـة حربـا ضروساً؟!

فلنتفق فيما بينا على أن خلافتنا يجب ألا تشغلنا عن الحـرب علـى المنكـرات، والبـدع، وعـن التعاهد على الذود عن حوض الشريعة، وإحياء ما كان عليه السلف الصـالح، فـي القـرون الثلاثـة الأولـى للهجـرة. ليعـرف النـاس أن الحقيقـة هـي الشـريعة، وأن علمـاء الشـريعة هـم أهـل الحقيقـة، وأن مـا يقـال غيـر ذلـك ابتداع وضلال !

فمن يزعم أنه يعرف من الدين أكثر مما عرفه الرسول عليه الصلاة والسلام؟! وهو قد علم أصحابه كل شيء، وهم علموا التابعين، ومنهم تعلم تـابعوهم، وأئمة الدين الكبار .

أنـا لا أتحـرج مـثلكم مـن محاربـة متصـوفة هـذا الزمان، وما أبالى أرضي السلطان والأمراء والعامة أم غضبوا. . .! وما أبالي أن يتهمني أحد بأنني أدافع

عن نفسي أمام من يتهمون رجال الشريعة، بأنهم لا يعرفون حقيقة الدين ! ! .. لابد أن أدحض باطل هؤلاء الصوفية، وألزمهم بالسنة. . فليكونوا كأسلافهم العظام الذين أدركوا أن طريقهم إلى التصوف هو التزام الكتاب والسنة "

***

نظر الشيخ تقي الدين بن تيمية في أحوال الصوفية ونشأتها، فوجدها تستند إلى نوع من الزهد ينكره الإسلام، فهو رهبانية نهى عنها الرسول ﷺ. فقد جاء في الحديث الصحيح : لا رهبانية في الإسلام .

وقد جاءت امرأة أحد الصحابة إلى السيدة عائشة رضي الله عنها، فأنكرت أم المؤمنين ما رأته من عبوس الزائرة وذبولها، وعدم اهتمامها بهيئتها. فشكت المرأة زوجها، فهو يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يقربها! فلما حكت السيدة عائشة للرسول ﷺ خرج فاعتلى المنبر، ونهى عن الانقطاع للصيام والقيام، وترك النساء، فهو أتقاهم، وهو يصوم

ويفطـر، ويقـوم وينـام، ويتـزوج النسـاء ومـن خـالف سنة الرسول فليس منه .

وبعد أيام جاءت المرأة، فوجدتها السيدة عائشـة، حسـنـة الهيئـة مضـيئة الوجـه، فسـألتها عمـا غيرهـا، فقالت لها: " أصابنا ما أصاب الناس"

***

كـان الزهـاد والصـوفية الأوائـل، مجاهـدين فـي سـبيل الله، لا يعتزلـون الحيـاة أو النـاس، ولكـنهم يعفون عن الطمع، ولا يشغلون القلب بجمع المـال، بـل يسـعون فـي صـلاح الأمـة، وعمـارة الأرض، وحماية الثغور، ويحقرون من يفتنـه زخـرف الحيـاة، عمـا ندبـه الله لـه مـن الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر. .

كان من بينهم أغنياء، ولكنهم لا يكنـزون المـال، أو يشتغلون بجمعه، بل ينفقونه علـى ذوي الحاجـات، ولا يحرمـون علـى أنفسـهم الطيبـات مـن الـرزق .. هكذا كان عبد الله بن المبارك، والليث بن سعد ..

فلمـا أراد حكـام المسـلمين أن يعطلـوا الشـورى وينفـردوا بالسـلطة، شـجعوا الزهـاد والمتصـوفة علـى اعتزال الحياة والناس، والانشغال بأمور أخرى غير تحقيق مصالح الأمة .. كما شجعوا الفكر الذي يذهب إلـى أن الإنسـان مسير لا مخيـر، وأنـه يجبـر علـى أفعالـه .. وإذن فليتقبـل هـذا الجبـر ! وإذن فليتقبـل استبداد الحكام !

وقد بلغ من حرص المستبدين علـى إقصـاء أهل الورع والصلاح، أن أقاموا لهم مساكن فيها المسـاجد والحدائق والمطابخ. . ليسكنوا فيها، ولا يعملوا شيئاً إلا العبادة ! وأجروا عليهم الأموال الطائلة ! ..

عـاين ابـن تيميـة نفـوذ الصـوفية علـى السـلطان والأمراء والعامة في مصر !

وقد تبعتهم العامة، فكـانوا يقيمـون الأذكـار علـى أنغام خاصة، ويرقصون، ويتطوحون، حتـى يسـقطوا على الأرض، ويتمرغون، وهم يسـتغيثون أوليـاء الله الصـالحين مـن أصـحاب الأضـرحة. . وكثيـر مـنهم انقطع للتسول حول المساجد .. !

لو أن كل واحد من هؤلاء عمل عملاً، لجعلوا صحارى البلاد العربية جنات، ولأقاموا العمائر، ولصنعوا الرخاء لأنفسهم وللآخرين. .

ولكنهم اكتفوا بمتابعة شيوخهم وأقطابهم، وانقطعوا من كل شيء : عن العمل والعبادات معاً، فبحسبهم أن يرضوا الأقطاب ! !

وشاع ذكر كرامات هؤلاء الأقطاب، فأخافوا الناس، ولم يجسر أحد على نقد الصوفية مهما يصنعوا، حذر الانتقام الإلهي منه !. .

ولم ينج بعض علماء الدين من هذا الخوف، وإنهم ليروون قصة أحد أولئك الأقطاب .. كان له مجلس يطرب فيه العامة بالأغاني، ويقيم حلقات للذكر، يجتمع فيها المجاذيب فيرقصون على أنغام. . ثم يقوم بعد هذا ليعظ الناس، فيلحن في القرآن والحديث .

وقام عليه بعض طلبة العلم، وشكوه إلى مشايخهم، فاجتمع قضاة المذاهب الأربعة وعقدوا له مجلساً بالقلعة. وامتحنوه في القرآن والحديث،

فوجدوه كما قال الطلاب، فأفتى القاضي المالكي بمنعه من الوعظ، وامتنع الثلاثة الآخرون، فلم يتكلموا .. فتركهم القاضي المالكي ونزل من القلعة غاضباً، فزلت قدمه على سلم القلعة، فوقع، وانكسرت رقبته. . !

فقام القضاة الثلاثة الآخرون، فقبلوا قدمي القطب الصرفي فقال لهم : نحن أهل الحقيقة لا نلحن، إنما سمعكم هو الذي يلحن .

***

بدأ ابن تيمية معركته مع الصوفية بتفنيد الأفكار الصوفية الشائعة، وكان الصوفية فرقاً متعددة، وإن كانوا جميعاً يعتنقون مذهب محي الدين بن عربي، وتلميذه ابن الفارض .

وقد رفع ابن عربي المسئولية الأخلاقية عن المتصوف حين يغلبه حب الله فيفنى في هذا الحب. . " إن المحب غير مطالب بالقيام بالآداب، إنما يطالب بالأدب من كان له عقل، وصاحب الحب ولهان مدله

العقل، لا تدبير له فهو غير مؤاخذ في كل ما يصدر عنه "

هجر أتباع هذا المذهب من الرجال والنساء كل العبادات، وأهدروا الأعراف الخلقية، وارتكبوا ما شاءوا من المعاصي ! !

جاء ابن عربي بمذهب أسماه " وحدة الوجود " وقال إن الموجود واحد، وإن المخلوق إذا أحب الخالق حل فيه الخالق ! وعندما يصل إلى درجة الحب يصل إلى غيبوبة هي السكر. وهي وحدة الشهود. وهي كوحدة الوجود. . وعندما يصير المتصوف إلى هذا الحال. يصبح صاحب حال. وله حكم آخر ! قال ابن عربي : " إن حكم صاحب الحال حكم المجنون الذي ارتفع عنه القلم، فلا يكتب له ولا عليه. وهل يحاسب المجنون الذي فقد عقله على ما يأتي من أفعال. أوَ يستحق من أجلها مديحاً أو ملامة؟ والله يعلم من عباده المحبين له أنهم غير مطالبين بالقيام بما كلفهم به فأسقط عنه التكليف. بل

زاد فأباح لهم مجاوزة الحدود. أي أحل لهم ما حرم على غيرهم. وأذن لهم أن يفعلوا ما يشاءون "

وهاجم ابن تيمية هذه الآراء في كل دروسه وحلقاته بالمساجد المختلفة، واتهمها بالخروج الصريح على الإسلام، بل على جميع الأديان السماوية، وما تعارف عليه الناس من أخلاق. . ! واستشهد بالمعروف بالآيات القطعية والأحاديث الصحاح. .

ووضح للناس انه ليس عدوا للتصوف، ولكنه عدو لهذا الفكر الذي قاد صاحبه إلى التسوية بين الإيمان والشرك، إذ يقول :

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ويقول :

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد، فذاك رب أو قلت رب، أنى يكلف؟

فهذا الاتحاد في الله والفناء فيه الذي يقول به ابن عربي وأتباعه، واعتبار وجود المخلوق هو وجود الخالق، هو قول أهل الإلحاد الذين هم أضل العباد. وفناء المعبود في العابد والمحب في المحبوب وحالة السكر التي يغيب فيها الإنسان عن نفسه، فليست من لوازم الطريق إلى الله، ولو كانت كذلك لحدثت للرسول وصحابته .

أما الفناء الذي يدعو إليه السلف الصالح من الزهاد والمتصوفة، ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا فهو فناء شرعي، لأنه فناء العبد في الطاعة، " فيفنى عن غير الله بعبادة الله، وعن محبة سواه بمحبته تعالى ورسوله، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث يكون الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما"

هذا هو الذي نادى به عدد من كبار الصوفية واعتنقوه، فأفادوا الإسلام والمسلمين، وكانوا لا يخافون في الله لومة لائم .

أما هذا الفناء والحب والاتحاد، الذي يدعو إلى إسقاط التكاليف، وإباحة كل المحرمات للمحب، فهو الكفر. وبهذا قال الصالحون من الصوفية .. فالشيخ العز بن عبد السلام قال عن ابن عربي : " شيخ سوء مقبوح، يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجاً " .

وقال الشاذلي في أتباع مذهب ابن عربي : " هؤلاء كفار يعتقدون أن الصنعة هي الصانع "

واقتنع عدد من طلاب العلم وشباب العلماء ورواد حلقة الشيخ بما قاله، ومضوا يرددون حججه .

واقتنع عدد كبير من شباب الصوفية بآراء الشيخ، واشتد إنكارهم على ما يفعله زملاؤهم في الصوفية، وعلى ما يعتنقونه .

ومضى الشيخ إلى أصدقائه من العلماء يروي لهم ما كان من أمره مع أهل الطرق الصوفية : "

هؤلاء الصوفية مختلفون، ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم، مع استشعارهم أنهم متفرقون. ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قوله، وسر مذهبهم، صاروا يعظمون ذلك. ولولا ما أقرنه بذلك من الذم، لجعلوني من أئمتهم، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف، كما تبذل النصارى لرؤسائهم، والإسماعيلية لكبرائهم، وما بذل آل فرعون لفرعون "

وفرح العلماء من أصدقاء الشيخ بانتصاره. .

غير أن الفرحة لم تطل، فقد كان من كبراء مصر، من يعتبر ابن عربي إماماً للدين، فهو على مذهب أهل الظاهر في العبادات، ينادي باتباع الكتاب والسنة، وترك المذاهب الأربعة. . ولكنه باطني في العقيدة .

كان لأتباع ابن عربي نفوذ كبير. . وعلى رأسهم الشيخ المنبجي شيخ الأمير بيبرس الجاشنكير وصاحب الكلمة النافذة عليه، وابن عطاء الله

السكندري، وهو متصوف ورع، وعالم من علماء الشريعة الذين يدرسون في الأزهر .

ولكن ابن تيمية لم يحفل بسخط هؤلاء، ومضى يكتب شعراً ساخراً في المتصوفة الذين كانوا يسمون أنفسهم الفقراء !

قال على لسانهم :

والله ما فقرنا اختيار   وإنما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى   أكلنا ما له عيار
تسمع منا إذا اجتمعنا   حقيقة كلها فشار

(فشار بمعنى فشر).

ومضى طلاب العلم وشبابه الذين تحمسوا لابن تيمية، يتغنون بهذه الأبيات على إيقاع الأنغام الصوفية في حلقات الذكر .

فاستخف الناس بالصوفية، وطاردوهم بهذه الأبيات، فكثرت الزراية عليهم. .

فذهب ابن عطاء الله السكندري، ومعه الشيخ نصر المنبجي على رأس جماعة من الصوفية إلى القلعة، فادعوا على ابن تيمية أنه يطعن في الصوفية، ويزري بها ويحرض طلاب العلم على رجالها، وادعوا عليه أنه ينكر الاستغاثة بالرسول ﷺ والتوسل به، وينكر شفاعته للمسلمين .

فعقدت له محكمة من قضاة المذاهب الأربعة، وبعض العلماء. ورأى ابن مخلوف أن يعين قاضيين من مذهبه المالكي، ولم يشهد هو المحاكمة .

قال الشيخ وهو يدخل إلى المحاكمة : "اللهم هب لي نوراً يهتدون به إلى الحق "

وقف ابن عطاء الله السكندري يدعي بالاتهام. وآثر ألا يجعل الاتهام هو الهجوم على ابن عربي، فهو يعرف أن العلماء والقضاة الذين يحاكمونه في شقاق بعيد مع الصوفية، ولهم في ابن عربي وابن الفارض مثل رأي ابن تيمية، وإن كانوا لا يفصحون. . حتى ابن مخلوف شيخ المالكية ينكر

الصوفية وآراءهم وأحوالهم، ولكن يكتم رأيه نفاقاً للأمير بيبرس الجاشنكير. . !

قال ابن عطاء الله السكندري : الفقيه ابن تيمية ينكر الاستغاثة بالرسول ﷺ. " وهذا مخالف للأحاديث الصحيحة. فهو ضلال "

قال الشيخ : " لم يصح عن الرسول ﷺ حديث واحد أمرنا فيه باستغاثته. بل صح عنه النهي عن ذلك. فقد نصح ابن عمه العباس ابن عبد المطلب بأنه إذا استغاث فليستغث الله تعالىوحده. فهو المغيث وهذا من أسمائه الحسنى التي لا شريك له فيها .

نعم لا يستغاث إلا بالله ولا يستغاث بالنبي بمعنى العبارة. ولكن يتوسل به ويتشفع به. وقد جاء في الأحاديث الصحاح أنه ﷺ رزق الشفاعة. وهو حديث جاء في مسند أحمد "

قال رئيس جلسة المحاكمة : " ليس في هذا ضلال ولا كفر، ولكنه قلة أدب "

وتشاور العلماء الموجودون فقالوا : " ليس فيما قاله شيء. . إلا أنه يصدم العرف السائد "

وصمم أحد القضاة من أتباع بيبرس أن يحكم بتعزير الشيخ، أي سجنه أو جلده .

فرفض الجميع. . وقال قاضي القضاة : " أما أن يكون ما قاله كفر فالحكم أن يقتل به، وأما أنه لا شيء فيه فلا موجب للحكم بتعزيره. وما قاله هو في الحقيقة قلة أدب. وقد قلتها له " وطلبت منه المحكمة أن ينصرف إلى حاله .

***

عاد الشيخ إلى مجالسه وحلقاته في المساجد المختلفة، يشدد النكير على الصوفية، ويتهم ابن عربي بالتناقض أو النفاق، كيف يدعو إلى اتباع الكتاب والسنة، وهو في الوقت نفسه، يبيح لصاحب الحال ترك التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج، واقتراف المحرمات ! !

وازداد تشنيع شباب العلماء على الصوفية، وإنكارهم لما يأتونه. فذهب الشيخ المنبجي، وطب

من الأميرين بيبرس وسلار، أن يخلصا الناس من ابن تيمية، فهو يثير الفتنة، والصوفية غاضبون يتوعدون الشيخ وأنصاره فإذا اصطدم الفريقان عمت الفوضى وتهدد الأمن .

واستدعي ابن تيمية إلى القلعة وخيره بين أمور ثلاثة : أما أن يعود إلى دمشق، أو يذهب إلى الإسكندرية، وفي كلا البلدين يجب أن يكف لسانه عن الصوفية، وإما أن يسجن ! .

قال : " السجن أحب إلي مما يدعونني إليه "

ولكن أصدقاء الشيخ وتلاميذه وأتباعه الذين أصبحوا الآن عديدين، ألحوا عليه في العودة إلى دمشق، حيث نائب السلطان هناك صديق له يعرف قدره ولن يضيق عليه .

أعلن الشيخ أنه عدل عن اختياره، واختار العودة إلى دمشق .

وتهيأ للسفر : إلى أمه والصحاب، والطلاب .

***

وصل إلى بلبيس، فلحق به من يستدعيه إلى القاهرة !

لقد أصبح بيبرس هو السلطان فذهب الشيخ المنبجي ومعه الشيخ ابن مخلوف، فألحا على السلطان بيبرس في قتل الشيخ ابن تيمية فهو ينهى عن الاستغاثة بالرسول، وزيارة أضرحة الصالحين، ثم إنه يحرض على الصوفية ويشق صفوفهم، وهذا ابتغاء للفتنة، فهو يستحق القتل !

وتكلم بيبرس مع صديقه وشريكه سلار في أمر الحكم على الشيخ بالإعدام .

ولكن سلار رفض، واكتفى بأن يحكم عليه بالحبس .

وعقدت محكمة لتعيد النظر في أمره. . قال القاضي المالكي وكان مخالفاً لقاضي قضاة المالكية بن مخلوف : " ما ثبت عليه شيء "

فقيل : " الدولة ما ترضى إلا بحبسه "

قال قاضي القضاة : " الحبس مصلحة له. فالصوفية يأتمرون به وسيؤذونه. ففي الحبس حمايته "

فقال الشيخ : " أنا أتبع ما تقتضيه المصلحة وأمضي إلى الحبس "

فقال القاضي المالكي : " يكون في موضع يصلح لمثله "

فقال له : " الدولة لا ترضى إلا بمسمى الحبس "

ولكنهم اتفقوا على أن يوضع في حبس القضاة، وأن يكون عنده من يخدمه .

وحبس القضاة بيت كبير مريح. . ليس كغيره من السجون .

وفي حبس القضاة، أقبل عليه طلاب العلم، ومريدوه، ومحبوه، من الأمراء والتجار يستفتونه، ويسألونه أن يستمر في إلقاء دروسه عليهم هو في حبسه. فأجابهم إلى ما يريدون !

مـرة أخـرى ذهـب ابـن المنبجـي إلـى بيبـرس الجاشنكير، وشكا لـه التفاف النـاس حول ابـن تيميـة في محبسه. . وقال إن الدولـة لم تحبسـه، بل أكرمتـه وأنزلتـه فـي دار ضـيافة، يخـف إليـه فيهـا الـرواد، ويتابع منها نشاطه .

ورسم السلطان بيبـرس الجاشـنكير بإبعـاده مـن القاهرة، ونفيه إلى الإسكندرية .

وأنزلـوه فـي بيـت بالإسـكندرية، عليـه حـرس غلاظ .

ولكن الناس ألانوا الحرس، فتركوا الشيخ يروح ويجيء، ويلتقي بمن يشاء .

ووجد فـي الإسـكندرية حركـة صـوفية قويـة مـن أتبــاع ابــن عطــاء الله الســكندري، فأخــذ يصــاول أفكـارهم، ويعيـب أعمـالهم، وأكـد أن العلمـاء الـذين يســميهم الصــوفية، أهــل الشــريعة، ليســوا أعــداء للصوفية، ولكنهم أعداء للبدع والمنكرات .

وذكرهم بما قاله الشيخ العز بن عبد السلام عن أبي العباس المرسي لما سمع شرحه. قال للناس " اسمعوا هذا الكلام فهو قريب العهد بالله تعالى"

وانشق الصوفية في الإسكندرية على أنفسهم .

وتابعه خلق كثير. وشعر بإكبار طلاب العلم، والعلماء في الإسكندرية .

وتحسب مما يمكن أن يحدث ! !

سيسمع السلطان بيبرس الجاشنكير بهذا، فيأمر بوضعه في السجن، وحجبه عن الناس ! !

أبيبرس الجاشنكير هو السلطان حقاً؟!

ورنت الكلمة في قلبه رنيناً غريباً. .

وماذا صنعوا بالرجل الصالح السلطان الناصر محمد بن قلاوون؟!

قيل له : " لقد تنازل عن الملك طائعاً لينجو بنفسه، وعين أميراً على الكرك ! "

وأغفى الشيخ، وهو يفكر فيما آل إليه الأمر بالسلطان الناصر.

ودعا الله أن يولي أمور المسلمين خيارهم .

***

صحا على أصوات تناديه في لهفة : " يا شيخ تقي الدين. . السلطان يطلبك. . تهيأ للسفر "

ها هو ذا بيبرس الجاشنكير، يطلبه ليضعه في الحبس من جديد، حيث لا يرى ضوء الشمس بعد، ولا يعرف الليل من النهار .

ولكنه بلاء في الله يا تقي الدين، والعقبى للصابرين ! !

وتثاقل وهو ينهض .

فدخل الحجرة عليه رجال يتعجلونه : الفرح يجلجل في أصواتهم، ووجوههم يعلوها البشر !

" السلطان يطلبك. . عجل يا شيخ الإسلام "

"شيخ الإسلام؟! ! أي سلطان يطلبني؟! "

أبشر يا شيخ الإسلام. . عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى ملكه أمس. وكان أول ما رسمه هو الإفراج عنك. وإحضارك إليه .

ونشط الشيخ يعد نفسه للسفر إلى القاهرة وهو يردد بصوت خاشع :﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾. .﴿ وبشر الصابرين ﴾.

الفصل السابع

بلغ ابن تيمية القاهرة، بعد صلاة العصر. وحوله الأمراء المماليك الذين اصطحبوه من الإسكندرية. كأنهم حرس شرف. .

وصحبوه إلى مسكن مريح أعده له السلطان، إلى جوار مسجد الإمام الحسين .

ثم خرج إلى الأزهر، في انتظار آذان المغرب، فعكف على نفسه، يقرأ القرآن وبعض الأوراد، ويتأمل في كل جرى له وللسلطان الناصر، ويتأمل في حكمه الله، وقضائه، ففاضت عيناه بالدمع. . !

وحمد الله على كل ما قدره وقضاه، وسأله اللطف في القضاء. . وبعد صلاة المغرب، فوجئ به ابن عطاء الله السكندري يصلي خلفه، فهش له، وهنأه بسلامة الوصول. . .

وحين أدرك المصلون أن ابن تيمية بينهم، هللوا وكبروا مرحبين به، وأقبلوا عليه يهنئونه بإطلاق

سـراحه، وبعـودة السـلطان الناصـر. . إلا قلـيلا أعرضوا عنه !

وقال ابن عطاء الله : " ألفت أن أصلي المغرب في جامع مولانا الحسين، وأصلي العشاء هنا، فانظر تقـدير الله. . قـدر لـي أن أكـون أول مـن يلقـاك. . أعاتب أنت علي يا فقيه. "

فقـال ابـن تيميـة : " أعـرف أنـك مـا تعمـدت إيذائي، ولكنـه الخـلاف فـي الـرأي. علـى أن كل من آذاني فهو منذ اليوم في حل مني "

قال ابن عطاء الله : " ماذا تعرف عنـي يـا شيخ ابن تيمية؟ "

قـال : " أعـرف عنـك الـورع، وغـزارة العلـم، وحـدة الـذهن، وصـدق القول، وأشـهد أنـي مـا رأيـت مثلك في مصر ولا فـي الشـام حبـاً لله أو فنـاء فيـه أو انصياعاً لأوامره ونواهيه. ولكنه الخلاف في الـرأي. فماذا تعرف عني أنت لتدعي علـي بالضـلال إذ أنكـر استغاثة غير الله "

قال ابن عطاء الله : " إني أعجب لك يا فقيه. فأنت نصير للسنة تستوعب الآثار حفظاً وفهما، كامل الفكر سريع الإدراك، ولكنك تطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وتخرج فيها عن مذهب إمامك أحمد، ومذاهب سائر الأئمة "

فقال ابن تيمية : " من تعصب لمذهب بعينه، فقد أشبه أهل الأهواء، وغاية المتعصب لواحد من أئمة المذاهب، أن يكون جاهلا بقدره في العلم والدين، وقدر الآخرين. فيكون ظالماً، والله ينهى الإنسان عن الجهل والظلم، ويأمر بالعلم والعدل. قال تعالى:﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولاً﴾. وهذا أبو يوسف ومحمد كانا أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله، خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى، لما تبين لهما من السنة والحجة ما أوجب عليهما اتباعه .

وهما في ذلك يعظمان إمامهما. وأنا أقول بما قام عليه الدليل عندي لا أداهن ولا أحابي. وما يظن أن أحداً من فقهاء هذا الزمان أشد حبا لرسول ﷺ

منــي، ولا أكثــر اتباعــاً لــه منــي. فــإذا صــح عنــدي الحــديث تركــت أقــوال الأئمــة، وأخــذت بــه، وبهــذا نصحوا هم أنفسهم "

قــال ابــن عطــاء الله : " أمــا آن لــك يــا فقيــه أن تعــرف أن الاســتغاثة هــي الوســيلة والشــفاعة، وأن رسول الله ﷺ يستغاث، ويتوسل به، ويستشفع به؟"

قــال ابــن تيميــة : " أنــا فــي هــذه أتبــع الســنة الشـريفة. فقد جـاء فـي الحـديث الصـحيح : (أعطيـت الشــفاعة). وقــد أجمعــت الآثــار فــي تفســير الآيــة الكريمــة :﴿ عســى أن يبعثـك ربـك مقامـاً محمـوداً﴾، على أن المقام المحمود هو الشفاعة. والرسول ﷺ، لما ماتـت أم مير المـؤمنين علـي، رضـي الله عنهمـا، دعــا لهــا الله علــي قبرهــا : (الله الــذي يحــي ويميــت، وهـو حـي لا يمـوت، اغفـر لأمـي فاطمـة بنـت أسـد، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلـي، فانك أرحم الراحمين). فهـذه هـي الشـفاعة. أمـا الاستغاثة ففيها شبهة الشرك بالله تعإلى، ولهذا منعها سداً للذرائع. قـال تعـالى:﴿ ولا تـدعوا مـع الله أحداً﴾.

صدق الله العظيم. " وقد أمر الرسول ابن عمه عبد الله بن العباس ألا يستعين غير الله "

قال ابن عطاء الله : " أصلحك الله يا فقيه. أما نصيحة الرسول ﷺ لابن عباس، فقد أراد أن يتقرب إلى الله بعمله لا بقرابته من الرسول، وأما فهمك أن الاستغاثة استغاثة بغير الله فهي شرك، فمن المسلمين الذين يؤمنون بالله ورسوله يحسب أن غيره تعالى يقضي ويقدر ويثيب ويعاقب؟!. . إنما هي ألفاظ لا تؤخذ على ظاهرها، ولا خوف من الشرك لنسد إليه الذريعة !. . فكل من استغاث الرسول، فهو إنما يستشفع به عند الله مثلما تقول أنت، أشبعني هذا الطعام فهل الطعام وهو الذي أشبعك أم أن الله تعالى هو الذي أشبعك بالطعام؟. . وأما قولك إن الله نهانا أن ندعو غيره، فهل رأيت من المسلمين أحداً يدعو غير الله؟ إنما نزلت هذه الآية في المشركين الذين كانوا يدعون آلهتهم من دون الله ! إنما يستغيث المسلمون محمداً ﷺ بمعنى التوسل بحقه عند الله، والتشفع بما رزقه الله من

شفاعة. أما تحريمك الاستغاثة لأنها ذريعة إلى الشرك، فإنك كمن أفتى بتحريم الاستغاثة لأنها ذريعة إلى الشرك، فإنك كمن أفتى بتحريم العنب، لأنه ذريعة إلى الخمر، ويخصي الذكور غير المتزوجين سداً للذريعة إلى الزنا. . !. . " وضحك الشيخان .

واستطرد ابن عطاء الله : " وأنا أعلم ما في مذهب شيخكم الإمام أحمد من سعة، وما لنظرك الفقهي من إحاطة. فسد الذرائع عندكم مشروط بظروفه، فيمنع المباح إذا أدى إلى ضرر يغلب وقوعه، كتحريم بيع السلاح في زمن الفتنة، أو تحريم زيادة السعر في البيع إذا كان الثمن يدفع على فترات، سداً للذريعة إلى الربا. إن الأخذ بظاهر المعنى يوقع في الغلط أحياناً يا فقيه. ومن هذا رأيك في ابن عربي، وهو إمام ورع من أئمة الدين. فقد فهمت ما كتبه على ظاهره، والصوفية أصحاب إشارات وشطحات روحية، ولكلماتهم أسرار، فكان يتعين على من هو في مثل حذقك، وحدة ذهنك،

وعلمك باللغة أن يبحث عن المعاني المكنونة الخفية، وراء ظاهر الكلمات. فالمعنى الصوفي روح، والكلمة جسد، فاستقص ما وراء الجسد لتدرك حقيقة الروح. ثم إنك اعتمدت في حكمك على ابن عربي، على نصوص قد دسها عليه خصومه !. . أما شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، فانه لما فهم كتابات الشيخ، وحل رموزها وأسرارها، وأدرك إيحاءاتها، استغفر الله عما سلف منه، وأقر بأن محي الدين بن عربي إمام من أئمة الإسلام .

وأما كلام الشاذلي، فليس أبو الحسن الشاذلي هو الذي قاله، بل أحد تلاميذه من الشاذلية، وهو ما قاله في الشيخ ابن عربي، بل في بعض المريدين الذين فهموا كلامه على غير وجهه "

وسكت ابن عطاء الله قليلاً ثم سأل : " ما رأيك في شيخك الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه؟ "

قال : " أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان. ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصاً، كما يوجد لغيره،

ولا يوجد لى قول ضعيف، إلا وفي مذهبه في الغالب قول يوافق الأقوى، وأكثر ما انفرد به مخالفا مذهب غيره، يكون قوله راجحاً، كقبول شهادة أهل الذمة على المسلمين عند الحاجة، وكالوصية في السفر وغير ذلك من المسائل "

سأل ابن عطاء الله : " ما رأيك في أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب؟ "

أجاب ابن تيمية : رضي الله عنه وأرضاه. في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (أنا مدينة العلم وعلى بابها) وهو المجاهد الذي لم يبارز أحداً إلا غلبه. فسن للعلماء والفقهاء من بعده أن يجاهدوا في سبيل الله باللسان والقلم والسيف جميعاً. وكان كرم الله وجهه أقضى الصحابة، وكلماته سراج منير أستضيء به في حياتي، بعد الكتاب والسنة، وآه من قلة الزاد وطول السفر ! "

فقال ابن عطاء الله : " فهل يسأل أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، من شايعوه، فغالوا، وزعموا أن جبريل أخطأ، فجاء

بالرسالة محمداً ﷺ بدلاً من علي !؟ أو عن الذين زعموا أن الله حل في جسده، فصار الإمام إلهاً؟!. . ألم يقاتلهم وقتلهم !؟. . أما أفتى بقتلهم أينما ثقفوا. .؟! "

قال ابن تيمية : " وبهذه الفتوى خرجت لقتالهم في الجبل بالشام منذ أكثر من عشرة أعوام "

استمر ابن عطاء الله : " والإمام أحمد رضي الله عنه، أيسأل عما فعله بعض أتباعه، من كبس الدور، وإراقة الخمر، وضرب المغنيات والراقصات، واعتراض الناس في الطرقات باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! ! ! فما أفتى رضي الله عنه بتعزير هؤلاء، فجلدوا وسجنوا، وطيف بهم مقلوبين على ظهور الحمير؟! أم هل الإمام أحمد رضي الله عنه مسئول عن تلك الأعمال التي ما زال أراذل الحنابلة يأتونها حتى يومنا هذا باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! "

قال ابن تيمية : " فالشيخ محي الدين بن عربي، بريء مما يصنعه أتباعه من إسقاط التكاليف الدينية،

واقتـراف المحرمـات؟!. . أتـرى هـذا؟ ولكـن أيـن تذهبون من الله، وفيكم من يزعم أن صلى الله عليه بشـر الفقـراء، بـأنهم يـدخلون الجنـة قبـل الأغنيـاء، فسقط الفقـراء منجذبين، ومزقـوا ملابسـهم. وعندئـذ نزل جبريل وقال للنبي إن الله تعالى يطلب حظه من هذه المزق، فحمل جبريل واحدة منها وعلقها على عرشـه تعـالى؟!.. وهـذا يلـبس الصـوفية المرقعـات ويسمون أنفسهم الفقراء ! ! "

قال ابن عطاء الله : " ما كل الصوفية يلبسون الخرق، وهأنذا أمامك، فما تنكر من هيئتي؟! "

قـال ابـن تيميـة : " أنـت مـن رجـال الشـريعة وصاحب حلقة في الأزهر"

قال ابن عطاء الله : " والغزالي كان إماما في الشريعة والتصوف على السواء. وقد عالج الأحكام والسنن الشرعية بروح المتصوف، وبهذا المنهج استطاع إحياء علوم الدين. نحن نعلم الصوفية أن القذارة ليست من الدين، وأن النظافة من الإيمان،

وأن الصوفي الصادق يجب أن يعمر قلبه بالإيمان الذي يعرفه أهل السنة .

لقد ظهر بين الصوفية منذ قرنين من الزمان، أشياء كالتي تنكرها الآن، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات. .. وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، كما وصفهم القشيري الإمام الصوفي العظيم فوجه إليهم الرسالة القشيرية، ترسم طريق الصوفي إلى الله وهي تمسكه بالكتاب والسنة .

إن أئمة الصوفية يريدون الوصول إلى الحقيقة، لا بالأدلة العقلية التي تقبل العكس، بل بصفاء القلب ورياضة النفس، وطرح الهموم الدنيوية، فلا ينشغل العبد بغير حب الله ورسوله، وهذا الانشغال السامي، يجعله عبداً جديراً بعمارة الأرض، وإصلاح ما أفسده حب المال، والحرص على الجاه، والجهاد في سبيل الله "

قال ابن تيمية : " هذا الكلام عليك لا لك، فالقشيري لما رأى أتباعه يضلون الطريق، قام عليهم ليصلحهم. فماذا فعل شيوخ الصوفية في زماننا؟ إنما أريد من الصوفية أن يسيروا على سنة هذا السلف العظيم من زهاد الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان. إني أقدر منهم من يفعل ذلك وأراه من أئمة الدين. أما الابتداع وإدخال أفكار الوثنيين من متفلسفة يونان وبوذية الهند، كادعاء الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، ونحو ذلك مما يدعو إليه صاحبك هو الكفر المبين "

قال ابن عطاء الله : " ابن عربي رضي الله عنه كان أكبر فقهاء الظاهر بعد ابن حزم الفقيه الأندلسي المقرب إليكم يا معشر الحنابلة. كان ابن عربي ظاهرياً في الشريعة، ولكنه يسلك إلى الحقيقة طريق الباطن، أي تطهير الباطن !. . وليس كل أهل الباطن سواء !. . ولكيلا تضل أو تنسى، أعد قراءة ابن عربي بفهم جديد لرموزه وإيحاءاته، تجده مثل القشيري قد اتخذ طريقه التصوف في ظل ظليل من

الكتاب والسنة. إنه مثل حجة الإسلام الشيخ الغزالي، يحمل على الخلافات المذهبية في العقائد والعبادات، ويعتبرها انشغالاً بما لا جدوى منه، ويدعو إلى أن تكون محبة الله هى طريقة العبد في الإيمان. فماذا تنكر من هذا يا فقيه؟ أم أنك تحب الجدل الذي يمزق أهل الفقه : (كلما جاء رجل أجدل من رجل، نقص الدين). قال الغزالي : (اعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس) إن أهل السنة هم الذين لقبوا الغزالي – شيخ المتصوفة – بحجة الإسلام، ولا معقب على آرائه، فقد غالي بعضهم في تقدير كتابه إحياء علوم الدين فقال : " كاد لإحياء أن يكون قرآنا. " إن أداء التكاليف الشرعية في رأي ابن عربي وابن الفارض، عبادة محرابها الباطن، لا شعائر ظاهرية. فما جدوى قيامك وقعودك في الصلاة إذا كنت مشغول القلب بغير الله؟! .. مدح الله تعالىأقواماً بقوله تعالى:﴿ والذين هم في صلاتهم

خاشعون﴾، وذم أقواماً بقوله تعالى:﴿ والذين هم في صلاتهم ساهون ﴾. وهذا هو الذي يعنيه ابن عربي بقوله : ان التعبد محرابة القلب أي الباطن، لا الظاهر !. . إن المسلم لا يستطيع أن يصل إلى إدراك علم اليقين وعين القين، إلا إذا أفرغ قلبه مما يشوش عليه من أطماع الحياة الدنيا، وركز في التأمل الباطني، فغمرته فيوض الحقيقة. ومن هنا تنبع قوته. فالصوفي الحق ليس هو الذي يستجدي قوته، ويتكفف الناس، إنما هو لصادق الذي يهب روحه وقلبه، ويفنى في الله بطاعة الله، ومن هنا تنبع قوته، فلا يخاف غير الله. . ولعل ابن عربي قد أثار بعض الفقهاء لأنه أزرى على اهتمامهم بالجدل في العقائد، مما يشوش على صفاء القلب، ثم في فروع الفقه وافتراضاته فأسماهم فقهاء الحيض وأعيذك بالله أن تكون منهم. .

ألم تقرأ قول ابن عربي : (من يبني إيمانه بالبراهين والاستدلالات، لا يمكن الوثوق بإيمانه، فهو يتأثر بالاعتراضات. فاليقين لا يستنبط بأدلة

العقل إنما يغترف من أعماق القلب). ألم تقرأ هذا الكلام الصافي العذب قط؟! "

قال ابن تيمية : (أحسنت والله .. إن كان صاحبك كما تقول فهو أبعد الناس عن الكفر، ولكن كلامه لا يحمل هذه المعاني)

قال ابن عطاء الله : " إن له لغة خاصة، وهي مليئة بالإشارات والرموز والإيحاءات والأسرار والشطحات. . ولكن فلنشتغل بما هو أجدى، بما يحقق مصلحة الأمة. فلنشتغل بدفع الظلم، وحماية العدل المنتهك .. أرأيت ما فعله الفاسقان ببيرس وسلار بالرعية، منذ خلع الناصر نفسه، فانفردا بالحكم؟! والآن عاد السلطان الناصر، وهو يؤثرك على كل الفقهاء، ويسمع لك. فأسرع إليه وانصح له. .

***

في الصباح، جاء أحد الأمراء من رجال القصر السلطاني، يدعو ابن تيمية إلى مقابلة السلطان. واستفسر منه الشيخ عما جرى للسلطان، فروى له

الأمير كل شيء : لقد أراد الأميران سلار وبيبرس أن يثبا على السلطان، فيقتلاه، ولكن السلطان أحس المكيدة. فأعلن أنه ذاهب إلى الحج بكل أهله ومماليكه. وجهز له الأميران موكبا ضخماً يصحبه، ومئونة الحج، يحملها خمسمائة من الإبل، وقدم له الأمراء هدايا نفيسة نادرة .

وعندما بلغ السلطان مدينة الكرك، لجأ إلى قلعتها، فأقام بها هو وأهله ومماليكه، وأعلن أنه تنازل عن الملك، ورد شارات السلطنة، ورد معها الإبل بما حملت، وطلب أن يعود كل هذا لبيت المال، ورد هدايا الأمراء وطلب أن تعاد إلى أصحابها. .

ولكن الأميرين سلار وبيبرس، استوليا على كل ما رده السلطان، وحين طالب الأمراء بالهدايا، أغلظ لهم بيبرس، وتوعدهم، ولم يرد شيئاً. . !

ورشح سلار نائب السلطان لتولي الملك، ولكنه قام فبايع بيبرس، وآثر أن يظل نائباً للسلطان. . ذلك أن سلار بدهائه رأى أنه لن يكسب من منصب

الملـك، إلا القلـق علـى حياتـه مـن دسـائس الأمـراء الآخـرين، وأنــه سيخسـر تجارتــه بالمســاكن التــي يؤجرهـا لأهل الفسـاد، ونصـيبه مـن سـائر التجـار، الذين يعتمدون عليه في رفع الأسعار .

ولمـا بويـع بيبـرس، نازعـه بعض الأمـراء فـي مصـر حقـه فـي السـلطنة، ورفـض البيعـة لـه أكثـر الأمراء من ولاة الأقاليم في ديار مصر وديـار الشـام فأغـدق علـيهم أمـوالاً طائلـة نهبهـا مـن بيـت المـال، وقامت عليـه العامـة ترفضـه وتهتـف بحيـاة السـلطان الناصـر وفـي مقدمـة هـؤلاء طـلاب العلـم، وشـباب العلماء، والصالحون منهم. .

وبطــش بيبــرس بمعارضــيه، وأطلــق علــيهم عصــابة ســلار مــن الشــطار والحــرافيش، البغايــا، والفتــاك، والقــوادين، والمخنثـين، ينهبـون أمـوالهم، ويشنعون عليهم ! .. واشتد غضب الأمراء والعامة .

أما العامة فألقوا الحجـارة علـى موكـب السلطان الجديـد بيبـرس، ونـائبـه سـلار، وواجهوهمـا بـالهتـاف

للسلطان الناصر. وأما الأمراء، فقد تركوا مصر، وانحازوا إلى الناصر بالكرك .

والناصر يرسل لبيبرس و سلار، متظاهراً بالخضوع والطاعة، وشاع أن السلطان سيتحرك إلى القاهرة ليسترد الملك، فأرسل بيبرس وسلار رجالاً عربدوا على السلطان، وأهانوه، وأنذروه أن يرد الأمراء الهاربين، وسائر مماليكه، وما عنده من خيل وسلاح، وإلا قيدوه، ونفوه إلى القسطنطينية. . !

فرد عليهم السلطان الناصر رداً أظهر فيه الموافقة، وطلب مهلة لتنفيذ الأوامر السلطانية .

ثم أرسل إلى الأمراء من ولاة أقاليم الشام ومصر رسالة قال فيها : "لما اشتد علي الضنك من الأمراء، خرجت من مصر، وتركت لهم الملك، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن، وأضيق الأماكن، ليستريح خاطري من النكد، فما تراجعوا عني، وأرسل بيبرس يهددني بالنفي، ويطلب مني ما لا أقدر عليه. وأنتم تعلمون ما لوالدي الملك

المنصور عليكم من العتق والتربية، وما أظنكم ترضون لي بهذه الحال "

فأجابوه بأنهم مماليك أبيه، وهم طوع أمره إن أراد أن يسترد الملك .

وخرج السلطان الناصر إلى دمشق بأهله، ومماليكه، ومن انضم إليه من الأمراء، فهرع إليه نائبه على دمشق له يقدم الولاء والاعتذار عما سلف منه من بيعته للسلطان بيبرس. .. !

وعلم الناس أن السلطان قد تحرك في اتجاه القاهرة، وكلما مر بولاية، انضم إليه أميرها، فقام أهل القاهرة يسبون بيبرس، فنثر عليهم الذهب، ولكنهم لم يحفلوا به، ولم ينحن أحد لالتقاط قطعة ذهبية !

وجن جنون بيبرس، واتهم سلار بالتآمر عليه، فأمر بمهاجمة بيوت الفساد التي يملكها سلار، وانقض جنود بيبرس على هذه البيوت فنهبوا ما فيها، وضربوا نساءها وغلمانها وقواديها، واستولوا على الخمور والحشيش. .

وانتهز بعض الناس الفرصة، فدلوا على بيوت خصومهم، زاعمين أنها من بيوت الفساد التي يؤجرها سلار، فهاجم رجاله كثيراً من البيوت فسرقوا، وانتهكوا الحرمات، مما ضاعف السخط على بيبرس .

وجاء النيل منخفضاً، فشحت الأقوات، وارتفع سعر القمح واللحم والخضر، وبالغ التجار الكبار من شركاء سلار في رفع الأسعار، وأهمل عمال النظافة شوارع القاهرة، فانتشرت الحشرات السامة، والفيران، وجاء وباء، فرفع التجار أسعار الدواء، وشاعت الرشوة، وخرج الناس يحملون أكفانهم، وتجمعوا أمام القصر السلطاني بقلعة الجبل، يطالبون بيبرس برد ما نهبه من بيت المال، وترك الملك للسلطان الناصر، الذي اقترن عهده بالرخاء والأمن. . !

ولاذ بيبرس بالخليفة، وحمل إليه مالاً كثيراً، وبعض الجواري الحسان والغلمان .

كان الخليفة قد شغل بملذاته، يقضي ليلة سكران مخدراً، مستمعاً بما أغرقه فيه سلار وبيبرس من متاع .. ! .. واقتحم بيبرس مخدع الخليفة في ذلك النهار فوجده نائماً، فأيقظه، فعقد الخليفة وهو نصف نائم مجلساً من القضاة الأربعة، ومن العلماء الذين قبلوا دعوته، والأمراء القلائل الذين اصطنعهم بيبرس وأغرقهم بالأموال .

وطالبهم الخليفة أن يجددوا البيعة للسلطان بيبرس، فبايعوه وأفتى القضاة الأربعة ومن حضر المجلس من العلماء، أن الناصر محمد بن قلاوون خرج على إجماع الأمة، وأثار فيها الفتنة، فيجب قتله شرعاً. وأصدر الخليفة بياناً إلى أمراء المسلمين وعسكرهم وعامتهم، أعلنهم فيه " أن طاعة السلطان بيبرس واجبة عليهم، لدينه، وبذلك أفتى القضاة الأربعة، فمن عصاه فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى أبا القاسم ابن عمي ﷺ. وبلغني أن الملك الناصر بن الملك المنصور شق العصا على المسلمين، وفرق كلمتهم، وشتت شملهم، وأطمع

عدوهم، وعرض البلاد الشامية والمصرية إلى سبى الحريم والأولاد وسفك الدماء. . وأنا خارج إليه ومحاربته، إن استمر على ذلك، لأدفع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولاهم هذا الأمر العظيم، وأقاتله حتى يفيء إلى أمر الله تعالى، وقد أوجبت يا معشر المسلمين الخروج تحت لوائي، وهو اللواء الشريف، وقد أجمع القضاة الأربعة والعلماء والفقهاء على وجوب دفعه وقتاله إن استمر على ذلك، وأنا مستصحب معي لذلك السلطان المظفر ركن الدين بيبرس، فجهزوا أرواحكم " .

عاد الخليفة إلى مخدعه ليكمل نومه، وخرج القضاة الأربعة ومن حضر معهم من العلماء والفقهاء، ليذيعوا هذا البيان من فوق منابر المساجد، فلما وصلوا إلى ذكر السلطان الناصر، دوت المساجد بالهتافات : " يا ناصر يا منصور. . لا سلطان إلا الناصر محمد ابن قلاوون. الله يخون الخائن. . " فأصدر بيبرس أمره بمنع قراءة بيان الخليفة، ومضى يجهز جيشاً يقوده الخليفة، للخروج

إلى السلطان الناصر، غير أن أمراء الجيش امتنعوا عليه، ورفضوا محاربة الناصر!!

واستدعى بيبرس نائب سلار، ومن بقي على الولاء من أمراء المماليك، والقضاة الأربعة فأشار سلار على بيبرس أن يتنحى عن الملك، ويرسل إلى السلطان الناصر معتذراً، ملتمساً تعيينه في منصب خارج مصر. ووافق الأمراء على اقتراح سلار، فأعلن بيبرس أنه يخلع نفسه عن الملك، وسيتولى الأمير سلار الملك، حتى يعود السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

وعاد السلطان الناصر إلى القاهرة، فخرج أهلها جميعاً يعلنون الفرحة بمقدمه حتى النساء والأطفال، وجاء أهل القرى يشاركون في الفرحة بزوال الكابوس، وعودة السلطان، فبالغ أصحاب الحانات وبيوت الكراء في رفع الأسعار، وتقاضى أصحاب الحوانيت التي يمر بها الموكب السلطاني، أجرة ممن يقفون أمام حوانيتهم للترحيب بالسلطان ! !

أما بيبرس، فقد خرج بأهله ومماليكه من القاهرة، بعد أن استولى على ما استطاع من بيت المال، غير أن السلطان لم يكد يستقر في قصره، حتى أمر بالقبض على بيبرس، واسترداد كل ما نهبه من بيت المال. وأرسل إلى القضاة الأربعة والفقهاء الذين تابعوا بيبرس سلطانا يستفتيهم في أمره، فأفتوا بقتله هو وسلار ! فكلاهما طغى وبغى في الأرض، وأكثر فيها الفساد. فوجب قتله شرعاً ..!

وجاء بيبرس في الأصفاد، فارتمى على قدمي السلطان يقبلهما، ويتعطفه. فأمره السلطان بأن ينهض، فوقف مرتعداً، فأمره بالجلوس .

وأخذ السلطان يذكره بما اقترفه في حق الناس وحق السلطنة ..

وصار يعدد له : " أتذكر يوم صحت علي بسبب فلان؟ ورددت شفاعتي في حق فلان؟ ويوم منعت عني بعض ما طلبته من المال؟ ويوم حرمتني السكر والحلوى واللوز؟ "

فأجاب بيبرس : " يا مولاي. كل ما قلته فعلته، ولم يبق إلا مراحم مولانا السلطان، وايش يقول المملوك لأستاذه؟ "

فقال الناصر : " أنا اليوم أستاذك، وأمس كنت تقول لي عندما طلبت أوزاً مشوياً : " ايش يعمل بالوز. هو الأكل عشرون مرة باليوم "

وأمر السلطان بإعدامه خنقاً .

أما سلار، فقد التمس من السلطان أن يعينه أميراً على الشوبك، فأجابه. .

وسافر الرجل، غير أن السلطان سمع عن تجارته الشائنة، وعما نهبه من بيت المال، فأرسل في أثره من يرده مقبوضاً عليه، ويصادر ثروته التي يحملها معه، فجاءوا بنحو خمسين جملاً محملة بالذهب والجواهر والدنانير، والأقمشة المحلاة بالأحجار الكريمة. وألقاه السلطان في السجن بلا طعام أو شراب. . حتى إذا عذبه الجوع والعطش بعد أيام، أمر السلطان فقدموا إليه أواني ثلاثاً، فلما كشفها في لهفة ليأكل ويشرب، وجد في إحداها ذهباً،

وفـي الثانيـة فضـة، وفـي الثالثـة جـواهر .. ! فهلـك غماً، وجوعاً وعطشاً. .

وجـاء الخليفـة فلـم يسـتقبله السـلطان، وأبقـاه فـي الانتظـار طـويلاً، فلمـا دخـل يهنـئ السـلطان، قـبض يده، وقال : " كيف تسلم علـى خـارجي؟ .. هل كنـت خـارجياً وبيبـرس مـن سـلالة العبـاس؟ " وعنفـه علـى فسقه وفجـوره، ثـم أصـدر قـراراً بخلعـه وسـجنه فـي جب القلعة، ثم نفاه إلى مدينة قـوص بأقصـى الصـعيد حيث ألقى في سجنها .. !

أمـا القضـاة والعلمـاء الـذين بـايعوا بيبـرس فقـد جاءوه مهنئين، فلم يقبل منهم التهنئة، وقـال لشـيخهم : " يا قاضـي، أنـت تفتـي المسلمين بقتـالي؟ " فقـال : " معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك .! إنمـا الفتـوى علـى قدر كلام المستفتي "

فصرفهم السلطان في غلظة، وأمرهم أن يلزموا قصـورهم التـي اقتنوهـا بمـنح بيبـرس وسـلار علـى خلجان القاهرة وبحيراتها وحدائقها. . وقـال لهم إنهم اشتروا هذه القصور بمال حرام، فلا حق لهم فيها !

وقرر السلطان أن يقتلهم جميعاً، ولكنه انتظر فيهم رأى ابن تيمية، وكلهم من خصوم الشيخ، اتهموه بالكفر، وآذوه وحرضوا بيبرس وسلار على قتله، وكانوا يغرون به السلطان الناصر نفسه من قبل. . !

***

توالت الدقات الحذرة، على باب الشيخ تقي الدين بن تيمية، قبل الفجر .. وإذا بالقضاة الأربعة، ومعهم بعض العلماء يقفون متهالكين أمام باب الشيخ. . !

وأكرمهم الشيخ بما وسعه، وبادروه بالاعتذار، واعترفوا له أن تعصبهم عليه، حملهم على السعي في قتله، وأن ما ناله من أذى، فهو بما عملت أيديهم، وسألوه الصفح والعفو الجميل، والشفاعة لهم عند السلطان، فهو لو أخذهم بما عملوا، لوجد في الشرع ما يبيح له قتلهم، أو بالقليل سجنهم !. . ومصادرة ما يملكون !

وقال له المنبجي : " وأنا والله لن أخالفك أبداً، وحتى رأيك في شيخنا ابن عربي أقسم بالله أن أسكت عنه، وأن أفكر فيه "

فقال الشيخ مبتسماً : " ابن عربي هو أقرب أهل الاتحاد والحلول إلى الإيمان .. فهون عليك، ولك رأيك فلا تعدل عنه خوفاً أو طمعاً .وأما أنتم جميعاً فاعلموا أصلحكم الله، أن كل من سعى في قتلي أو آذاني فهو في حل من جهتي "

فكبروا، وقام بعضهم فقبل يده. ثم انصرفوا شاكرين. .

***

لم يكد الشيخ يقصد إلى السلطان في قاعة عرشه، حتى هب لاستقباله، فتلقاه بالعناق على مدخل القاعة، وقبل يده. ولم يفلح الشيخ في سحب يده، فقد أصر السلطان على تقبيلها قائلاً : " أنا لم أقبل يد أحد إلا ابن دقيق العيد رحمه الله، ويدك يا شيخ الإسلام أمد الله في عمرك، ونفعنا بدعائك ونصحك !. . لمن من العلماء ينحني الملوك إن لم

يكن لأمثاله وأمثالك. أتعرف يا شيخ. جاءني أحد العلماء فحاول أن يقبل الأرض بين قدمي فصحت فيه : " ليس هذا للعلماء : أهل العلم منزهون عن هذا. . إنما ينحني لكم الملوك، فما نهض حتى ركلته بعيداً "

فقال الشيخ : " أصلح الله أحوال الراعي والرعية. . العلماء ورثة الأنبياء، كما جاء في الحديث الصحيح "

قال السلطان : " قل لي يا مولانا شيخ الإسلام. لقد صح عندي أن الشرع يحتم علي قتل هؤلاء القضاة والعلماء الذين جددوا البيعة لبيبرس الفاسق المفسد وزعموا أنهم يجددون بيعته لصلاحه ودينه، وأفتوا بأني خارجي يجب قتله، ولقد هممت بأن أصدر الحكم عليهم، وإعادة أملاكهم وقصورهم إلى بيت المال. فقد ملكوها من الأموال التي أغدقها عليهم بيبرس وسلار، وهي أموال منهوبة من مال الله الذي استخلفنا فيه لإصلاح أمور الرعية. . ولكني انتظرت، وأمرتهم بالتزام دورهم وقصورهم.

حتى يطمئن قلبي بما تفتي به، ولكن فكر قبل أن تصدر فتواك، في أمر ما يملك هؤلاء الشيوخ من إماء، فقد سمعت أن بعضهن حوامل، فما حكم الشرع فيهن؟! "

فقال ابن تيمية : " أصلح الله السلطان، وأصلح به أحوال الرعية، قد والله أحسنت أن سكت عليهم، في انتظار مقدمي وفتواي فيهم. فالفتوى، أنه لا يحل قتلهم فعساهم كانوا مكرهين في تجديد بيعة بيبرس، وفي إفتائهم بمحاربتك. وخوف الحاكم الباطش الفاسد، باب من أبواب الإكراه. ولا مسئولية على المكره. والعفو عنهم أحرى بك. والله غفور رحيم "

فقال السلطان : " أأنت تفتي بهذا؟ .. كيف؟ إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً؟ " قال ابن تيمية : " من آذاني فهو في حل مني، ومن آذى الله ورسوله، فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي "

فقال السلطان : " أما أنا فأنتصر لنفسي ولحقوق الناس. ماذا لو أطاع الجند فتواهم، وخرجوا لقتالي. ما كانت فتواهم خوفاً، بل كانت طمعاً "

فقال الشيخ : " مهما يكن من أمرهم، فالعفو من مثلك أحرى، انك إن قتلتهم، فلن تجد بعدهم مثلهم "

وما زال الشيخ بالسلطان يحاوره، حتى لقد كاد يستعطفه في العفو عن هؤلاء القضاة والعلماء .

وأخيراً قال السلطان : " والله يا شيخ الإسلام إني لأعرف أنهم جميعاً يستحقون الشنق على أبواب القاهرة، ولكني أعفو عنهم إرضاء لك، واستجابة لشفاعتك، وإكراماً لخاطرك. على أن لي شرطاً : أن تقيم عندنا في القاهرة، تعلم في المدارس والجوامع، وتكون إلى جواري فتعظني. هداني الله بك "

وافق الشيخ. وخرج يحمل بشرى العفو للقضاة والعلماء وحرص السلطان على أن يذيع في الناس، أنه عفا عنهم، إجابة لفتوى ابن تيمية وشفاعته .

مضى هذا النفر من خصوم الشيخ يلهجون بذكره، ويثنون عليه، وفي مقدمتهم القاضي ابن مخلوف. قالوا : " ما رأينا مثل ابن تيمية، حرضنا على قتله، وسعينا في دمه، فلم نقدر، وقدر علينا فصفح ودافع وحاج عنا "

***

انصرف ابن تيمية إلى التدريس، والإجابة على من يستفتونه، وأرسل إلي دمشق يطلب كراريس كتبه، ليتم الكتابة في مصر. ووجد في مكتبات القاهرة كل ما يحتاج إليه من مراجع .

كان قليل الذهاب إلى السلطان، ولكن السلطان كان يدعوه إليه، إذا غاب عنه أياماً. وكان ينصح للسلطان، فيستجيب .

وتحدث الشيخ إلى السلطان في كثير مما ينكره : فالنساء يذهبن إلى العرافين لاستطلاع الغيب، وكتابة الأحجبة استبقاء لحب الأزواج، وليرزقن بالأولاد. وكان هؤلاء العرافون يستولون على أموال كثيرة من زائراتهم، ومنهم من كان يفسق بمن تطاوعه. . وقد اشتهر أمر عرافة ألفت أن تغلق الباب إذا قصدتها امرأة جميلة، فلما ماتت هذه العرافة، اكتشفوا أنها كانت رجلاً !. .

والنساء يذهبن إلى الكتاب، لكتابة الشكاوى والمظالم، وهناك يلتقون بالرجال، ويتربص بهن

بعض الغزلين من الشباب، مما ينشأ عنه فساد عريض !

والنساء يخرجن إلى الأسواق متبرجات، ويبالغن في زينتهن، مما يغري الرجال بالتعرض لهن !. . ثم إنهن في ليالي الأعياد يبتن في القبور ! .

وأصدر السلطان أوامره بمطاردة العرافين وتعزيرهم، وكبس بيوتهم، وتعزيز أولياء من يكون بها من النساء : آباء كانوا أم أزواجاً !

وشهدت القاهرة رجالاً يجلدون ويسجنون، ويطاف بهم مقلوبين على الحمير، لأن نساءهم يزرن العرافين !

ومنع السلطان تردد النساء على الكتاب وخروجهن إلى الشوارع بغير محرم، وخروجهن متبرجات أو متزينات، أو يبتن في القبور .

وهكذا قضى السلطان على كل ما أنكره الشيخ من ذرائع الفساد. .

وتكلم الشيخ إلى السلطان في أمر الرشوة التي يقبلها بعض الحكام لقضاء حاجات الناس، ويدخل

في هذه الرشوة قبول الهدايا من الحكام والوسطاء، فجلها حرام، وكلها ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: " الراشي والمرتشي كلاهما في النار" وقد قال رسول الله ﷺ: " هدايا الأمراء غلول " أي خيانة .

أمر السلطان البصاصين والعيون، أن يراقبوا كل من ولي أمراً من أمور الدولة، فإن وجدوا فيهم من يرتشي أو يقبل الهدايا، أو وجدوا وسيطا مرتشياً، قبضوا عليه، وأمر السلطان بتعزيره بالجلد والسجن، وبأن يوضع مقلوباً على ظهر حمار، ويطاف به في الطرقات والأسواق، وينادي عليه المنادون ! أما محاباة الولاة في المعاملة من بيع وإيجار ومزارعة ونحو ذلك، مما لا يجوز للولاة الحصول عليه، فما حصلوا عليه إلا بسبب مناصبهم، فقد، نصح الشيخ للسلطان أن يمنعها، ويعاقب عليها، وأن يسترد ما حصله الولاة من منافع، ويردها إلى أصحابها، فإن تعذر ذلك حاسب الولاة على ما امتلكوه كل عام، وأخذ منهم نصف ما

كسبوه، وضمه إلى بيت المال للإنفاق على المصالح العامة .

وقال الشيخ للسلطان : " شاطر عمر من عماله من كان له فضل دين، ولامتهم بخيانة، وانما شاطرهم لما خصصوا به لأجل الولاية من محاباة وغيرها. وكان الأمر يقتضي ذلك، لأنه كان إمام عدل يقسم بالسوية "

وليس لولاة الأموال أن يقسموها حسب أهوائهم، فإنما هم وكلاء في هذا المال ليسوا ملاكا له. قال ﷺ : (إني والله لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت). وقيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : (يا أمير المؤمنين، لو وسعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى) فقال : (إنما مثلي ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا في سفر، فجمعوا مالا وسلموه إلى واحد منهم لينفقه عليهم، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم بشيء من المال !؟) وحمل إليه رضي الله عنه مرة مال عظيم فقال : (إن قوماً أدوا الأمانة في هذا لأمناء).

فقال أحد الصحابة : (إنك أديت الأمانة إلى الله تعالى فأدوا إليك الأمانة، ولو رتعت رتعوا) ".

واستشاره السلطان في تعيين رجال للمناصب الكبرى، فقد عزل جميع من والوا بيبرس، فأشار عليه الشيخ. واقترح أسماء نواب السلطان في الولايات، وأسماء أمراء المدن، وأمراء الجند، والوعاظ وغيرهم، على أسس تولية الأصلح، فالأصلح، والبعد عن الهوى والمحاباة .

وأخذ السلطان بكل ما اقترحه الشيخ. فقال الشيخ وهو يعظ السلطان : " المقصود بالولايات إصلاح دين الخلق الذي إذا فاتهم خسروا خسرانا مبينا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم. وهو نوعان : قسم المال بين مستحقيه، وعقوبات المعتدين، فمن لم يعتد أصلح الله له دينه ودنياه .

ويجب أن يولي الأصلح. قال ﷺ :(من قلد رجلا عملا على عصابة (أي جماعة) وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى منه، فقد خان الله وخان

رسوله وخان المؤمنين). . والولاية تشمل كل من يلي شيئاً من أمور الدولة من نواب السلطان والقضاة ومن أفراد الأجناد ومقدمي العساكر وولاة الأموال والوزراء. . إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والمقرئين والمعلمين، وعمال البريد. . والعدول عن الأصلح لغيره لأجل قرابة بينهما أو صداقة أو موافقة في مذهب أو بلد أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين. ودخل فيها نهي عنه في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنت تعلمون﴾ .. والولاية لها ركنان : القوة والأمانة، قال صاحب مصر ليوسف عليه السلام :﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾. قال تعالى في صفة جبريل : ﴿ إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين ﴾.

والقوة في كل ولاية بحسبها : فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإن الحرب خدعة .

والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام .

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنا قليلاً، وترك خشية الناس. وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله لكل من حكم الناس في قوله تعالى:﴿ فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ولهذا قال النبي ﷺ : (القضاة ثلاثة : قاضيان في النار، وقاض في الجنة. فرجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار، ورجل قضى بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة) والقاضي اسم لكل من يقضي بين اثنين أو حكم بينهما، سواء سمي خليفة، أو سلطاناً أو نائباً أو والياً، أو كان منصوباً ليقضي

بالشرع، أو نائباً له، أو حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط. . هكذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ وهو ظاهر .

واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (اللهم إليك أشكو جلد الفاجر، وعجز الثقة) فالواجب في كل ولاية، الأصلح بجنسها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز، وان كان أميناً. كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر، وأحدهما صالح ضعيف، مع أيهما يغزي، فقال : (أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين. يغزي مع القوي الفاجر)

ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال : (إن خالداً سيف سله الله

على المشركين) مع أنه قد كان يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنه مرة رفع يديه إلى السماء وقال : (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد) لما أرسله إلى بني خذيمة فقتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، وأنكره عليه بعض الصحابة، حتى وداهم النبي ﷺ وضمن أموالهم (أي دفع لهم الديات والتعويضات) ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب، لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره، وفعل ما فعله بنوع تأويل .

وكان أبو ذر رضي الله عنه، أصلح منه في الأمانة والصدق. ومع هذا قال النبي ﷺ : (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم). فنهى أبا ذر عن الإمارة والولاية، لأنه رآه ضعيفاً. مع أنه قد روي في الحديث الشريف : (ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر)

وهكذا أبو بكر خليفة الرسول ﷺ، مازال يستعمل خالداً في حرب أهل الردة، وفي فتوح

العراق والشام، وبدت منه هفوات كان له فيه تأويل، وقد ذكر عنه أنه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها، بل عنفه عليها لرجحان المصلحة على المفسدة في بقائه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه .

فإن كانت الحاجة في الولاية إلى الأمانة أشد، قدم الأمين، مثل حفظ الأموال ونحوها، فإذا لم تتم المصلحة بواحد، عين فيها عدد. ويقدم في ولاية القضاء الأعلم، الأروع، الأكفأ، فإذا كان أحدهما أعلم والآخر أورع، قدم فيما قد يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى : الأورع وفيما يدق حكمه ويخاف فيه الاشتباه : الأعلم. ففي الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال (إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات)

ويقدمان على الأكفأ، إن كان القاضي مؤيداً تأييداً تاماً من جهة ولي الحرب أو العامة .

ويقدم الأكفأ، إن كان القضاء يحتاج إلى قوة، أكثر من حاجته إلى العلم والورع. فإن القاضي المطلق يحتاج أن يكون عالماً عادلاً قادراً. بل

وكـذلك كـل والٍّ للمسـلمين. فـأي صـفة مـن هـذه الصفات نقصت، ظهر الخلل .

والمهم في هذا الباب معرفة الأصلح. وذلك إنما يـتم بمعرفـة مقصـود الولايـة. فـإذا عرفـت المقاصد والوسائل تم الأمر، فلهذا لما غلب على أكثر الملوك قصد الدنيا دون الدين، قدموا في ولايتهم من يعينهم علـى تلك المقاصد، وكـان من يطلب رياسة لنفسه، يؤثر تقديم من يقيم رياسته، وقد كانت السنة أن من يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب فيهم، هم أمراء الحرب الذين هم نواب ذي السلطان على الجند. ولهذا لما قدم النبي ﷺ أبا بكر في الصلاة، قدمه المسلمون في إمارة الحرب وغيرها .

على هدى هذه المبادئ التي بدأ الشيخ يصوغها فـي كتابـة (السياسـة_الشـرعية فـي إصـلاح الراعـي والرعيـة) سـار السـلطان. فأعـاد ترتيـب الدولـة، وتوزيع المناصب، منتصحاً بكل ما قاله الشيخ .

***

استمرت حياة الشيخ في القاهرة هادئة منتجة : فهو يذهب إلى مدرسته التي يعلم بها كل صباح، ثم يغشى المساجد يعظ ويفتي، ويتلقى السلطان في بيته الطلاب والكبراء، والصالحين من العلماء، ويذهب إلى السلطان إن دعاه .

ونصح الشيخ للسلطان بأن يقضي على الاحتكار، فهو أثر من عهد سلار وبيبرس، والمحتكر ملعون بنص الحديث الشريف. وأفتاه بأن يسعر البضائع، وأن يصادر ما يخفيه التجار منها، ويطرحه على الناس بسعر يتيسر لهم.

وأخذ السلطان بفتواه، فامتلأت الأسواق بالبضائع، وانخفض سعرها، وتيسرت الأمور، فلهجت الألسنة بالثناء على الشيخ، وزاد حب العامة له، والتفوا حوله، وإن غضب عليه كبار التجار، والمحتكرون !

وزاد حسد منافسيه وخصومه، ونسوا أنه أنقذ رقابهم من حكم السلطان .

وانتهزوا الفرصة عندما سئل عن أفعال الصوفية، فأنكر على بعض الصوفية ادعاءهم معرفة الغيب أو الكرامات، وسمى هذا كله دجلا وشعوذة ! فحرض خصومه عليه أتباع الصوفية وأشياعها، فتربصوا له في الجامع وهو يتعبد بعد صلاة الظهر، وقد خلا المسجد .. فانقضوا عليه، فضربوه. .

وتجمع العمامة من خارج المسجد واندفعوا إلى الشيخ، فكفوا عنه أذى ضاربيه .

شاع الخبر، فاجتمع خلق كثير من الحسينية، وجاءوا بالهراوات وقضبان الحديد، ليؤدبوا الذين اعتدوا على الشيخ .

ولكن الشيخ ردهم، فلما وجد إصرارهم قال لهم : " إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله. فان كان الحق لي فهم في حل منه، وإن كان لكم، فإن لم تسمعوا مني، ولم تستفتوني فافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله، فالله يأخذ حقه إن شاء " .

وهدأ الناس، مكبرين في الشيخ صفحه الجميل عمن آذوه !. . وأذن لصلاة العصر، فحاولوا أن يقنعوا الشيخ بالصلاة في مسجد آخر، ولكنه أسرع إلى المسجد الذي ضرب فيه، فأسرعوا خلفه وأقاموا من أنفسهم حرساً عليه، وألفوا بعد ذلك أن يصحبوه لحراسته حيثما راح أو جاء. .

وجاءه من يصف له استبداد والي دمشق، فقد أرهق الناس بالمظالم، وفرض عليهم أموالاً كثيرة، وانتزعها منهم انتزاعاً، وسامهم سوء العذاب، فلما طالبه نفر من علماء دمشق بالعدل، أهانهم وضربهم. . فأسرع الشيخ إلى السلطان، حتى ليعزل واليا من أنصاره بلا تحقيق، مصدقاً فيه مقالة الشيخ. . ! .. ما عسى أن يصنع بهم السلطان إذن لو شكاهم هذا الشيخ ..؟! ما من سبيل إلى إفساد ما بين السلطان أو الشيخ .. فليحاولوا إسقاط هيبته إذن عند العامة، فتضعف مكانته عند السلطان. . !

وجلس الشيخ يوماً يفتي الناس عن حلقات الذكر التي يقيمها الصوفية فقال : " ليس كل الصوفية

سواء، ولكنهم ثلاث طبقات متباينة، حتى في ذكر الله، أولاها صوفية الحقائق، وهم الذين اتخذوا الكتاب والسنة طريقا إلى التصوف، واتخذوا التصوف طريقة في حب الله وطاعته هو ورسوله .. ثم صوفية الأرزاق. . أما الطبقة الثالثة من الصوفية فهم صوفية الرسوم، وهم المقتصرون على التشبه بصوفية الحقائق في اللباس والآداب الوضيعة، فهم بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم .. !

وصوفية الحقائق يذكرون الله بالطريقة الشرعية، بالتأمل والخشوع والتدبر .

أما صوفية الأرزاق الذين يتركون العمل النافع وينقطعون للعبادة، وهؤلاء تجري عليهم الأرزاق، فهم كصوفية الرسوم الذين يقلدون آداب صوفية الحقائق، فكلاهما صاحب حلقات لذكر الله. . وهي حلقات رقص صوفي لا ذكر شرعي، فهي بدعة لا علاقة لها بالذكر الشرعي. فمن رقص معهم في حلقات الذكر مبتدع مثلهم؟؟

وارتفع صوت غاضب : " قولك هذا غلط ! !
لا صوفية حقائق ! فكل الصوفية سواء وهم مبتدعون خارجون عن السنة. والقول بغير ذلك ضلال "

ونظر الشيخ إلى المتكلم، فإذا هو فقيه من خصومه، فلم يرد عليه، وانشغل الشيخ بالرد على سؤال وجهه أحد الحاضرين، عن الحكم في تقبيل العامة قطعة حجر، يقال إن عليها أثر قدم رسول الله ﷺ.

قال الشيخ : " ليس القدم الذي بالصخور المشهورة عند العامة، قدم رسول الله، ولا قدم أحد من الأنبياء ولا يضاف إلى الشريعة جواز تقبيله، ولا التمسح به، فلا شيء في الأرض يقبل ويتمسح به، سوى الحجر الأسود والركنين اليمانيين بالبيت العتيق، وتنازعوا في جواز التمسح بمنبره ﷺ " .

فقام الفقيه فخطأ الشيخ، واتهمه بالتجاسر على مقام رسول الله ﷺ وسب الشيخ سباً حاداً غليظاً منكراً. . !

وحاول بعض الحاضرين أن يضربوا الفقيه، ولكن الشيخ وقف بينهم وبينه بجسمه المليء المتين، وحال دون ذلك، وأمرهم بالجلوس .

فأخذ الفقه يعتذر عما بدر منه، ويسأل الشيخ أن يعفو عنه .

فقال الشيخ : " عفا الله عنك. لقد قلت في ما قلت، ولكني لا أنتصر لنفسي "

***

استدعاه السلطان

وفي مجلس السلطان وجد عدداً من أهل العلوم الدنيوية، فيهم المهندس الذي يخطط المساجد والعمائر، وطبيب السلطان .

وطلب السلطان من الشيخ أن يكف عن الحديث في أمر الصوفية فحديثه يثير خلافات، قد تؤدي إلى الفتنة، وللصوفية جميعاً كرامات : سواء الذين يسميهم صوفية الأرزاق أم الذين يسميهم صوفية الرسوم، ففيهم قوم من أولياء الله الصالحين، الذين قال فيهم الله تعالى:﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف

عليهم ولا هم يحزنون ﴾ إن في المتصوفة رجالا من آل البيت، وقد أمرنا بإكرامهم وتعظيهم .

فقال الشيخ : " أعرف أن المتصوفة فيهم البر والفاجر، والتقى والمذنب. ولا يجمل بالمسئولين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يسكتوا عن الفجرة منهم والمذنبين، أو عن المخالفين للشرع كالذين يزعمون أن لهم وجداً أو مكاشفة أو مخاطبة تخالف القرآن والحديث، أو الذين يزعمون أن القطب الصوفي يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول، وإنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد، والأنبياء كلهم يأخذون من مشكاته، أو من يقول منهم إن الولي أفضل من النبي، وغير ذلك من مقالات المتفلسفة لعنهم الله. . ! ! وما أظن أن الله يغفل عن المأمون لأنه أمر بترجمة الفلسفة، فأفسد العقل العربي الإسلامي وقد صدق ابن الصلاح حين وصف المتفلسف ابن سينا بقوله : (شيطان من شياطين الإنس)

أمـا آل البيـت فـإن لهـم مـن الحقـوق مـا يجـب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ، فقال لنا قولوا : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم. إنك حميد مجيد) وقد قال الله تعالى:﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ فإن وجد بين أقطاب الصوفية قوم من أهل البيت فهم صوفية الحقائق .

أما كرامات الأولياء فما ينكرها مؤمن. . ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في العلوم، والمكاشفات، وأنواع القدرة، والتأثيرات. .

كالمأثور في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة، والتابعين، وسائر فرق الأمة. وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة. . والطريق إلى الولاية هي اتباع الكتاب والسنة، وأن

يتقرب العبد الصالح المؤمن إلى الله تعالى بالنوافل، فيكافئه بالإفاضة عليه من قدرته، غير أن التظاهر بالولاية قبيح، وإعلان الكرامات أقبح، ورب رجل يخفي تقربه إلى الله تعالى خير ممن يعلنون "

فقال أحد الحاضرين وهو طبيب السلطان : " أراك تحمل على الشيخ ابن سينا لتعاطيه الفلسفة، وما أنجزه ابن سينا في العلوم الدنيوية عظيم، ونحن لم نحسن الإفادة منه لأن بعض المشايخ، حرموا قراءة ابن سينا، وهم في أوربا يدرسونه ويستفيدون مما وصل إليه في الطب وغيره، ولهذا يتقدمون، ونتوقف نحن أو نتأخر. . ! !

وقال شيخ المهندسين : " لقد كان الإمام جعفر الصادق يشجع العلوم الدنيوية، وهو الذي أنشأ معملا لتلميذه جابر بن حيان ليعالج فيه علم الكيمياء، فوصل إلى نتائج لا نكاد نفيد منها، لأننا حرمنا الاشتغال بالكيمياء، منذ رأينا بعض المشتغلين بها، يتعاطون السحر "

فرد الشيخ : " كان الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، يشجع العلوم الدنيوية التي تفيد، والفلسفة ليست من تلك العلوم، فهي تسلط على الدين، وتشجع على الزيغ والضلال .. "

فقال طبيب السلطان : " تذكر يا شيخ الإسلام أن الإمام الليث بن سعد الذي نشأ على هذه الأرض المصرية، قد أفاد الفقه الإسلامي، بما نقله إليه العربة من آثار الفكر المصري القديم. فليست كل مباحث الفلسفة ضلالاً، فمنها المنطق الذي يساعد على حسن الاستدلال، ودقة استنباط الحكم "

فقال الشيخ : " لعن الله المنطق والمناطقة وأرسطو الوثني واضع المنطق ! كان الفقهاء يستدلون ويستنبطون، ويقيمون البراهين من الكتاب والسنة، قبل المنطق. فلما أمر المأمون بترجمته، فتن به بعض أهل العلم، فاشتطوا وأكثروا الافتراضات، واستدلوا على الشريعة بما هو غريب عنها، فزاغت العقول، وضلت الأفهام، وشاعت الآراء الملحدة. . إن أخطاء الفلاسفة في الإلهيات

تنشأ عن الخطأ في المنطق، حتى أصبح أكثر الفلاسفة المسلمين برزخا بين الوثنية اليونانية، والإسلام، فلا هم كفار ولا هم مسلمون ! "

فقال الطبيب : " ألا ترى أن الإمام المصري العظيم الليث بن سعد، قد أفاد الفقه الإسلامي؟ أخذ الشافعي حين جاء مصر بمذهب الليث في الفقه، وأخذ آخرون عنه تفسيره للقرآن. . فنحن المصريين أغنينا الفقه، وحافظنا على الدين، بحسن الإفادة من تراثنا المصري القديم، وهو تراث غير إسلامي، بل مصري قح ! "

قال ابن تيمية : " ما بالك تلح في قولك مصر والمصريين والفكر المصري. . أنا لا أعرف هذا التحيز لجنس أو أرض. . لا تقل إلا العرب. . ولا ينبغي أن يدعو مسلم لغير وحدة العرب، والعرب هم من كان لسانهم باللغة العربية ومن كانوا من أولاد العرب، ومن كانت مساكنهم بأرض العرب ! ولا يقابل العرب إلا العجم. فهل أنتم عجم أم عرب؟ لقد سكن العرب بلاد أكانت من قبلهم مساكن فارس،

والروم، والبربر، وقد استعربت كل هذه البلاد بعد الإسلام، إلا من احتفظ بلغته الأعجمية وهذا قبيح منهم، ويجب عليهم أن يعربوا لسانهم. وقد قال الرسول ﷺ : (إذا ذلت العرب ذل الإسلام). وقال رسول الله ﷺ : (أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم. إنما هي لسان، فمن تكلم العربية فهو عربي) وقد قال أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة : (لا تؤخذ الجزية من العربي كتابياً كان أو وثنياً، وتؤخذ الجزية من العجمي كتابياً كان أو وثنياً)

والمسلم الذي يبغض العرب مرتد عند بعض الفقهاء وقد روى الإمام أحمد أن امرأة من بيت رسول الله ﷺ، أخبرته أنها سمعت من يقول : (إن أحمد مثل الريحانة في وسط النتن). فخرج صلوات الله عليه، يعرف الغضب على وجهه، ثم صعد المنبر فقال : (من أنا؟) فقالوا : (أنت رسول الله) فقال : (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. إن الله

خلق الخلق، فاختار بني آدم. واختار من بنى آدم العرب، فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب، فببغضي أبغضهم)

على أن العرب يجب أن يكونوا خيار الناس حقاً وصدقاً، ويجب عليهم أن يتمسكوا بمكارم الأخلاق التي جاء الرسول ليكملها وليكونوا خير أمة. ففي الحديث : أحسنكم، أحسنكم أخلاقاً !

فليحذروا أن يكونوا من أهل السنين المضطربة التي جاء فيها الحديث الشريف : " إن بين يدي الساعة، سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، ويتكلم فيها الرويبضة. قيل : (يا رسول الله وما الرويبضة)؟ قال : (الفاسق) في رواية، وقال (المرء التافه) في رواية أخرى "

***

ظل الشيخ في القاهرة، لا يكف عن المحاورات كلما سنحت الفرصة، مستمراً في إلقاء

الدروس، والفتاوى. . يجتهد في المذهب الحنبلي، ويخرج عنه أحياناً ليأخذه بغيره. والعام يمضي بعد العام، وهو مشدود القلب إلى أمه في دمشق، ولكنه لا يستطيع أن يبرح القاهرة، فالسلطان يبقيه، والذين أحبوه لا يتركونه. . !

وجاءت إلى السلطان أخبار عن زحف التتار، فأعلن الجهاد، وخطب الشيخ في المساجد يستنفر الناس. وخرج مع السلطان لملاقاة التتار. .

وقبل أن يبلغوا بيت المقدس، جاءت الأخبار، أن التتار عدلوا عن الزخف، لما علموا أن السلطان خرج لقتالهم. . فعاد السلطان بعسكره إلى القاهرة، أما الشيخ تقي الدين بن تيمية، فقد استاذن السلطان أن يعود إلى دمشق، فأذن له .

أقام الشيخ أياماً في بيت المقدس، حاور فيها العلماء، وأفتى، ودرس. . ثم اتجه إلى دمشق .

وخرجت دمشق كلها لاستقباله، حتى النساء والأطفال !

واغرورقت عيناه، وهو يرى حفاوة أهل دمشق به. .

وعندما أفضى إلى داره، شكر الناس، واستقبلته أمه أحر استقبال، وفاضت من عينيها الدموع .

وامتلأ داره لعدة أيام بالمهنئين بعودته. . واستدعاه نائب السلطان، فوجد الشيخ رجالا يقبلون الأرض بين يدي نائب السلطان، فنهاهم عن هذا: حرام على المسلم أن يسجد لغير الله، أو أن يحني ظهره أو رأسه لأحد، أو أن يقبل يد أحد، فهذه أمور نهى عنها رسول الله ﷺ، فيجب إبطالها، وبصفة خاصة، اعتياد بعض الناس تقبيل أيدي العلماء والصالحين !. . لكم عاني الشيخ نفسه من هذه العادة في مصر ! !

ما كان أحد يقبل يد سيد الخلق أجمعين : محمد رسول الله، أو ينحني له، فقد نهى عن كل ذلك. .. .

***

وعين الشيخ ابن تيمية، على المدرسة الحنبلية، وعاد إلى اللقاء الدروس في الجامع الأموي. .

وفكر الشيخ في كل ما فات من عمره، وما يجب عليه أن ينهض به الآن : لقد عاش في مصر سبع سنوات من سنة ٧٠٥ هـ. إلى سنة ٧١٢هـ، لم تكن كلها سنوات عجافاً، ولا هن بسبع سنوات سمان !. .

لقد جاوز الخمسين الآن، وأصبح عليه أن ينشغل بالكتابة أكثر مما انشغل بها في الماضي، فقد ضاق الزمان. .

وابتسم وهو يتذكر حكاية الرجل الصالح الذي سمع فاسقاً يتغنى :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار

ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان عن الصغار

فقال الرجل الصالح لنفسه : " حقاً. . لقد ضاق الزمان عن الصغار". . واعتكف يواصل الليل بالنهار في التعبد !

رأى الشيخ أنه اهتم في حياته الماضية بأمور الاعتقاد وفروع الفقه، والمجادلات العنيفة مع خصوم تبادلوا فيها الاتهامات والإهانات. ولقد ضاق الزمان عن الصغار ! فيجب أن تواصل كدح ليلك بالنهار، منشغلاً بالكبار من مسائل الفقه وأصوله يا تقي الدين ! !

كتب أكثر مؤلفاته العديدة في هذه المرحلة، وقد أكسبته التجارب نضجاً خاصاً، يؤهله للكتابة في المسائل الكبار. . ونظر في كتاباته السابقة، فأحكم ما سبق أن كتبه، أو أفتى به، وتكلم عن الموضوع الواحد في أكثر من مصنف .

ثم عمد إلى المسائل الكبرى في الفقه، وإلى أصول الفقه .

وكان يحاول الاجتهاد، ولكن على مذهب الإمام أحمد، فإذا عدل عنه، أخذ من فقه مالك أو أبي حنيفة الشافعي، أو فقه آل البيت، وبصفة خاصة فقه جعفر الصادق، أو زيد بن علي أو الذين سبقوهم كالحسين وابن الحنفية .

ولكنه في هذا الطور من أطوار حياته، عرف حزناً لم يعرفه من قبل قط. .

ماتت أمه بعد أن جاء دمشق بأعوام قلائل، وقد عاشت ترعاه، وتوجهه إلى الرفق في الخصومة. . لقد احتسبها عند الله، ولكن كان كلما عاد إلى البيت ذرف عليها الدموع، حتى لتخضل لحيته التي لم تغزها بعد الشعرات البيض !

وعاد إلى مسألة الصفات ليحكم الكتابة فيها .. فكتب : " مذهب سلف الأمة وأئمتها، أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، يثبتون لله ما أثبته من صفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، يثبتون له صفات الكمال، وينفون عنه ضرب الأمثال، ينزهونه عن النقص والتعطيل، وعن التشبيه والتمثيل، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.﴿ ليس كمثله شيء﴾ رد على الممثلة،﴿ وهو السميع البصير ﴾ رد على المعطلة "

كان هذا هو آخر ما أحكمه من كلام عن الصفات، ومع ذلك فقد اتهمه خصومه من الفقهاء بالتجسيد والتشبيه والضلال والكفر، وأرفقهم به اتهمه بالجهل والغرور، وعدم فهم السنة. . ! فعاد إلى حدته، وكتب عن فقيه من مخالفيه : " من قال هذا فهو كالحمار الذي في داره ". . .

وأنكر عليه الفقهاء حتى مؤيديه هذا الأسلوب في الجدل، وهذه الحدة التي تصدم الخصوم .

ثم فتح معركة شيعة عصره، وأنكر قولهم بالإمام المعصوم، واتهمهم بأنهم يخالفون فقه آل البيت : " أما الكلام في أن هؤلاء أئمة فرض الله الإيمان بهم وتلقي الدين عنهم دون غيرهم، ثم في عصمتهم عن الخطأ، فإن كلا من هذين القولين لا يقوله إلا مفرط في الجهل أو مفرط في اتباع الهوى. فمن عرف دين الإسلام، وعرف حال هؤلاء كان عالماً بالاضطرار من دين محمد ﷺ بطلان هذا القول. .. وأئمة أهل البيت كانوا يتعلمون الحديث من العلماء، كما يتعلم سائر المسلمين، فعلي ابن

الحسين روى عن أبان بن عثمان بن عفان عن أسامة بن زيد وأبي هريرة وابن عباس، وأبو جعفر محمد (الباقر)، يروي عن جابر بن عبد الله. فإذا أرادوا بأنهم نقلوا عن جدهم، أنه أوحي إليهم ما قاله جدهم، فهذه نبوة، كما كان يوحى إلى النبي ﷺ ما أوحي إلى غيره من الأنبياء "

واستمر يهاجم الشيعة الإمامية المتأخرين، في كثير من الأصول والفروع والمعقتدات، ويؤكد في الوقت نفسه احترامه لآل البيت، وإفادته منهم، ويعترف للشيعة الإمامية بأنهم مسلمون مؤمنون في الظاهر والباطن، ولكن في بعض أفكارهم، ما لا تؤيده السنة، ولا حتى سلفهم الصالح. وقد احتج عليهم الإمام جعفر الصادق، فإن متأخري الشيعة قالوا إن القرآن محدث منفصل عن الله، هو كلامه من جملة مصنوعاته المنفصلة عنه، فاقتربوا من زعم المعتزلة أن القرآن مخلوق. . وهذا القول للشيعة يخالف ما قاله السلف من أئمة أهل البيت مثل جعفر الصادق، الذي قال إن القرآن ليس بخالق ولا

مخلوق ولكنه كلام الله. وهذا ما احتج به أحمد في المحنة، وهو ما عليه أهل السنة .

ورد عليه الشيعة بمثل حدته في الجدل والتهكم، وسخروا من تسميته شيخ الإسلام، ومن رأيه في الإمامة، ودعوته إلى الاعتراف بالملكية الدنيوية، وإيجاب طاعة صاحب السلطان، ملكا كان أو خليفة أو سلطاناً، وإن كان فاجرا فاسقاً ! ! وشنعوا عليه بأنه لا يحب آل البيت، فرد عليهم بأنه يحب آل البيت ويعرف فقه آل البيت، أكثر من هؤلاء النفر من متأخري الشيعة !. .

ومضى يدلي بآرائه في الدولة وشئونها : " خلافة النبوة ثلاثون سنة (هي عصر الخلفاء الراشدين الأربعة) ثم صارت ملكا. . وكون الواحد من هؤلاء إماماً بمعنى أنه كان له سلطان، ومعه السيف، يولي ويعزل، ويعطي ويحرم، وينفذ، ويقيم الحدود، ويجاهد الكفار، ويقسم الأموال، أمر مشهور متواتر لا يمكن جحده، وهذا معنى كونه إماما وخليفة وسلطاناً .. وأما كونه براً أو فاجراً، مطيعاً

أوعاصياً، فذلك أمر آخر. . ومذهب أهل السنة أن هؤلاء يشاركون فيما يحتاج إليهم فيه من طاعة، فنصلي خلفهم الجمع والعيدين وغيرهما من الصلوات التي يقيمونها. . ونجاهد معهم الكفار، ونحج معهم البيت، ويستعان بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود " .

ويرى ابن تيمية منع الخروج على النظام السياسي، على نقيض الشيعة. . قال : " وقل من خرج على إمام ذي السلطان، إلا كان ما تولد من فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير "

من أجل ذلك أيد السلطان وأمراء المماليك على الرغم من كل شيء ! والأمانة عنده نوع من الإجارة على عمل .

وكان بعض السلف الصالح إذا دخل على معاوية قال له " السلام عليك أيها الأجير. إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم "

أما شروط الإمامة فقد جمعتها الآية الكريمة : ﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾.

ورأى أن الدولة يجب أن تتدخل أحياناً لتقيد حرية الفرد في التملك والعمل، إذا وقعت مضرة من إطلاق حريته : " إذا كان الناس محتاجين إلى فلاحه قوم، أو نساجهتم، أو بنائهم، صار هذا العمل واجبا عليهم، يجبرهم ولي الأمر عليه، إذا امتنعوا عنه بعوض المثل؟ ". .

وهو يرى التسعير في البضائع إذا : " امتنع أرباب السلع عن بيعها مع ضرورة الناس إليها، إلا بزيادة على القيمة المعروفة، فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل، ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل "

وتحدث عن الاحتكار والتسعير : " أن يكون الناس قد التزموا ألا يبيع الطعام أو غيره، إلا أناس معروفون، لاتباع السلع إلا لهم ثم يبيعونها هم .. فهنا يجب التسعير عليهم، بحيث لا يبيعون إلا بقيمة المثل، ولا يشترون أموال الناس إلا بقيمة المثل، بلا تردد في ذلك عند أحد العلماء، لأنه إذا كان قد منع غيرهم، أن يبيع ذلك النوع أو يشتريه، فلو سوغ لهم

أن يبيعوا بما اختاروا، أو يشتروا بما اختاروا كان ذلك ظلما للخلق من وجهين : ظلما للبائعين الذين يريدون بيع تلك الأموال، وظلما للمشترين منهم. . والواجب إذا لم يمكن دفع جميع الظلم أن يدفع الممكن منه، فالتسعير في مثل هذا واجب بلا نزاع، وحقيقته إلزامهم ألا يبيعوا، ولايشتروا، إلا بثمن المثل، وهذا واجب في مواضع كثيرة من الشريعة"

وابن تيمية لا يكتفي بتسعير البضائع، بل يفتي بتسعير الأعمال. والناس إذا احتاجوا إلى أهل الصناعات، فإنه يقدر أجرة المثل، ولا يطالبون بزيادة .

وأجاز للإمام أن يفرض على الأغنياء ما لابد من دفعه لإعداد الجند، وإعداد السلاح، حماية للبلاد والإنفاق على المصالح العامة ولا يتحمل الفقراء من ذلك شيء، وفي الأمة أغنياء. . وهذا من باب العدل .

العدل يجب أن يكون أساس الحكم. وذهب في هذا إلى حد القول : "أمور الناس تستقيم في الدنيا مع

العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم. ولهذا قيل : (إن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة). ويقال : (الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام). وقد قال النبي ﷺ : (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطع الرحم). . فالعدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت. . ومتى لم تقم بعدل، لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة ". . .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضرورة لإقامة العدل وحمايته. .

ولكن من هو الذي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر؟. .

يجب أن تتوفر فيه ثلاث شروط : العلم، والرفق، والصبر. . (فلا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه،

حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه). وقد قال النبي ﷺ : (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه). . ولهذا ينهض بأداء الواجب الشرعي أولو الأمر من الحكام والعلماء. فالعلماء الذين اتصفوا بالرفق والصبر من الفقه هم وحدهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. فلا يحق هذا لعالم غليظ عنيف أو غير صبور .

وكل فرد من الرعية، يجب عليه أن يؤدي ما عليه للدولة من واجبات، ومنها حقها عليه في المال، وعليه أن يسعى ما استطاع للوفاء بهذا الحق، فهو مدين، فإن عجز عن المدين عن أداء دينه للدولة، أو دينه لدائن آخر من الأفراد، أدته عنه الدولة، بشرط التحقق من أنه يسعى ما استطاع، فعجز عن الأداء .

وكل فرد يتمتع بحماية الدولة، وهي تحميه من أي عدوان، حتى لو لم ترد بهذا العدوان عقوبات. فإذا كذب عليه أحد، وأخذ بالكذبة، وعزر وطيف به الأسواق، وجب على ولي الأمر، أن يعاقب من كذب

عليه بذات العقوبة التي وقعت على البريء، ويعوض البريء من مال الكذاب. . .!

على أنه ليس للحاكم أن يضرب فرداً من الرعية إلا بحكم قضائي شرعي بتعزيره عن الجنايات التي ليست لها حدود في الكتاب والسنة. فإذا ضربه الحاكم وجب القصاص من الضارب، وعلي صاحب السلطان خليفة كان أو ملكاً أو سلطاناً، أن يقتص من الحاكم المعتدي، وأن يعوض المعتدى عليه من ماله. . وهكذا كان عمر. . وقد قال : " ما أرسلت إليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، بل ليعلموكم ويفقهوكم ويحموكم"

***

استمر الشيخ يكتب ويدرس ويفتي، معتمداً في استنباط آرائه على أصول الفقه التي أقرها الإمام أحمد : فالحكم يؤخذ من الكتاب والسنة، وحجية السنة ثابتة بالكتاب :﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾. وهي شارحة له. ثم إجماع الصحابة، أو إجماع علماء المسلمين، على أن يكون

سند هذا الإجماع نصاً، ولا توجد مسألة فيها إجماع إلا وفيها نص. . وهنا يكون النص لا الإجماع هو الأصل. ومن ذلك مسألة المضاربة، فقد كانت شائعة بين العرب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ظل الصحابة يتاجرون بمال غيرهم بالمضاربة. وأقر رسول الله عملهم. فصارت المضاربة مشروعة لا بإجماع الصحابة، بل بالسنة. والسنة هي قول الرسول وفعله، وإقراره .

والسنة لا تنسخ الكتاب ولا ينسخها إجماع، كما أن الإجماع الصحيح لا يمكن أن يعارض كتاباً أو سنة. " ولم يقع إجماع إلا إجماع الصحابة قبل أن يتفرقوا في الأمصار. وغير ذلك فيه خلاف " ثم يأتي القياس بعد الكتاب والسنة والإجماع، ويرى أن القياس الذي يجب الأخذ به هو القياس الصحيح، هو ما وافقت دلالته دلالة النص، فإذا خالفته، فهو قياس فاسد لا يؤخذ به. . ورأيه أن القياس لا يمكن أن يخالف نصاً .. وإنما هو استنباط حكم في أمر مستحدث من حكم أمر ورد فيه نص، لتماثل علة

الحكم أو حكمته، أو لتحقيق مصلحة ودفع مضرة، ويقول في هذا : " تدبرت ما أمكنني من أدلة الشرع، فما رأيت قياساً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً، كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح. بل متى رأيت قياساً يخالف أثراً فلابد من ضعف أحدهما " ثم الأخذ بفتوى الصحابة إذا اتفقوا، فإذا اختلفوا أخذ بالأقرب إلى السنة. . ثم يجيء الاستصحاب أصلاً من أصول الفقه بعد القياس، وقد عرفه بأنه : " البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته أو انتفاؤه بالشرع "، والأئمة متفقون عليه، في كل عقد أو تصرف يستحدث، وليس في الشريعة دليل على الإباحة أو التحريم، فيحكم بالإباحة، حتى يقوم دليل على التحريم، " لأن الأصل في الأشياء الإباحة، وهي الحال التي خلق الله عليها ما في الأرض جميعاً "

ولعل أخطر ما كتبه ابن تيمية في هذا الباب، هو ما كتبه عن العقود، والشروط والعهود والمعاهدات .

أما المعاهدات مع غير المسلمين، فلما كان الأصل في الإسلام هو السلم، ولا حرب إلا لرد العدوان كما ثبت بالكتاب والحديث، فإن لولي الأمر أن يعقد من المعاهدات، ما فيه مصلحة المسلمين. مؤقتة كانت أو دائمة. . وقد استثنى الله تعالى المعاهدين من القتال. فقال : ﴿. . إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ فإذا خان غير المسلمين المعاهدة، أو رجح أنهم يخونونها، وجب قتالهم. قال تعالى:﴿ وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾.

قال ابن تيمية عن المسلمين في رسالة إلى ملك قبرص الصليبي : "نحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة "

وأعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه. .. وقد عرف النصارى أني لما خاطبت ملك التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان (قازان)، فسمح بإطلاق المسلمين، وقال لي : (لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون) فقلت له :

(بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفكهم، ولا ندع أسيراً من أهل الملة ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله. فهذا عملنا وإحساننا (نحن المسلمين) والجزاء عند الله "

وأما العقود والشروط، فقد اختلف فيها أئمة المذاهب الأربعة، فأما أبو حنيفة والشافعي فقد ذهبا إلى أنه لا يصح من العقود والشروط إلا ما نص عليه النص، وأما مالك وأحمد فذهبا إلى أن العقود والشروط صحيحة، إلا ما نهى عنه النص. .. ووسع أحمد في إباحة العقود والشروط أكثر مما وسع مالك .

وجاء ابن تيمية، فأخذ برأي أحمد ووسع فيه، ونادى بإطلاق حرية التعاقد. ذلك أن من ضيقوا من الحنفية والشافعية، ذهبوا إلى أن آثار العقود من عمل الشارع، فالأصل فيها المنع حتى يقوم الدليل على الإباحة ..

ولكـــن ابـــن تيميـــة رأى كمـــا رأى المالكيـــة والحنبلية، أن آثار العقود والشروط، ناشئة من إرادة المتعاقـدين، وجعلـوا الأصـل فـي العقـود والشـروط الإباحـة، ووجـوب الوفـاء بمـا تعاقـد عليـه الطرفـان، حتى يقوم دليل على المنع. .

قال ابن تيميـة : " الأصـل فـي العقـود والشـروط الجواز والصـحة، ولا يحـرم ويبطـل منهـا، إلا مـا دل على تحريمه وإبطالـه دليـل مـن نصـر أو قيـاس علـى نص. وأصول أحمد رضي الله عنه تجري علـى هذا القول، ومالك قريب منـه. لكن أحمد أكثر تصحيحاً للشـروط، فلـيس فـي الفقهـاء الأربعـة أكثـر تصـحيحاً للشـروط منـه. وعامـة مـا يصـححه أحمد من العقـود والشروط فيهـا تنبيـه بـدليل خـاص مـن أثـر أو قيـاس. وكـان قد بلغـه فـي العقود والشـروط مـن الآثـار عـن النبي ﷺ والصحابة ما لم يجده في غيره من الأئمـة، فقـال بـذلك وبمـا فـي معنـاه قياسـاً، ومـا اعتمـد عليـه غيـره مـن نـص، فقـد يضـعفه أو يضـعف دلالتـه، وكذلك قد يضعف ما اعتمد عليه من قياس"

ويقول ابن تيمية عن العقود التي أبرمها الطرفان غير مخالفة للشرع، وعن الشروط التي لا تخالف الشرع ولا مقصود العقد. يقول عنها إنها جميعا صحيحة بدلالة الكتاب والسنة والإجماع والاستصحاب. فالكتاب يأمرنا بالوفاء بالعقود ولو كان الأصل في العقود الحظر إلا ما أباحه الشارع، ما أمرنا بالوفاء مطلقاً. وفي الحديث : " من شرط شرطاً، ثم نقضه فقد غدر " و " الناس على شروطهم ما وافقت الحق ". وفي الحديث : " المسلمون على شروطهم إلا شرط حلل حراماً أو حرم حلالاً"

والعقود والشروط إنما هي معاملات، لا عبادات فهي على أصل الإباحة. وقد قال تعالى:﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ فما لم يحرمه مباح .

ويرى الشيخ أن " الأصل في العقود رضا العاقدين ونتيجتها هي ما أوجباه على أنفسهما بالتعاقد " وكل ما كان بالرضا وطيب النفس في عقد، يوجب حقوقاً ما لم يكن منهياً عنها .

والشروط توضع في العقود للحاجة إليها، والقاعدة في الشريعة وجوب رفع الحرج والضيق، فما لم يثبت تحريمه من الشروط مباح لحاجة الناس إليها .

وهناك أصل فقهي آخر، أخذ به الإمام أحمد، وتردد فيه ابن تيمية وهو المصالح المرسلة وهي رعاية المصلحة العامة في الأحكام والعقود، إذا لم يكن هناك دليل شرعي من الأحكام السابقة ويعرفها بقوله : أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب مصلحة راجحة، وليس في الشرع ما ينفيه، وأن المصلحة كما تكون بجلب منفعة، تكون بدفع مضرة " وذلك جريا على نهج الصحابة، فليس في القرآن ولا في السنة ما يقضي بجمع القرآن في مصحف، ولكن عندما استشهد كثير من حفاظ القرآن في حروب الردة، اقترح الصحابة على الخليفة أبي بكر، أن يجمعه ويدونه في مصحف فقال : " كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ "

ولكن الصحابة ظلوا يراجعونه، وما أنفك عمر يدعو أن يشرح الله صدر أبي بكر لهذا، حتى أمر أبو بكر بجمع القرآن. ثم جاء عثمان بن عفان، فوجد اختلافاً في القراءات في الأمصار، فأمر بجمع القرآن في مصحف واحد، وأحرق ما عداه .

ومن ذلك أن " علي بن أبي طالب، أمر بأن يضمن الصناع ما عندهم من حاجات الناس وأمتعتهم، مع أنها أمانات عندهم والأمين لا يضمن. ولكن أمير المؤمنين خاف الخيانة والتقصير، فقال في هذا : (لا يصلح الناس إلا ذاك)

ومن ذلك : " إذا رأى الإمام تحريق اللوطي بالنار، فله ذلك. لأن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر رضي الله عنه أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة، فاستشار أصحاب النبي ﷺ، وفيهم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، وكان أشدهم قولا فقال : (إن هذا الذنب لم تعص الله به أمة إلا واحدة، فصنع الله بها ما قد علمتم. أرى أن يحرقوه بالنار) فأجمع أصحاب

رسول الله ﷺ على أن يحرقوه بالنار، فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد رضي الله عنه بأن يحرق من يفعلون فعل قوم لوط فحرقهم، ثم حرقهمم ابن الزبير، ثم حرقهم هشام بن عبد الملك "

ومن ذلك " أن النساء إذا خيف عليهن المساحقة، حرم خلوة بعضهن ببعض. وإذا أتت المرأة، المرأة تعاقبان وتؤدبان "

ومن ذلك أن " المخنث ينفى : لأنه لا يقع منه إلا الفساد، والتعرض له، وللإمام أن ينفيه إلى بلد يأمن من فساد أهله، وإن خاف به عليهم حبسه"

ومن ذلك فيمن " شرب خمراً في نهار رمضان، أو أتي شيئاً نحو هذا : أقيم الحد عليه، وغلظ عليه مثل الذي يقتل في الحرم دية وثلث "

ومن ذلك أمر " السياسة، وهى ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك لا سياسة إلا ما

وافق الشرع، أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت ما نطق به الشرع، فلغط وتغليظ للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يجحده عالم بالسير، وكان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة، مثل تحريق المصاحف المخالفة، وتحريق علي كرم الله وجهه الزنادقة في الأخاديد، ومثل نفي عمر رضي الله عنه لأحد المخنثين .

والسياسة مقام ضنك في معترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق وجرءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، وسدوا على أنفسهم طرقا صحيحة من الطرق التي يعرف بها المحق من المبطل، وعطلوها مع علمهم وعلم الناس أنها أدلة حق. ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع. والذي أوجب منهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها، فلما رأى ولاة الأمور ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد عما فهمه هؤلاء من الشريعة، فأحدثوا لهم قوانين سياسية

ينتظم بها مصالح العالم. . والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأمارته في نوع واحد، وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل، وقيام الناس بالقسط. فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل، وجب الحكم بموجبها ومقتضاها، والطرق أسباب ووسائل. لا تراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التي هي المقاصد. . ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي موافقة للشريعة، وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟ ولا نقول أن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها، وتسميتها أمر اصطلاحي، وإلا فإذا كانت عدلا فهي من الشرع. وقد أحرق عمر رضي الله عنه قصر سعد بن أبي وقاص، لأنه احتجب فيه عن الرعية، وألزم بالطلاق الثلاث لمن أوقعه بفم واحد، عقوبة له كما صرح هو بذلك، وإلا فقد كان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدرا من إمارة عمر،

يجعل واحدة إلى غير ذلك من السياسات العادلة التي ساسوا بها الأمة "

هذا هو رأي ابن تيمية في المصالح المرسلة، وهو الرأي الذي كتبه في مصنفاته ورسائله، أو كتبه عنه تلميذه وناشر فقهه " ابن قيم الجوزية" .

على أن ابن تيمية قد تردد في تسمية هذا الأصل من أصول الفقه : "المصالح المرسلة ". وهو بهذا يخالف شيخه الإمام أحمد. ويستقل عنه بالرأي. فهو يعتبر ما أسماه الإمام أحمد " مصالح مرسلة " داخلاً فيما يدل عليه الكتاب والسنة دلالة واضحة بعموم النص، أو داخلاً في القياس الصحيح أو الاستحسان أو الاستصحاب. .. قال : " القول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل إن الله تعالى قد أكمل هذا الدين، وأتمم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له : إما أن

الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر، أو أنه ليس بمصلحة واعتقده مصلحة، لأن المنفعة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا، ويكون فيه منفعته مرجوحة بالمضرة، كما قال تعالى:﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾.. والمصلحة تسمى رأيا عند بعض الفقهاء (والرأي هو القياس). وتسمى استحساناً عند آخرين "

وما اتخذ ابن تيمية هذا الموقف، إلا لأن الحياة من حوله فرضته عليه. . وكم فرضت عليه الحياة من مواقف وآراء ! !

ذلك أنه رأى الصوفية يعتبرون أذواقهم وإشاراتهم وإلهاماتهم، من باب المصالح المرسلة، فاعتبرهم يحاولون الإفلات من أحكام النصوص بهذه المصالح. . قال : " ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول أو العمل مصلحة في قلوبهم، ويذوقون طعم ثمرته"

ثم إنه رأى أن الأخذ بهذه المصالح قد " حصل منه في أمر الدين اضطراب عظيم، وكثير من الأمراء والعباد رأوا مصالح، فاستعملوها بناء على هذا الأصل، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع، ولم يعلموه، وربما قدم في المصالح المرسلة كلاماً خلاف النصوص، وكثير منهم أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً بناء على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات، أو وقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه "

لقد خشي أن يتحكم العقل في الشريعة، فالأخذ بالمصالح تطبيق لمبدأ : (إن الأمور يدرك حسنها وقبحها بالعقل). . وهو ينكر هذا المبدأ، لأنه يشرع من الدين ما لم يأذن به الله. فهو يرى أن النص يحدد الحسن من الأعمال فنأتيه، والقبيح فننتهي عنه ! !

رأى الناس يعتمدون على المصالح المرسلة، فيبتدعون، ورأى الحكام قد اتخذوها وسيلة للظلم،

ومبرراً لإلحاق الأذى بالرعية في النفس والمال، فطرح هذه المصالح المرسلة، ورأى الأخذ بالمصالح الشرعية فحسب. قال: " كثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال، من بدع أهل الكلام، وأهل التصوف، وأهل الرأي، وأهل الملك : حسبوه منفعة أو مصلحة نافعة، وحقاً وصواباً، ولم يكن كذلك. بل كثير من الخارجين عن الإسلام يحسبون أن ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا "

ثم إن " كل مصلحة حقيقة وليست وهمية، جاءت دليل من الشرع باعتبارها. . أن كل مصالح العباد، والمنافع الحقيقة هي على علم الإباحة الأصلية، بمقتضى حكم الاستصحاب الذي يجعل كل نفع مباحاً حتى يقوم الدليل على خلافه "

فلا حاجة للمجتهد باستنباط الحكم اعتماداً على تحقيق المصالح المرسلة، لأن الحكم بمقتضى المصلحة يمكن استنباطه من الكتاب والسنة ثم

الإجماع – والأمة لا تجتمع على باطل – أو بالقياس الصحيح، أو الاستصحاب .

أما آخر أصل من أصول الفقه التي اعتد بها ابن تيمية، فهو سد الذرائع. . وهو أهم ما يميز مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

وقد تابع ابن تيمية شيخه في هذا الأصل، واجتهد فيه، وتوسع آخذاً بما في المذهب من سعة، وهو ينبني على أن الأحكام الشرعية، تقدر التصرفات، بما يسد الذريعة إلى اقتراف الحرام " فما يؤدي إلى المنهي عنه أيضاً، وما يكون وسيلة إلى المطلوب مطلب كذل فيجب النظر في العقود والتصرفات إلى البواعث عليها، ومآلاتها، فالوسائل تأخذ حكم المقاصد والغايات "

فالباعث إن كان يؤدي إلى حرام. كعقد زواج لا يقصد به العشرة الزوجية، بل التحليل لمن طلق ثلاثا، وكعقد البيع الذي لا يقصد به نقل الملكية بل الربا، وغير ذلك من العقود والتصرفات التي يكون الباعث عليها محرما. .كلها عقود محرمة : فالعبرة

في العقود بالنية لا بالألفاظ " بالمقاصد والمعاني لا بالمباني " أما المآلات أو الغايات، فهي ما ينتهي إليه التصرف، فإن كانت أدت إلى تحقيق مصلحة شرعية، فهي مباحة، وإن أدت إلى تحقيق مفسدة، فهي محرمة " فالعبرة بالنتيجة. .

قال : " للشريعة أسرار في سد الذارئع، وحسم مادة الشر، لأن الشارع عليم بما جبلت النفوس، وبما يخفى على النفس من خفي هواها الذي لا يزال يسري فيها، حتى يقودها إلى الهلكة. فمن تحذلق على الشارع، واعتقد في بعض المحرمات أنها إنما حرمت لعلة كذا، وتلك العلة مقصودة فيه، فهو ظلوم لنفسه جهول بأمر ربه، هو إن نجا من الكفر، لم ينج غالبا من بدعة، أو فسق، أو قلة فقه في الدين، وعدم بصيرة " ويضرب أمثلة لسد الذرائع مضيفا إلى أمثلة الإمام أحمد :

نهى النبي ﷺ عن أن يسب الرجل أبوي آخر، لأنه ذريعة إلى أن يسب الآخر أبويه .

نهى الشارع خطبة المعتدة، فقد يؤدي إلى الزواج في العدة وهو منهي عنه .

نهى المقرض عن قبول هدية المقترض لكيلا تكون ذريعة للربا.

قتل الجماعة بالواحد باتفاق الصحابة، لكيلا يكون التعدد ذريعة إلى الإفلات من حد من حدود الله، وهو القصاص .

نهيه عليه الصلاة والسلام عن اقتران البيع بالسلف، سداً للذريعة إلى الربا (فقد يقرضه مائة؛ يبيعه شيئاً تافهاً بألف)

منع كل الحيل التي تؤدي إلى محرم، " ولكن تجوز الحيلة لطلب الحق بكلمات توهم بغير المراد، وتجوز في الطريق الحلال للوصول إلى حلال. فذلك مباح باتفاق الفقهاء ما دامت لا تتعارض مع الشرع "

من اضطر إلى الاستدانة من الغير، فأبى أن يعطيه إلا بربا، فأخذه منه بذلك، لم يستحق عليه إلا مقدار رأس ماله، سداً للذريعة إلى الربا "

على أن بعض الفتاوى التي اعتمد فيها على سد الـذرائع، جـاءت علـى أسـاس المصـالح المرسـلة. . وذلك مثل :

الحاجـة إلـى السـكن فقـال : " إذا قـدر أن قومـا اضطروا إلى السكن في بيت إنسان لا يجدون سواه، أو النزول في خان، أو استعارة ثياب يستدفئون بها، أو دلـو لنـزع المـاء، أو قـدر أو فـأس أو نحـو ذلـك، وجب على صاحبه بذله بلا نزاع ويجب عليه ذلك مجانـاً، كمـا دل عليـه الكتـاب والسـنة، وإن كـان رأي الإمام أحمد في قوله أنه يأخذ أجرة المثل "

إيجـاب طـاعـة الإمـام. علـى أن الإمـام يجـب أن تتـوفر فيـه ثلاثـة شـروط : أن تكـون ولايتـه بمشـورة من المسلمين. والبيعة، والعدالة وطاعته واجبـة حتـى إن ظلـم، ولكـن لا يطـاع فـي معصـية، وفـي كـل الحالات فالخروج عليه بالسيف منهي عنه .

***

ولكن ابن تيمية ينصح المجتهدين في استنباطهم الأحكـام، والرجـوع إلـى الكتـاب والسـنة، وبالعـدول

عن آراء المذهب، إن صح عندهم حديث يخالف رأيهم، وبهذا نصح الأئمة الأربعة، وهذا هو نهج الخلفاء الراشدين، وهم أعلم الأمة بطرائق استنباط الأحكام الشرعية، فقد علمهم النبي ﷺ. كان الواحد منهم يعلن رأياً أو يصدر حكماً، فإذا تبين له أن هناك حديثاً صحيحاً يخالفه، أخذ بالحديث، وعدل عن اجتهاده. .

سألت امرأة أبا بكر حقها في ميراث حفيدها، فقال لها : " أنت جدة، ومالك في كتاب الله من شيء، وما علمت لك في سنة رسول الله من شيء، ولكن أسأل الناس ". فسألهم فقام اثنان من الصحابة فشهدا أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس .

وكان عمر لا يعلم أن الزوجة ترث من دية زوجها حتى أعلمه أحد الصحابة أن الرسول قد ورث امرأة من دية زوجها، فقال عمر : " لو لم نسمع هذا لقضينا بخلافه "

ولما انتشر الطاعون في الشام وعمر قادم إليه، استشار المهاجرين الأولين، ثم الأنصار فيما

يصنعه، أيذهب إلى الشام أو لا يذهب؟ فلم يخبره أحد بشيء، حتى أخبره عبد الرحمن بن عون أن رسول الله ﷺ قال: إذا نزل الطاعون بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها، وإذا سمعتم به من في أرض فلا تقدموا عليها "

***

على أساس أصول الفقه تلك، مارس ابن تيمية نشاطه الفقهي، وأكثر آرائه اتباع للإمام أحمد، وبعض الآراء عدول عن المذهب الحنبلي، إلى المذاهب الأخرى. وقد لاحظ أنه عند اختلاف الأئمة الأربعة، يتفق رأي أحمد ومالك، أو أحمد والشافعي، ولكن قلما يتفق رأي أحمد وأبي حنيفة. .

ولابن تيمية آراء قليلة، ترك فيها المذاهب الأربعة، ليأخذ من فقه آل البيت، وله بعد ذلك آراء انفراد بها .

وقد اتبع ابن تيمية آراء أحمد جميعا حتى فيما انفرد به، إلا في فتاوى قليلة .

ومما اتبعه في مفردات أحمد :

قبـول شـهادة أهـل الذمـة علـى المسـلمين عنـد الحاجة، كالوصية في السفر .

تحريم زواج الزانية حتى تتوب .

جواز شهادة العبد .

طلاق السكران لا يقع .

أمـا اختياراتـه مـن المـذاهب الأخـرى فكثيـرة، بعضـها كـان قد وافق عليـه أحمد، وبعضـها لـم يكـن الإمام أحمد يأخذ به، ومن الاختيارات :

يجـوز نقل الزكـاة مـن إقلـيم لإقلـيم فـي المصـر الواحد (الوطن الواحد)

الزكاة للأصـول وإن علـوا (كالأجداد) وللفروع وإن هبطـوا (كالأحفـاد) إذا كـانوا محتـاجين، وتسـدد ديونهم من الزكاة. وأحمد يوافق على هذا الرأي .

لا يجوز إعطاء شيء من الزكاة لمن لا يستعين بها على طاعة الله فرضها معونة على طاعته .

لا يجـوز أن يعـان بالمبـاح علـى المعصـية، فـلا يعطـى اللحـم أو الخبـز لمـن يشـرب عليـه الخمـر، ويستعين به على الفواحش .

تؤدى الزكاة لولي الأمر العادل لصرفها على مستحقيها، فإن كان ولي الأمر لا يصرف الزكاة في المصارف الشرعية، فينبغي على صاحبها ألا يدفعها إليه .

لا يصح بيع ما قصد به الحرام، كعصير يتخذ خمراً، إذا علم ذلك. ولو ظن الآجر أن المستأجر يستأجر الدار لمعصية، لم يجز له أن يؤجره تلك الدار. وهذا الرأي اتفق عليه مالك واحمد .

طلاق المكره لا يقع وهذا اتفاق مالك الشافعي وأحمد .

" السكران إذا سكر بقصد القتل أو الزنا أو غير ذلك من المحرمات، ثم فعل ذلك في حال السكر، فان إثمه مثل إثم من فعل ذلك في حال الصحو وأكثر. وإن لم يكن قصده بذلك، بل ابتدأه غيره بالمهانة فقتله، فإن إثمه يكون أقل من ذلك "

الخط بينه في الإثبات. " العمل بالخط مذهب قوي بل هو قول جمهور السلف (اتفق عليه مالك والشافعي وأحمد) "

كل شرط لا يخالف الشريعة أو مقصود العقد، واجب الاحترام كاشتراط الزوجة ألا يتزوج عليها، أو ألا ينقلها من بلدها ونحو ذلك، لما جاء في الحديث : " إن أحق الشروط أن توفوا ما استحللتم به فروج النساء "

ويجوز للبائع أن يشترط الانتفاع بالمبيع مدة معينة، وفي الحديث : الناس على شروطهم ما وافقت الحق .

إذا تلف المعقود عليه بجائحة قبل التمكن من قبضه، لا يدفع فيه الثمن، لأنه أخذ للمال بغير عوض من غير رضا صاحبه، وأكل لأموال الناس بالباطل، وقد نهى الله تعالىعنه :﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾. والجائحة هي الآفة، التي لا يمكن فيها تضمين (أي تعويض) أحد : كالريح، والمطر، والبرد، والحر، والصواعق، والجيش حين يتلف، واللصوص. فإذا أمكن التعويض، فالخيار بين إجراء الصفقة مع تعويض ما تلف منها، أو الفسخ.

والعقود التي تنطبق عليها القاعدة هي عقود البيع والإجارة، فالمنفعة المقصودة بعقد الإجارة، إذا لم يمكن استيفاؤها بطلت الإجارة، فإذا زال بعض نفعها المقصود بالعقد، وبقي البعض، فللمستأجر حق الفسخ، أو ينقص من الأجرة بقدر نقص المنفعة .

واتهم الشيخ معارضي هذا الرأي بأنهم (غفلة بينة، وأنه رأي لا ينكره كل ذي فطرة سليمة، حتى لم يمارس الفقه من الفلاحين، وشذاذ المتفقهة "

دور مكة لا تؤجر، وأن من استأجرها لا تلزمه الأجرة، ويحرم عليه دفعها، إلا أن يكون مضطراً، بأن تغلب على مكة متغلب، أو كان أهل مكة لا يمكنون الحجيج من الدور إلا بأجرة. قال: " مكة المشرفة فتحت عنوة، ولا تجوز إجارتها، فإن استأجرها، فالأجرة ساقطة يحرم بذلها (فدور مكة في حرم الله الآمن). . وكذلك لا يجوز بيع هذه الدور "

وقد روي أن عمر قال : " يا أهل مكة لا تتخذوا لبيوتكم أبواباً، لينزل الناس " وكان رضي

الله عنه ينهى عن بيع الطعام في موسم الحج، " حتى لا يجهد الحجاج، ويكون الاحتكار، وترتفع الأسعار " ويقول أبو عبيدة : " إن رسول الله ﷺ قد سن لمكة سنناً لم يسنها لشيء من سائر البلاد. . فلا تباع رباعها (دورها)، ولا تؤخذ إجارتها، ولا تحل ضالتها، ولا تغلق دورها دون الحاج، ولا يطيب كراء بيوتها، وإنها مسجد المسلمين "

" يجوز بيع المصوغ من الذهب والفضة بجنسه، من غير اشتراط التماثل، ويجعل الزيادة في مقابل الصنعة، وليس هذا ربا ". وهو رأي مالك، ورأى ضعيف لأحمد .

أما آراؤه التي استقل بها، فمنها :

" قصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً " وهو قول بعض الصحابة .

" من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل، فبان أنه نهار، لا قضاء عليه، كما هو الصحيح عند عمر "

مـا ملكـت أيمـانكم مـن الوثنيـات، لهـن حكـم الكتابيات .

" يجوز التيمم، مع وجود الماء للوضوء، لمن خاف فوات العيد والجمعة أو وقت صلاة أخرى من الصلوات المكتوبة "

يجوز توريث المسلم من الذمي .

" المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال في البيت، أو شق عليها النزول إلى الحمام وتكرره، لها أن تتيمم وتصلي "

لا حد لأقل الحيض، ولا لأكثره، ولا لأقل الطهر بين الحيضتين، ولا حد لسن الإياس (اليأس) من الحيض، فإن ذلك يرجع إلى ما تعرفه المرأة عن نفسها .

" تارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه، ولا يشرع له القضاء، بل عليه الإكثار من النوافل رجاء غفران الله "

لقد حاول الشيخ الاجتهاد، مستنبطاً أحكاماً مستقلة، ليرفع من الناس الظلم والحرج من فتاوى

الفقهاء الجامدين المقلدين، عسى أن تنضبط أمور الناس بقواعد الشريعة السمحة .

ونظر في أحوال الناس حوله، فراعه ما يراه من انهيار بيوت وتمزق عائلات، لأن رب البيت حلف على شيء بالطلاق، وحنث في اليمين، فتتحمل الزوجة البريئة وأولادها، مسئولية حماقة الزوج ! !

ورأى الرجل يطلق المرأة ثلاثاً في فم واحد، أو في مجلس واحد، فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره. . ! ونظر في أصول المسألة، فهدته دراسته في فقه آل البيت إلى أن اليمين بالطلاق باطل، لا يقع به طلاق، وإلى أن للطلاق شروطاً حددتها السنة : أن يطلق الرجل امرأته طلقه واحدة، بشرط أن تكون قد اغتسلت من الحيض، وقبل أن يدخل بها، ثم يدعها، فلا يطلقها حتى تكمل عدتها. . فان أراد أن يراجعها فله ذلك، بدون رضاها، ولا رضا وليها، ولا مهر جديد .

وان تركها حتى تنقضي العدة، فقد بانت عنه.

فإن أراد أن يتزوجها بعد انقضاء العدة جاز له ذلك، لكن بعقد جديد .

فإذا تزوجها مرة ثانية، وأراد أن يطلقها، فإنه يطلقها كما تقدم، فإن طلقها الثالثة حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره. فالطلاق ثلاثاً في عبارة واحدة أو في مجلس واحد، أو في طهر واحد، والطلاق على غير الوجه المذكور آنفاً، كل أولئك طلاق لا يقع ثلاثاً. . إنما هو طلقة واحدة. .

كانت هذه هي أحكام الطلاق في عهد الرسول ﷺ، وخليفته أبي بكر، وخلال عامين من عهد عمر. فلما رأى عمر الأزواج يسرفون في الحلف بالطلاق، أو يندفع الواحد منهم فيطلق امرأته ثلاثاً في عبارة واحدة. فلما رأى عمر ذلك أراد أن يؤدب الأزواج، فقضى بوقوع الطلاق في هذه الحالات ثلاثاً. . وسار الفقهاء من بعده على هذا، ونسوا الحكمة فيما قضى به عمر. .

أعلن ابن تيمية رأيه في الطلاق في كتبه، ودرسه وأفتى به، وأضاف إلى رأي آل البيت في

الحنث بيمين الطلاق، أنه وان كان الطلاق لا يقع إطلاقاً، إلا أن على الحالف كفارة : إطعام عشرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام. وهي كفارة الحنث باليمين .

ولا تقع طلقتان في طهر واحد، بل يجب أن تنقضي العدة .

ضج الناس بالفرحة لهذه الفتوى، فهي تنقذ البيوت من الانهيار والتمزق، وتمنوا لو أن القضاة الأربعة عملوا بها. . ! !

غير أن القضاة الأربعة ضجوا بالنكير عليها، وقاموا ومعهم الفقهاء والعلماء من المذاهب الأربعة، فهاجموا رأي الشيخ، فمنهم من قال إنه اجتهاد خطأ، ومنهم من قال إنها البدعة، فهي ضلالة، وقال آخرون انه الغرور والزيغ وحب الظهور، وطلب الرياسة. . ! !. . فما الشيعة، وما من أحد من أهل السنة في هذا الزمان يأخذ برأي الشيعة !

وأسرع قاضي قضاة الحنابلة إلى الشيخ تقي الدين، فنصحه بأن يعدل عن هذا الرأي، فأكد له الشيخ أنه على الحق !

وما زال قاضي القضاة بالشيخ حتى عاهده أن يكتم هذا الرأي ولكنه لن يعدل عنه. . !

غير أن بعض الذين أنكروا الفتوى من العلماء والفقهاء، أرسل إلى السلطان في القاهرة، يطلب منه عقاب ابن تيمية على ما ابتدعه، وعلى مخالفة رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وسائر السلف الصالح من بعده. .

وكان السلطان في القاهرة، قد ارتمى في أحضان الصوفية، وتوثقت علاقته ببعض شيوخ طرقهم، حتى أنه خرج للصيد يوماً، فداهمه ألم في بطنه وهو بالقرب من قرية " سرياقوس "، فصار يتلوى ويصيح، ويتوجع، فنذر لله لئن شفاه من مرضه هذا، ليرضين الصوفية الذين يعرفون أكثر من غيرهم، استقامة الطريق إلى الله. . !

فلما شفي، أمر بإنشاء دار كبيرة (خانقاه) تسع مائة صوفي، وألحق بها مسجداً، ومطابخ، وحديقة، ومزرعة. . وأمر بأن تقوم هذه المنشآت حيث داهمه المرض، وحيث شفاه الله ببركة رضا الصوفية عنه .

ولم يرض الشيخ عما صنعه السلطان، وتكلم فيه، فبلغ ذلك السلطان، فغضب !. .

وإذن فقد تغير قلب السلطان على الشيخ !. .

أصدر السلطان أمره بمنع الشيخ من هذه الفتوى، وبأن يؤذن في الناس، أن فتوى الشيخ في الطلاق باطلة بإجماع قضاة وفقهاء المذاهب الأربعة. .

كان الشيخ قد عاهد قاضي القضاة الحنابلة سراً بأن يمتنع عن هذه الفتوى، وأنجز وعده. . ولكن أن يصدر بالمنع أمر سلطاني، وأن يشهر بصاحب الفتوى على النحو الذي كان حدث، فهذا أمر آخر ! لقد امتنع من تلقاء نفسه، سداً لذرائع الخلاف مع سائر العلماء والفقهاء والقضاة. أما اليوم فتوقفه عن

الفتيـا، سـيظهره كمـا لـو كـان رأيـه خطـأ، أو كأنـه مقهور على كتمان شهادة الحق .

ومازالـت البيـوت ممزقـة الشـمل، والمضـرة واقعة على الزوجات والأطفال، بسبب إقرار الطلاق على النحو الذي ينكره الشيخ .

وأحس أن مسئوليته عن دفع المضرة الواقعة، تضـطره إلـى التمسـك بفتـواه، والعمـل علـى إقنـاع القضاة بها، وليس من حق أحد بعد، أن يضطره إلـى إخفـاء الحـق، وكتمـان الشـهادة لله : لا السـلطان، ولا القضـاة، ولا العلماء، ولا هو نفسـه ! !. فكتمـان كلمـة الحـق التـي تنقذ النـاس مـن بـلاء يعمهـم، إنمـا هـو اقتراف إثم ينتظر منه، وما ينبغي له !

وعـاد يفتـي برأيـه فـي الطـلاق، كلمـا التقـى بالنـاس. . وفـرح خصـومه : لقـد وقـع ! !. . خـالف السـلطان، ومـا اسـتمد قوتـه إلا مـن السـلطان، ومـن تأييد العامة !. .

فلما علم السلطان أن الشيخ يتحدى أوامره، لم يغفرها لـه، والسلطان منذ عاد إلى العرش يكتشف

مؤامرات ضده، حتى لقد وجد على فراشه خطاب تهديد بالاغتيال، فلما حقق تبين أن الذي بلغ هو الذي كتب الخطاب. . وهو صديق له .. !

وتخيل السلطان، أن صديقه ابن تيمية ربما كان انضم إلى بعض المتآمرين، منذ علم أن الصوفية يظاهرون السلطان. . ثم إن له الآن رأياً في السياسة يريب ! !

أصدر السلطان مرسوماً يمنع ابن تيمية من الإفتاء، وعزله من التدريس، وسجنه في قلعة دمشق، عقاباً له على عصيان أوامر السلطان ! !

ولبث في سجنه نحو خمسة أشهر، وتشفع فيه عدد من أصدقائه من علماء مصر، وفقهائها، وأمرائها، وأوضحوا للسلطان، أنه ما كان يريد أن يعصى الأوامر السلطانية، أو يتحداها، أو يحقرها، ولكنه رأي بدا له !. .

وما زالوا بالسلطان حتى أفرج عنه، وأعاده إلى منصبه. . !

وعاد الشيخ إلى فتواه في الطلاق، فناظره بعض العلماء أمام الناس، ولاحظ الشيخ عليهم مظاهر الثراء، فقال : " رحم الله ابن دقيق حين قال : لهم مريحان من جهل وفرط غنى وعندنا المتعبان الفقر والعدم

واستمر يفتي متحدياً خصومه، مزرياً بهم، ساخراً منهم، فقرروا الخلاص منه، وإسقاطه عند العامة، كما أسقطوه عند السلطان. . فما يحميه الآن غير هؤلاء العامة. .

بحث خصوم الشيخ في كل ما كتبه، وأفتى به، حتى وجدوا فتوى بخطه، يحتفظ بها أحد أهل دمشق، تبركاً بخط الشيخ !. .

كان السؤال عن زيارة قبور الأنبياء والصالحين، فأفتى الشيخ : " إن الزيارة للعظة والاعتبار مستحبة، أما القصد لزيارة قبر أحد الصالحين، أو أحد الأنبياء، بعينه، للدعاء عند القبر، فهذا لا يجوز. فهذا الفعل ذريعة إلى الشرك والوثنية. قال النبي ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثناً

يعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). فلا تشد الرحال لزيارة قبور الصالحين، ولا قبور الأنبياء. وفي الحديث الشريف : (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى). وقد أجمع الأئمة على عدم مس قبر الرسول، والدعاء عند القبر مستقبلا القبر غير جائز، فقد كان السلف الصالح يستقبلون في دعائهم القبلة، لا القبر "

وهب الفقهاء والعلماء، يفندون رأيه، ويتهمونه بالابتداع، وبالشذوذ في الفتيا، ومخالفة الإجماع المتواتر منذ قرون. واستمر الإنكار عليه عصراً بعد عصر. .

ويرى العالم الجليل المغفور له الشيخ محمد أبو زهرة، أن " خوف الشيخ من أن يؤدي ذلك إلى الوثنية، خوف في غير مخاف، لأن الناس كانوا يزورون قبر الرسول إلى أوائل القرن الثاني، ثم بتوالي العصور من بعده إلى يومنا هذا، ومع ذلك لم ينظر أحد إليه نظرة عبادة أو وثنية، نعم تفرط من

العامـة عبـارات كالتوسـل بجاهـه، أو الاستشـفاع بشـفاعته، وهـي عبـارات لا وثنيـة فيهـا. . والسـلف الصـالح كـانوا يتبركـون بزيـارة قبـره الشـريف، ولـم يجدوا فيها وثنية، ولا ما يشبهها. . إننـا نخـالف ابـن تيمية في منعه التبرك بزيارة قبر الرسول. . فالتبرك ليس هو العبادة بل هو الاستبصار "

أما الحنابلة فأيدوا الشيخ .

وأمـا العامـة فقـد صـدمتهم الفتـوى ! وتسـاءلوا متعجبين : " مـا بـدل الشـيخ الـذي وهـب حياتـه كلهـا للدفاع عن السنة وإحيائهـا، مـا بالـه وقـد اقتـرب مـن الخامسـة والسـتين، يمنـع " زيـارة قبـر الرسـول، والدعاء عنده؟! وصدقوا فيه ما أذاعه خصومه، أنـه لا يحمل للرسول ﷺ، ما ينبغي من الإكبار.

وإذ وصل إلى السلطان أمر هذه الفتوى، وأمـر الاستمرار في فتوى الطلاق، أمر باعتقال الشيخ .

وضـع الشـيخ فـي سـجن القلعـة، " ودخـل عليـه قاضـي القضـاة يسـأله عـن مضـمون قولـه فـي مسـألة الزيـارة، وعمـا أراد مـن ذلـك. ثـم كتـب محضـراً بمـا

أجاب به ابن تيمية، جاء فيه : (قابلت الجواب عن هـذا السـؤال المكتـوب، علـى خـط ابـن تيميـة. . والمحزن جعله زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء صلوات الله عليهم. . معصية بالإجماع مقطوعاً بها) "

ويعلق ابن كثير على هذا في أسف : " فانظر الآن هـذا التحريف على شيخ الإسلام (يعني ابن تيمية) فإن جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحال، والسفر إلى مجرد زيارة القبور. وزيارة القبور من غير رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى. والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية من شد الرحل، بل يستحبها وندب إليها، وكتبه تشهد بذلك. ولم يتعرض إلى هذه الزيارة على هذا الوجه في الفتيا، ولا قال إنها معصية، ولا حكى على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول : (زوروا القبور فإنها تذكركم بالآخرة) ..

وابن كثير، مؤرخ أمين مدقق، ولابد أن يكون قد اطلع على مخطوطات لابن تيمية، لم يطلع عليها من أنكروا فتواه. وابن تيمية فيما بقي من كتاباته نهى عن الدعاء مستقبلا القبر الشريف، فهو إذن يقر الزيارة .

نفى ابن كثير الادعاء على ابن تيمية بأنه يمنع الزيارة، بل هو يمنع شد الرحل، من أجل زيارة القبر الشريف فحسب. فشد الرحل، أي نية السفر والتجهيز له وتحمل مشقاته، يجب أن تكون لزيارة المسجد النبوي الشريف، وتأتي بعد ذلك الزيارة، والتفرقة دقيقة يصعب إدراكها .

ومهما يكن من أمرها، فقد استنفرت فتواه العامة والخاصة على السواء، وجرح هذا الرأي مشاعرهم الدينية العميقة، وحبهم، وتعظيمهم للرسول ﷺ .

واعترت الشوارع حدة. . فقد تحاور الناس في فتواه، فزعم بعضهم أن فيها غضاً من مقام رسول الله ﷺ .

وقال أحد المدافعين : إنما هو رأي اجتهد فيه فأخطأ، " والله ما رأيت أحداً أشد تعظيماً لرسول الله منه "

أخليت للشيخ قاعة فسيحة، في قلعة دمشق، وأجرى إليها الماء، وأقام معه أخوه يخدمه بإذن السلطان، وأجرى عليه ما يقوم بكفايته .

ولم يكد الشيخ يستقر في محبسه بالقلعة، حتى أصدر قاضي القضاة، حكماً بحبس جميع علماء الحنابلة وتعزيرهم. " وعزر جماعة منهم بالجلد، وجماعة بإركابهم على الدواب والمناداة عليهم، وبعد ذلك أطلقوا من محابسهم ما عدا تلميذه وصفيه شمس الدين محمد بن قيم الجوزية. فإنه حبس بالقلعة "

وقد أبدى الشيخ فرحة بالسجن فقال : " أنا كنت منتظراً ذلك وهذا فيه خير كثير، ومصلحة كبيرة "

وزاره والي دمشق، لما بلغه أنه مرض، وأخذ يعتذر للشيخ، فقال الشيخ : " إني قد أحللتك وجميع من عاداني، وهو لا يعلم أني على حق، وأحللت السلطان المعظم المالك الناصر من حبسه إياي،

لكونه فعل ذلك مقلداً معذوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد مما بينى وبينه، إلا من كان عدواً لله ورسوله "

وحمل للشيخ جميع ما طلب من كتب، وأوراق وأقلام .

فعكف على كتبه ينفحها ويحكمها، ويعيد قراءة القرآن ويتأمل فيه، ويقوم ليله متعبداً، قائلاً : " لا تنال الإمامة في الدين إلا بالفقر والصبر !. .وعجب له من سمعه فهذا كلام• شبيه بكلام الصوفية. . !

وبدأ يفسر بعض القرآن الكريم، ويفند في عنف آراء مخالفيه في أمور الاعتقاد، ويرسل كتاباته إلى أتباعه وأصدقائه خارج السجن، فيقرءونها على الناس، ويناظرون فيها ..

وضاق خصومه بهذا، فما جدوى سجن الشيخ، إن كانت آراؤه وكتاباته مازالت شائعة، يهتم بها الناس؟!. .

وحمل إليه بعض زواره فتوى للقاضي المالكي في القاهرة، يهاجم فيها رأي الشيخ في زيارة قبر

الرسول، فرد الشيخ عليه رداً قاسياً، واتهمه بالجهل والغباء. . !

وذهب القاضي المالكي إلى السلطان شاكياً مقالة الشيخ فيه منكراً السماح للشيخ بالكتابة، وتداول أفكاره، وما سجن إلا لحماية العباد من شر هذه الأفكار. . ! فأمر السلطان بإخراج ما كان لدى الشيخ من الكتب، والأوراق، والمحابر، والأقلام، وكانت نحو ستين مجلداً، وأربع عشرة ربطة كراريس .

وعلم فقهاء العراق بما جرى للشيخ فأرسلوا إلى السلطان خطاباً يلتمسون فيه العفو عن ابن تيمية، ووقعه فقهاء المذاهب الأربعة جميعاً. . قالوا : " إن اعتقال الشيخ عظم على المسلمين، وشق على ذوي الدين، وارتفعت رؤوس الملحدين، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين. . ولما علم علماء أهل هذه الناحية، من شماتة أهل البدع، وأهل الأهواء بأكابر الفضلاء، وأئمة العلماء، أنهوا حال هذا الأمر الفظيع، إلى الحضرة الشريفة السلطانية

زادها الله شرفاً، وكتبوا تصويب ما أجاب به الشيخ – سلمه الله – في فتواه، وذكروا من علمه وفضائله بعض ما هو فيه، وحملوا ذلك بين يدي مولانا ملك الأمراء. . ."

ولكن السلطان، لم يجبهم. .

حاول الشيخ أن يتعود الحياة بلا كتابة، ولكنه لم يستطع. .. وزلزل زلزالاً شديداً. . !. . ما عرف مثل هذا البلاء من قبل. .

وأصابه الهزل، وسئمت نفسه. . وسلم أمره إلى الله، وأخذ يقضي وقته في العبادة، وتلاوة القرآن. .

وذات يوم، أراد أن يكتب بعض خواطره. فسأل السجان ورقاً وقلماً، فقدم إليه السجان قطعة من الفحم، ورقعة صغيرة من الورق. .دسها إليه فكتب :

" نحن ولله الحمد في عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا اليوم مثل جهادنا يوم قازان، والجبلية، والاتحادية، وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون "

وكتب عن خصومه في رقعة أخرى : " كانوا قد سعوا في ألا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب. . فلم يمكنهم أن يظهروا عيباً علينا في الشرع والدين، بل غاية ما عندهم أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين، والمخلوق كائناً من كان، إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله، لم يجب، بل لا تجوز طاعته في مخالفة أمر الله ورسوله باتفاق المسلمين"

وتساءل فيما بينه وبين نفسه، ما عساهم يصنعون بمخطوطاته التي استولوا عليها؟! فليست كلها تنقيحاً لكتبه وفتاواه المنشورة، بل إن فيها ما لم يطلع عليه أحد بعد : تفسير بعض الآيات وقصار السور. . وكان الشيخ قد رأى أنه لا ضرورة لتفسير القرآن كله، لأنه رأى منه ما هو بين بنفسه. . " ومنها ما بينه المفسرون في كتب كثيرة، ولكن في كتاب الله آيات أشكل تفسيرها على العلماء، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية، تبين معاني نظرائها "

فسر سورة الأعلى : بأن " الله هو العلى بكل ما لهذه الكلمة الجامعة من معنى. ويدخل في معنى كونه الأعلى، أنه متعال عن كل عيب ونقص. وعن اتخاذه شريكاً وولداً له ". وهذا رأي لا يعجب الخصوم ! عسى الله أن يهدي خصومه الذين يراجعون ما كتبه في التفسير، فلا يشتطون. . !. . لقد فسر القرآن والسنة، وهاجم التفسير بالرأي ومحص التفاسير التي سبقته، فأخذ ببعضها، وطرح البعض، واهتدى بأقوال السلف حتى القرن الثالث ونبه إلى بعض الإسرائيليات المدسوسة على التفاسير. . !. .

وفسر سورة الفلق وسورة الناس، وسورة النور آخذاً في تفسيره بمذهب أهل السنة، ورد على من يخالف أهل السنة في أمور الاعتقاد، وبث في هذا التفسير آراءه في العقائد، التي نافح عنها، و عانى في سبيلها طول العمر .

***

ظل الشيخ في سجنه نحو عامين ممنوعاً من القراءة، والكتابة، لا يستطيع أن يكتب إلا بالفحم على رقع صغيرة من الورق، تهرب إليه ! واحتفظ التاريخ بهذه الرقع. .

ولكنه لم يحتمل طويلاً وطأة المنع من الكتابة، والتفكير !. .

كان يصبر نفسه بتلاوة القرآن، بصوت خاشع متهدج. .

وفي ليلة الاثنين والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٧٦٨ هـ كان يتلو :﴿ إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾

وفاضت روحه عند هذه الآية. .

وخرجت دمشق كلها برجالها ونسائها وأطفالها، تودعه، وتبكيه أحر البكاء. .

وهكذا صمت الرجل الذي ملأ الحياة من حوله ضجيجاً، وزحاماً، واضطراماً بآرائه واقتحاماته الفكرية. .

وما زال فكره يملأ الحياة من بعده ضجيجاً، واضطراماً. .

وما زال حتى اليوم يحتفظ بضراوة الخصوم، وحماسة الأنصار. . !